رواية

نورا سليمان

ظريف الطول

وكأن شطرًا مِن روحي
بلهيبك يحترق.

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

ظـريف الطـول

وكأن شطرًا مِن روحي
بلهيبك يحترق.

عصير الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو / 2021م

رقم الإيداع: 2021/09242م

الترقيم الدولي: 978-977-992-166-2

المؤلفة: نورا سليمان

العنوان: ظريف الطول

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

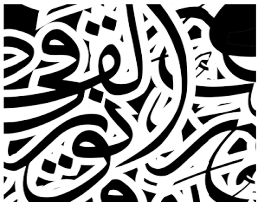

رواية

نورا سليمان

ظريف الطول

وكأن شطرًا مِن روحي
بلهيبك يحترق.

عصير الكتب

حتى لا ننسى، ولا نسمح للزمان بأن يقتنص منا ذاكرتنا في غفلة
مِن العمر المهرول نحو المغيب، لنظل نحن و أبناؤنا وأحفادنا
على الوعد والقسم، الأرض لنا والقدس لنا، الحلم لنا والغد لنا،
وفلسطين حقنا، على أرضها وأرضنا ما يستحق الحياة.
(حتى لا ننسى)

إهداء

إلى رفيقتَيَّ اللتين شجعتاني كثيرًا لإكمال رحلة جديدة شعرت عبر سطورها أني أسيرُ فوق الألغام.. الرحلة لم تكن سهلة بين صياغة بضع صفحات من تاريخ لم يَمْسَسْه تشويه، وبين عكس صورة مغايرة لما يصل إلينا عن هذا الشعب... إلى د/ رفيدة مناصرة الخليلية شكرًا لابنة فلسطين لتزويدي بالمعلومات المميزة عن شعبها العظيم.. وإلى صديقتي عبير معطي التي عانت معي وهي تحثني على الاستمرار في الطريق...

خرج من باب المنزل الخشبي الذي يتوسطه نافذة زجاجية معتمة مزركشة بالرسوم الإسلامية، إلى حديقة تتزاحم فيها أشجار الزعرور الكثيفة المحملة بثمرها، بعضها صفراء وأخرى حمراء شهية، وكأي طفل في سِنِّه التي لم تتخطَ الثمانيَ بعدُ، كان يقفز ليقطف من بعض خيرها، ثم ينطلق تاركًا إياها وراءه لتظلله أشجار الزيتون العريقة كما عراقة بيت جده وأجداده من قبله.

تُرى كم عمر هذا البيت الذي تتوارثه عائلته منذ أجيال؟ ربما مئة وعشرون عامًا كما أخبره جده في إحدى لياليه العنترية وهو يضخ تاريخه ويقص أصوله وأحقيته في أرضه، يخبره أن قدره لن يصبح مثل أبيه؛ يداوي الأفئدة، ويطبب الفدائيين سرًّا، بل لقد قُسِم له مصيرٌ آخر سيكتب بخيوط الذهب، ويخلد في الكتب كما من ضحَّى قبله ليبقى اسم فلسطين عاليًا لا يخضع لمحاولة محوه أو تضليل هويته.

خطواته الثقيلة قطعت صمتها المترقب، وقبل أن تستدير إليه كانت يده تخبط رأسها بمرح، وهو يقول:

– لورين، والدتي تريدكِ، ما الذي تفعلينه هنا؟

هتفت فيه بنزق وهي تلتقط حجرًا وتضربه نحوه بمدافعة فطرية لرد اعتدائه:

– مزعج، لا تضربني.

تفادى حجرها بمهارة متجنبًا الإصابة ليسقط بجانبه دون أن يصيبه.

عبست غضبًا، لطالما أجاد أخوها صد الاعتداء، وبرع في كل ألعابهما المشتركة مع الرفاق بالاختباء!

مد يده في سلام يهادنها مقدمًا لها إحدى ثمار حديقتهم، وسألها ببساطة:

– هل تنتظرين أبي؟

تناولت الثمرة الحلوة الحامضة ثم مضغتها سريعًا وأجابته بإحباط:

– لقد وعدني أن يأتي اليوم، اشتقت إليه يا عيسى.

قال بمشاغبة:

– والدكِ يداوي الناس وينفع أولاد قريتنا كما يخبرنا جدي، ولا وقت لديه لمدللته الصغيرة.

هتفت وهي تقعد بغضب على الأرض تحت الياسمين برائحته العطرة:

– أنت مزعج.

قعد عيسى بجانبها خابطًا كتفها بكتفه، وقال مازحًا:

– أعرف، ولكني صديقكِ الأوحد.

علاقتهما كانت ما بين شد وجذب كأي شقيقين، ولكن ميَّزها شيء واحد؛ شدة صفائها وصدقها المحبب، لذا لم يكن غريبًا تقبُّل اعتذاره وإن لم ينطقه.

عندما وضعت رأسها على كتفه وأعلنت بسلاسة مذهلة:

– وبطلي ورفيقي أيضًا.

ابتسم بلطف قبل أن يهذر:

– سأخبركِ بسرٍّ، إن ساعدتِني ببناء بيت الشجرة الذي أصنعه لكِ هديةً ليوم مولدكِ.

توسّعت عيناها بانبهار واستفسرت:

– تلك الأخشاب التي جهزها لكَ جدي.. كانت لتصنع هدية لي؟!

– نعم، أحب أعمال النجارة كجدنا، تعلمين أني أقضي كل وقتي معه.

هتفت:

– وأنا أفضل قضاء الوقت مع أبي، أرغب في أن أصبح طبيبة مثله لأعالج الفدائيين.

قفز من مكانه وقال بتلقائية:

– إذن، ستعالجينني قبل أن أصبح شهيدًا.

عبست:

– لا.. أنت ستصبح مهندسًا كأُمنا.

نفى بإصرار ونفخ صدره بشكل يليق بكل من ينحدر من هذه الأمة ويولد على هذه الأرض، ثم قال جازمًا:

– بل هذا قدري.. أفتخر به وأتوق شوقًا إليه، أنا من سيعيد اسم بطلي لتاريخنا الحديث ليرفرف مع العَلَم، ويرفع هامتنا ويبث الأمل في كل مَن يأَّس من قضيتنا، ليس مهمًّا اسمي أو حياتي، فهما ثمن بخس أقدمه ليظل اسم (ظريف الطول) عاليًا عبر كل جيل منا.

من ينشأ في أرض الأحرار ويشبَّ على سماع قصص أجدادها ينضج قبل الأوان، لذا هي كانت تفهم جيدًا ما الذي يعنيه أخوها بكلماته، ربما ستفتخر به، ستشجعه عائلته على الاستمرار في الطريق الذي حدده، ولكنها بأعوامها الصغيرة لم تستوعب بعد أن تكبح عواطفها، حفر الحزن ملامحها، ولون الحداد استوطن داخل مقلتيها، أخفضت رأسها بشعرها الأسود الكثيف ثم غمغمت في محاولة مضنية لتجنب ألم لا تستحق طفولتها تذوقه:

– هل يمكنك إخباري بذاك السر؟

مد صقرها يده في دعوة، فالتقطتها حمامته السمراء بلهفة وتحركا باتجاه منزلهما في طريقٍ بدايته وردٌ كما اعتقدا، ولم يدركا أن نهايته دمار وتشتت، ضياع وتهجير يلوح في الأفق، دبابات وطائرات لعصبة من الأوغاد جهزوها لسلبهم كلَّ أحلامهما البسيطة واستقرارهما في أرضهما المستحقة بالدم والأصل والتاريخ.

نطق صقرها واعدًا ضاحكًا:

– غيّرتُ رأيي، يوم ميلادكِ الغد القريب، سأخبركِ به كهدية أخرى.

همست راضية:

– الغد ليس ببعيد، أستطيع الصبر وانتظارك.

وعندما دخل الصغيران المنزل المُحمل بعبق الأجداد ينعمان بدفئه وحلاوة عراقته وجمال أمان لمّته، لم يدرك أحدهما أن أوان الفُرقة قد حان، وأن العدوان المتربص لن يتركهما يسعدان، وأن المخطط الجديد قد صار قيد التنفيذ، قُتل الجد ومُحي التاريخ وسُلب العرض والبيت، وكُتب على ساكنيه أن يولوا وجوههم نازحين هاربين من حكم أصعب من الموت، إلى طريق مُلِئَ بالأشواك وقيظ النار، يتساقطون به كأوراق الشجر اليابسة جوعًا وفقرًا ومرضًا وربما يأسًا نحو مجهول آخر، يخطون فيه بأرجلهم وأجسادهم دون إرادة أو رغبة إلى أرض المنفى، لقد انقلب زمانهم عليهم ولن يعود أبدًا شيء كما كان.

****

الفصل الأول

بعد عقدين من الزمن تتجدد قصة لم تكن أول الحكايات ولن تكون آخرها، هي فقط بداية تتبعها نهاية رغم تموضع الحزن فيها، ولكنها تبقى شرارة أمل لانتفاضات أخرى، نحن لن نطبِّع، لن نبيع أو نستسلم، ربما لم يحِن وقت الجلاء، ولكن ما نقدمه هو مستهل غدٍ للحرية.

*****

تعالى لهاث أنفاس مقطوعة لخمسة رجال يركضون ليس فرارًا من إرهابي صهيوني يطاردهم، ولكن الهدف الأسمى أن تظل أرواحهم معلقة بأرض الزيتون، ليدبوا في قلبوهم الذعر عند كل مخطط ينفذونه بمهارة، أرواحهم يحملونها على كفوفهم، وأكفانهم علقت على أعناقهم، لا يبالون برصاصهم ولا بثقل عتاد المغتصب، فبرغم زهد أسلحتهم تظل الغاية التي يسعون إليها أكبر من أن يستسلموا.

الظلام يحل بظلاله السوداء يداري الأجساد، وجثمان الرفيق السادس -الذي طاله رصاص عدوهم- يحملونه بين أيديهم رافضين تركه خلفهم، فالشهيد يكرم ويزف لمأواه بأبهى حلة كمن سبقوه.

الكلاب تنبح وراءهم والصوت العبري البغيض يهدر مهددًا بالنيل منهم.

ضحك قائدهم رغم كآبة الموقف ناطقًا من بين أنفاسه بسخرية:

- يهدد الجبان رغم الذعر الملموس بصوته.

رد عليه أحدهم رغم انشغالهم في تملصهم وتضليل الأوغاد المطارِدين:

- ومنذ متى لم يكن الجبن سيد أخلاقهم؟ لولا العتاد الذي يحتمون به لكُنّا طردناهم دون أن نرفع عليهم حجرًا، فالخِسة والخوف أهم ما يميزهم، وقصصهم مع أنبياء الله خير الأدلة.

ضرب النار ازداد حدة، رهبة الموقف أجبرتهم على التفكير بكيفية التملص من مطارديهم، والنجاة من جواسيسهم الذين يزرعونهم بين سكانهم، لشدة قهرهم تنتمي أصولهم لهذا البلد المقدس، ولكنهم مجرد آفة وزرع فاسد.

الجبل بدا بعيدًا، والنقطة التي وضعها سيد الحيل مكانًا لاختفائهم بلا أثر بدت بعيدة أيضًا، فقال أحدهم مهتزًّا في مطلبه:

- الشهيد يعيق تحركنا، لماذا لا...

لم يكمل اقتراحه بسبب المقاطعة الصارمة التي أبداها له الشاب الملثم بالكوفية:

- لن أتركه ورائي وإن سلمت نفسي لهم، لن أجعله رقمًا في مقابرهم يحاكمونه ميتًا، هل تريد أن نترك صديقنا لهم ليفرغوا جسده من أعضائه ويتاجروا بدمائه؟

توقف الزمن كما توقف هربهم للحظة، فقط مجرد لحظة، ثم انحنى وحمل الشهيد الشاب على كتفيه مصممًا على موقفه، ثم سبقهم في فرارهم، حتى وصل أخيرًا إلى نقطة سترهم بين أراضٍ زراعية محفور تحتها

خنادق طويلة.. أزاح أحدهم سريعًا القش وفروع الشجر اليابسة، مرروا شهيدهم ثم تعاقبوا ليهبطوا واحدًا تلو الآخر في تلك الفتحة التي بالكاد تمر منها أجسادهم الفارعة محشورين هناك، يكتمون أنفاسهم موقفين دقات قلوبهم بمعجزة، يغطون رائحتهم بطين الأرض المباركة حتى يشتتوا كلاب العدو عن تقفي آثارهم، وبطبيعة الحال كان آخر من هبط قائدهم، وبحبل متين يمر من فتحة الغطاء الطيني كان يسحب القش وفروع الشجر لتعود كما كانت تخفي آثارهم.

لدقائق عصيبة توقفت فيها أرواحهم عن التعاطي والاستيعاب، كانوا يسمعون هدر المعتدي[1] الإرهابي فوق رؤوسهم، يصرخ:

– أين اختفوا، كيف هرب مجددًا المطلوب الأول على قائمة الاغتيالات؟

الليلة ستكون طويلة، إنهم يعرفون ذلك، فلطالما تذوقوا مثلها حتى أصبحت شيئًا معتادًا ومألوفًا، ولكنهم أبدًا لن يستسلموا هكذا.. فمنذ ولادتهم والمقاومة شيء يُورَّث مزروع في جيناتهم، ليست شيئًا مكتسبًا يُدرَّس ليُكسبهم عزيمتهم ووفاءهم، بل هي جزء لا ينفصل عن قلوبهم.

****

جلس الشاب الطويل حسن الخلق والخليقة أمام دكان نجارته الصغير يدفن وجهه بين كفيه، ويراقب عزاء أحد الشهداء من أبناء حيه، بعد أن كرموه بجنازة تليق بتضحيته، وأُذيع في الأرجاء أنه أحد رجال «فتح»، بالطبع قُدِّمَ العزاء من جميع الأطراف والأحزاب السياسية، فهم قد يتناحرون فيما بينهم على السُّلطة، يعادون ويتهمون بعضهم، وقد يتقاذفون أشنع الأوصاف فيما بينهم، إلا أن الشهيد له وضع آخر، يُحترَم اسمه، وتُسطَّر بسالته في حكاياتهم.

إنه يعرف يقينًا أن أنس لم ينتمِ لأي حزب منهم، بل كان شابًّا حرًّا يسعى لتقديم روحه فداءً لوطنه، ولكن هكذا جرت العادة بينهم، عند سقوط أحد شبابهم يعود نعيه إلى الحزب الذي تنتمي إليه عائلته.

شعر بجلوس أحدهم على أريكته، فرفع وجهه ناحيته دون أن تنتصب كتفاه المحنيتان بألم ثم قال بمرارة:

– سقط أنس.

ربت رفيقه على كتفه وقال بهدوء:

– كلنا أرواح معلقة يا كنان، لا نعلم متى موعد اللقاء ولا في أي أرض سيُحتوى الجسد.

قال كنان بصوت لا حياة فيه:

– هنا.. المثوى سيكون هنا يا حمزة.

ارتعشت عضلة بفك حمزة، ثم قال:

– حشود عصاباتهم ستُنظم، وقريبًا قد يجتاحون الحي، في العملية الأخيرة فُجِّر أحد مخازن أسلحتهم، وسقط فيها ثلاثة من جنودهم، نُسبت هذه العملية إلى الشهيد أنس.

أظلمت عينا كنان بغموض حاجبًا ما في نفسه، ثم قال ببرود:

– نحن شباب مسالم نؤمن بما ينادي به زعماء سلطتنا «السلمية»، وقد سبق وسلمناهم بالفعل ما نملك من أسلحة للدفاع عن أنفسنا، فليأتوا.. فماذا سيجدون؟ عن نفسي –كما ترى– لا أملك إلا تلك الأخشاب بغرض تصنيعها وبيعها لأستطيع العيش وإطعام نفسي.

قال حمزة:

– بالطبع، ولكن لم يكن هذا ما قصدته.

وقف كنان وقال بنبرة مظلمة:

– ليس لديّ أدنى شك بصدق المذبحة التي سينفذونها، كاجتياح انتقامي، كما يحدث كل حين بعدة قرى، من يقدر على ردعهم والعالم كله يقف متفرجًا؟ ولكن حتى يأتي هذا الموعد.. ليس باليد حيلة، علينا التعايش وانتظار غربانهم.

وقف حمزة يتأمله بهدوء مريب، حتى قال أخيرًا بخفوت:

– أنا أعلم جيدًا أنك رجل مسالم، انتبه لنفسك، وخذ بنصيحتي.. أغلق دكانك اليوم واذهب لتنام، فأنت تحتاج إلى الراحة.

أومأ كنان بأسى:

– شكرًا للنصيحة يا دكتور، سأفعل.

صمت وعاد يتأمل بعينين مظللتين بدموعِ فراقٍ أبت أن تهبط على العزاء المقام على طول الحي والحزن الذي خيّم على كل منزل.

أنس كان شابًّا محبوبًا بين العائلات، هو فقط كان مشروع شهيد نموذجي بامتياز، ضاحكًا، روحه مرحة، بشوشًا طوال الوقت، عينه لا ترفع مطلقًا إلى كبير ولا امرأة، لا يترك فرضًا دون أن يؤديه في موعده، سماحة نفسه تطوف على كل من يمر به عابرًا، أحبه الصغار قبل الكبار، فكيف لا يُقهر كنان لفراقه؟ حتى وإن كان هو لا يملك أخلاق نضاله، فهو مجرد شاب يتيم قطع من شجرة كما فروع الأشجار التي يشكلها بِعَدِّه نجارًا لقريته، منذ قَدِمَ إلى هذا المكان من بلد مجهول وتاريخ مغدور، حتى وإن امتلك ملامح عربية لا تخطئها العين، ولكنه بقي مستترًا في حاله.

مواصفاته الشخصية ليست مبهرة، فأنت قد تقابل مثله في كل مكان حولك، ربما ملامحه وتكوين شخصيته تلك يحملها أخوك أو ابنك، ربما رفيقك أو ابن جيرانك الذي يمشي بجانب الحائط مستترًا ومبتعدًا عن كل المشكلات والأحزاب أو النضال الذي يسعى إليه كل من عاش حرًّا يعشق تراب هذا الوطن المقدس.

إلا أن كنان ليس كذلك مطلقًا.

*****

صعد كنان لمعزله بالدور الذي يعلو دكانه، يتحرك بثقل بين جدران بيته الخاوي من أنيس واحد من عائلته المغدورة، يمشي في الممر بلا روح أو رغبة في أبسط متطلبات الحياة، حتى وصل إلى فراشه الأحادي المتواضع كما كل غرض بمنزله الذي جهزه على مر أعوام بنفسه دون مساعدة من أحد أو جهة، فقط أغراض تخبر أن شخصًا مرّ من هنا.. عمّر هذا البيت الخرب.

دفن وجهه بكلتا كفيه سامحًا للدمع بنعي رفيق المقاومة، وللقلب أن يغرق بأوجاعه الدامية التي تعزف على نياطه، تمزقه بقسوة وبلا رحمة.. همس دون قدرة لكبح نشيجه:

– لماذا ينبض جرح ناعيك من جديد يا أنس؟ لم تكن أول الشهداء ولا آخرهم يا صديقي، فأنا اعتدت الفقد، حتى بات جزءًا مني.. إن غاب عني استعجبت أمره!

وقف الكلام لبرهة في حلقه، وفرد جذعه بتعب، ثم شرع ببطء في خلع ملابسه الخادعة مظهرها، ثم رفع أصابعه ماسحًا دمعاته العزيزة الحارة سريعًا، وهمس ناعيًا:

– لقد وعدتَ ألا تغادر وتتركني، لقد كان مخططنا أن نزف لمثوانا الأخير معًا، فلمَ سمحت بتصفيتك؟ كيف غفلت عيناي عن حماية ظهرك؟!

ويبقى للفراق غصة لا تمحى من القلوب..

أطلق كنان استغفارًا متضرعًا:

– اللهم لا اعتراض على عطاياك، ولا ساعة لقياك.

ببطء فرد جسده لتتلقاه خشونة الأغطية، متجنبًا الانبطاح على ظهره الذي يحمل جرحًا حديثًا من شظية عابرة قد استقرت هناك، وضمدها له أحدهم بكتمان دون أن يسأل عن أسبابها كالمعتاد.

وأخيرًا.. كان يجبر جفنيه المثقلين بالهموم والألم بأن يطبقهما ليذهب بغفوة ظاهرها الراحة وباطنها الاستسلام لكابوس مريع يتسلل برغبته الحرة من خلف ستار الذكريات، عله يجد بين بشاعته صورة أو نفحة من رائحة الأحباب المختطفين.

همست شفتاه قبل أن يستسلم للغرق بين أمواج الرصاص والمدافع العالية:

– تُرى أين أنتِ وماذا تواجهين الآن يا حبيبتي؟ لماذا أصبح حلم لقياكِ مستحيلًا، حتى تضمدي جراحي بنفسكِ كما وعدتِ؟

حمامة سمراء صغيرة تمسك بفمها غصن زيتون، تفرد جناحيها الهشين؛ تحاول تعلم الطيران، تتبعها حمامتان صغيرتان بديعتا الجمال، يقودهم جميعًا صقر رغم صغر سنه وشراسة وصفه فإنه يبقى حارسهم الهمام، يتجلى ذلك المشهد لتلك الحدقتين القاتمتين وكأنه عرض تلفزيوني مبهر يراقبه مشدوهًا من خلف ستار أسود شفاف، لا يعلم من أين جاءت تلك الجماعة الصغيرة، ولا إلى أين ستذهب، تعود العينان القاتمتان لتبتسما بحنين لذلك الصخب والاحتفال بذلك العالم مبهرج الألوان، ولتلك الضحكات الدافئة تحت الحماية والانتماء لمكان مشمس وبديع يدعى وطن!

يغلق جفنيه في حركة خاطفة ليفتحهما بمشهد مروع متسارع، صراخ يصم الآذان، ورائحة دماء تزكم الأنفاس، وأشلاء بكل مكان تزلزل الأبدان، أين أولاد الجيران؟!

غبار وحطام وخراب أقاموه شرذمة من الأنذال، فهتكوا العِرض وقتلوا الولد وأضاعوا الوطن.. صرخات تحطم الأفئدة، ورجل مسكين يُجَرّ لسجون عالم الجبابرة، وأمم تُقيد بالسلاسل حافية وعارية، تمشي في صحراء طويلة وقاحلة؛ علهم يجدون النجدة.. ولكن هيهات!

الموت يحلق فوقهم مكشرًا عن أنيابه وملوحًا بصلفٍ بمخططاته، رباه رحماك!

العينان القاتمتان تحولتا لبركة من الدموع العاتية، تلهث علّ النجدة تأتي عبر هزة من العالم الواقعي فتخرجه من الدوامات المريرة.

يفتح عينيه مجبرًا ومقيدًا فيبتهل بالحمد عندما انتقل المشهد إلى نجدة متمثلة في طائر حديدي كبير سيأخذ بقايا الإنسانية لسماءٍ ما تُدعى الحرية والعدالة والمساواة.

«لا، لا تذهبوا، أرجوكم ابقوا هنا.. واجهوا الموت معًا، سيبقى أفضل حالًا من ذلك الفخ ومن تلك النيران التي ستسلخكم أحياءً!»

ولكن لا فائدة، تتعالى صرخاته، وبصورة خاطفة تنتقل الشاشة لتعرض لقطات كبيرة متتالية حتى توقفت على صقر عربي وقع في شِباك حديدية لغربان سود، ولكن مهلًا.. أليست تلك هي الحمامات نفسها ذات الريش الأخضر يناضلن للوصول إلى ذلك الصقر فتنكسر أجنحتهن حديثة التحليق لينزفن دماءً حية تحت مخالب الغربان السود التي كبّلتهن دون رحمة زاعمين بأنهم ملائكة الرحمة؟

وانطفأ كل شيء، صمّت أذناه بالعويل والصراخ، وطلب النجدة دون أمل في العودة.

شهق بعنف من وسط دوامته شاعرًا بنفسه مكبلًا بسلاسل نار خفية.

- أفق أرجوك.

ولكن كابوسه أبى أن يتركه، فيرى نفسه تجسد في غابة مظلمة واسعة تملؤها الأشجار الكثيفة لتمنحها منظرًا مرعبًا أكثر مما هو عليه بالفعل.

رفع عينيه ليلمح الظلال السوداء الشرسة التي كشرت عن أنيابها الدموية ناويةً النيل ليس منه، ولكنها كانت تطارد فتاة معتمة الملامح ترفع فستانها الأبيض الحريري الطويل، تركض لا تعرف أين وجهتها وتجهل أين نجدتها، قدماها الحافيتان أصبحتا داميتين تئنان وجعًا، تُكسر هامتها فتكاد تستسلم لهذه الظلال التي وصلت إليها، وبدأت في نهش ما تطاله منها، تحاول الصراخ فلا تجد لها صوتًا يعينها على التعبير عن ألمها، مشتتة، ضائعة، فاقدة انتماءها، ضالة بصيرتها، حتى سقطت بين ذراعيه أخيرًا تطلب منه نزع فؤادها المغلول بعتمته وضلاله ليبدله بآخر صحيح يُعِينها على التذكر وفهم الصورة بوضعها الصحيح.

الصقر علا صوته ناشبًا مخالبه، ومكشرًا عن أنيابه، ثم فرد جناحيه الكبيرين يضرب بهما في الأرض مثيرًا أسلحة النار راميًا في قلوبهم الجبانة الذعر، ليتوقفوا مكانهم منحنين أمام شموخه وثباته، وفي لحظة أخرى

بدت له عجيبة، كان يقلع من مكانه محلقًا عاليًا آخذًا أسيرته معه.

عجبًا لظبية تقتحم أحلامه تطلب عونًا ونجدة، رغم جهله بملامحها وكنيتها.

وككل مرة كان ينتهي حلمه بكابوس شنيع ويضع خطوط نهاية مرعبة، ما كانت إلا طُعمًا يجذبه إلى فخ يُسلسل فيه بحديد من حمم منصهرة، تعذبه بما لا يُطيق قبل أن تفتك به أغلاله، بطريقة يصعب وصفها، ليته ما سكن إليها، أو استبشرت به.

شهق بصوت عالٍ كمن كان يمتنع عن التنفس طويلًا، وجسده ينتفض بعيدًا عن فراشه ويتعرق حد الغرق، جبينه مقطب، جرحه يئن وكأنه فُتح من جديد.. ما رآه في كابوسه لم يُخِفه، فكل هذا معتاد، لقد سبق وعاشه حقيقةً، لطالما أثرت فيه النهاية المجهولة التي يدرك -كما فُسر له- أنه طريق سيتبعه رغمًا عن أنفه، فهو قدر قد كُتب في صحيفته، ولكنه قدر قاسٍ يرميه في مصير أسوأ من الموت.

«رحماك رب العباد بعبدك الضعيف».

داء التهجير وجرح 14 من أيار 1948 لن يرممه إلا دواء العودة كما وعدنا لنمحو ونطوي من صفحات التاريخ ذكر الفاسدين.

تنفس أخيرًا مستنشقًا أكبر قدر من الهواء ثم لجأ لحل وحيد يعرف أنه سيريحه، وهو تجديد وضوئه، وركعتين لله فتهدأ النفس الملتاعة وتسكن كل أوجاعها.

****

هبطت من الطائرة تجر حقيبتها خلفها، وذراعها الأخرى تسند والدتها التي ثقلت خطواتها وتكاد تسقط من يديها، ليس إرهاقًا أو مرضًا، بل وجعًا، عيناها تطفران بدموع خيبة، وفؤادها يهدر رافضًا الاستسلام لأمر أصبح واقعًا أكثر من اثنين وسبعين عامًا، حركت الفتاة العشرينية عينيها دون اهتمام تتأمل تفاصيل المطار الفاخر، يتحرك فيه البشر مسافرين أو قادمين، مجرد مجموعة من الناس غريبي الشكل وحادِّي الطباع، لا يتّسمون بالألفة، لا يشبهونهم جملةً ولا تفصيلًا، لا تُكِنّ لهم بداخلها، بطبيعة تنشئتها على يد تلك المرأة التي لم تنسَ مطلقًا هويتها، إلا احتقارًا.

ولكن أيضًا هناك شعوران متناقضان، فهي لا تكرههم أو تحبهم، وهذا إن فسرته فستعزيه لتربيتها ببلد الحرية الذي يتقبل جميع الفئات وأطياف البشر، لطالما تساءلت: لمَ يصعب على هؤلاء الناس شبيهي والدتها التعايش مع هذه الفئة التي تسعى للتعايش بسلام دون حروب أو مقاومة أو انتفاضات أو ثورات إرهابية كما درست في جامعتها وتابعت الأخبار الغربية أيضًا؟!

في الحقيقة كانت لا تهتم، ولكنها الآن أو منذ أعوام قليلة مرت بات يلح عليها شعور غريب بالحاجة إلى المعرفة، وأن ترى بعين الواقع وجهة نظر الطرف الآخر، لذا لم ترفض عندما أصرت والدتها أن وقت العودة قد حان، وسلمت بدرامية للطريقة الوحيدة التي تسمح لها بزيارة بلدها وشعبها عن طريق دخول المطار الإسرائيلي.

عندما تقدمتا أخيرًا في الممر الطويل للتفتيش، سمعت والدتها تهمس بقهر.

– هذا بلدي، موطن عائلتي وأرض صباي، كيف أدخلها كغريبة بجنسية أخرى، وأقبل بمغتصب حقير أن يختم أوراقي، ويحدد المدة التي سأقضيها؟!

همست هي بعربية صحيحة خالية من لكنتها الإنجليزية:

– أنتِ تُكبِّرين الأمر يا أمي، إنه كأي بلد غريب نذهب لزيارته.

قاطعتها والدتها بخفوت شديد المرارة:

– بلد غريب؟! لقد نجح المحتل في مسعاه!

عدّلت الشابة وضع كاميراتها على صدرها وهي تقول بلا مبالاة:

– محتلون أم لا، هذا هو منفذكِ الوحيد لتحققي حلم زيارتكِ لأقاربكِ ومنزل أبويكِ القديم، بعد أن استحال دخولنا من المعبرين البريين في الأردن أو مصر، الذين تتحكم فيهما دولة إسرائيل أيضًا.

نفضت رندة ذراع ابنتها بعنف ثم قالت وعيناها مستعرتان بنيران الرفض:

– كانت دولة فلسطين وبقيت فلسطين وستظل فلسطين، فإياكِ والنسيان أو التطبيع يومًا، ليست حفيدة الشهداء الذين قدَّموا أرواحهم للقضية، وقاوموا لآخر رمق فيهم مَن تُقِرُّ بمحاولة تزوير التاريخ والتطبيع.

حركت الفتاة عينيها حولها بقلق تنظر إلى وجوه الضباط السوداء، الذين ينتشرون على طول صالة الاستقبال.

قالت جفرا بإصرار:

– هل يمكنكِ أن تهدئي حتى نعبر من هنا، وبعدها يمكنكِ قول ما تريدينه لي؟

– لن أتحرك قبل أن تُقِرِّي أين نحن.

أخذت الفتاة نفسًا طويلًا وقالت بصبر:

– في الأراضي الفلسطينية المحتلة، هل أنتِ راضية الآن؟

كانت المشاعر تبحر كالأمواج داخل قلب رندة منعكسة على عينيها التي بلغت من الحنين العاصف أشده، همست:

– كيف أرضى يا بُنيتي؟ ومن أين لي بمحو هذا الوجع المتجدد وأنا أدخل بلدي كالغرباء؟ أنتظر منهم قرار رحمة بمنحي ختمهم الذي صنعوه على جثث الضحايا والشهداء كما كل بقعة أرض اغتصبوها من بني جلدتي، جرحي الذي يئن يا (جفرا) لن يُشفى يومًا إلا إذا رأيت علم وطني يرفرف في سمائه عاليًا.

أن تعيش عمرًا كاملًا على حلم أبدع جميع الخونة في إخبارك أنه مستحيل التحقيق هو موت قبل الموت، ووالدتها رغم اغترابها لأكثر من أربعين عامًا لم تنسَ أو تُسلِّم بالأمر، بل كانت تعيش في اشتياق جارح دائم

لبيتها والباقين من أفراد أسرتها الذين رفضوا النزوح كما أجدادها لأمها وبقوا لاجئين في مخيمات داخل أراضيهم، متشبثين بأي جزء ينعم عليهم برائحة أرض الزيتون والأنبياء، لذا تدرك ما تعانيه والدتها الآن، ربما لا تشعر بآلامها نفسها، ولكنها تستوعبها تمامًا.

أمسكت بيدها مرة أخرى ثم همست بصرامة:

– دعينا فقط نخرج من هذا المكان لتستنشقي رائحة أرضها الطيبة، وبعدها ارفضي كما تشائين.

أطرقت رندة بعينيها المقهورتين أرضًا، ثم سلمت بكل وجع للواقع، وقبلت بمساعدتها للتقدم نحو حاجز التفتيش وختم جوازها الموسوم بشعار دولة المستعمِر، الذي شعرت أنه نارٌ حارقة وعارٌ موجعٌ يطبع داخل فؤادها وليس جواز سفرها.

بعد وقت طويل كانت ملامح الجفرا وهي تغادر بوابة المطار ليست مبشرة إطلاقًا بالخير، بل حارقة بغضبها وغلها، حاقدة بمقدار مضاعف على هؤلاء الحفنة الحقيرة الذين يدَّعون التحضر.

الجبناء.. فور أن قدَّمتا أوراقهما للعبور، وجدتا رجلًا وامرأة يحملان رتبة عسكرية، يجُرّانهما داخل غرفة سوداء مرعبة ثم يُخضعانهما لتحقيق قاسٍ ومُنفّر، وكان العسكريان ينظران إليهما وكأنهما إرهابيتان لا مجرد سائحتين كما تعتبران نفسيهما، فوالدتها أصرت على القول:

– لقد قدِمتُ لزيارة موطني وأهلي في دولة فلسطين.

بالطبع سَخِرا منها أشد سخرية متلاعبين بأعصاب والدتها ووطنيتها، الملاعين حتى جواز السفر الأمريكي الذي يُفتح العالم أمامه لم يشفع لهما، بالطبع غير التفتيش الدقيق والمُذِل الذي تعرضتا له أيضًا.. متباهين ومتعجرفين وهم يعلنون أنه باستطاعتهم رفض دخولهما وأن بمقدورهم إعادتهما من مكان ما أتيا.

– أوغاد.

همست شفتاها القانطتان وهي تدفع عربة الحقائب التي فتحوها بفوضوية بالطبع، حتى كاميرتها وهواتفهما خضعت للفحص ومحو كل الصور التي عليها؛ بحجة منع تصوير أرض المطار، التي لم تُلتقط لها أي صور أصلًا.

– سيدة رندة الصافي؟!

أخرجها صوت متمهل بطيء من تفكيرها المستغرق، ورفعت عينيها البندقيتين تنظر إلى الشاب البشوش أمامها وهي تسمع والدتها تجيب بلكنتها الأم:

– نعم يا ولدي، هل أنت أبو جراح؟!

تلونت شفتا الشاب بابتسامة رزينة وهو يجيبها مُرحِّبًا:

– تأمرين يا خالة، لقد أرسلني الوالد لاستقبالكِ، يمكنكِ مناداتي بأحمد.

ضحكت رندة من بين دموعها وهي تهمس بأنين وحنين:

– والدكَ ابن عمي الذي رأيتُه آخر مرة منذ أربعين سنة عندما تفرقنا قهرًا وهُجِّرنا جبرًا من ديرتنا وقريتنا.

أومأ برأسه قليلًا والغضب الساطع كان يفعل في ملامحه الأفاعيل لعيني تلك المراقِبة التي أتت خصوصًا لرؤية هؤلاء الناس الذين تُنسب إليهم بدم يجري في العروق، وتختلف عنهم كلّيًا في الفكر والانتماء، هي للحقيقة في مواجهة مع الذات، لم تحدد انتماءها لأرض معينة حتى اللحظة.

قال أحمد أخيرًا بوجوم:

– حللتِ أهلًا، عودة طيبة، لقد أخبرني أبي بكل شيء، لذا أنا أعرف عنكِ أكثر مما تعلمين أنتِ عنا.

اقتربت رندة لتربت على كتف الشاب وهي تقول باختناق:

– أخرجْنا من هنا يا ولدي، خذنا بعيدًا عن وجوههم المغضوب عليها، ما عادت النفس تطيق رؤياهم لبرهة أخرى.

وافقها أحمد احترامًا قبل أن يأخذ من جفرا العربة ليجرها أمامه متجهًا إلى سيارته الصغيرة وهو يرحب بها غاضًّا بصره:

– مرحبًا بكِ يا أختي.

رفعت جفرا رأسها المتعجرف تنظر إليه بثبات وتتأمله بفضول دون حرج، ثم قالت ببطء شديد مصححة:

– جفرا، يمكنك مناداتي جفرا يا أحمد.

رفع أحمد بصره يتأملها ببعض العجب، وصوته الداخلي يهمس بسخرية عابسًا:

«جفرا؟ لماذا إذن لا يبدو لي أنكِ تحملين من صفة الاسم ومكانته شيئًا؟».

هز كتفيه دون اهتمام:

– إذن مرحبًا بكِ يا جفرا بموطنكِ.

مطّت شفتيها بامتعاض وكادت أن تصحح له أنها لا تحمل أي أوراق تثبت مواطنتها لهذا المكان، ولكن والدتها التي تحفظها عن ظهر قلب كانت الأسبق وهي تمسك يدها تضغط عليها بحزم تمنعها من الكلام.

****

الخروج من تلك المدينة للوصول إلى الضفة الغربية لم يكن سهلًا أيضًا، بل كان أمرًا أصعب بكثير من قدومها من أمريكا ووصولها إلى إسرائيل، إذ كان بين كل طريق وآخر وقرية وأخرى حاجز ومعبر تُفتش فيه السيارة، يحقق مع أحمد بالأسئلة المستفزة نفسها فيخرج لهم أوراقه التي تسمح له بالتنقل، وأسباب قدومه أيضًا، وبالطبع هي ووالدتها لم تسلما من الأمر، وإن كان التعامل معهما بسبب جنسيتهما الأخرى أقل حدة مما عاناه هو.

فور عودة أحمد لمقعد السائق وانطلاقه في طريقهم، كانت جفرا، التي جلست في المقعد الخلفي في حين احتلت والدتها جانبه، تقول برتابة:

– ما نسمعه شيء وعيش المعاناة شيء آخر، الصحف والمنادون بالحقوق هناك لم يخبرونا عن هذا.

رفع أحمد حاجبيه تعجبًا منها ثم أقر بهزلية:

– وبماذا أخبروكِ إذن؟ أنهم رعاة سلام، يحاولون العيش في موطنهم وأرض ميعادهم، ونحن المتلصصون البدو نزعجهم؟

ردت بهدوء جريء:

– نعم، وأسوأ، فأنتم على جانب الجدار مَن تُهددون أمنهم وتروّعون أطفالهم ومواطنيهم، تجبرونهم على فرض كل هذه الاحتياطات، أي إنكم من ترفضون السلام.

انتفخ صدره وأوشك أن يستدير منفجرًا بها ملقيًا إياها خارج سيارته، ولكنه تمسك بأقصى درجات الحِلْم وقال:

– الجيد في الأمر أنكِ لم تصدقي.

كانت منكبة على كاميراتها تعيد إصلاحها وهي تجيبه بصراحة:

– لم أقل إني أكذب أو أصدق، أنا هنا لأرى بعينيّ وأسمع بأذنيّ لأحدد ما الذي عليّ أن أؤمن به.

ارتفع حاجبيه استنكارًا ونفض يديه منها، عازمًا بينه وبين نفسه أنه لن يحاول الخوض في الحديث مع تلك المستفزة، خائنة القضية التي من الواضح أنها كبرت على أفكار معادية تمامًا مثل فئة قليلة من هؤلاء الذين يولدون ويتربون في أرض المهجر، لذا قال بتهكم:

– هل أنتِ متأكدة من أنها ابنتكِ يا خالة ولم تتبنيها من ملجأ؟

قبل أن تنطق رندة، قالت جفرا بحدة ساخرة:

– يمكن إجراء تحليل «دي إن إيه» للتأكد من أني أحمل دماءك نفسها بالتبعية لوالدتي.

نظر إليها أحمد من المرآة ثم قال:

– الأمر ليس في التبعية يا جفرا، فأنتِ ربما تحملين الدماء كما تعتقدين، ولكنكِ تفتقدين جينًا مهمًّا يولد معنا وفينا كأي عضو حيوي يمنحنا الحياة.

سخرت:

– وما هو يا أخ أبا الجراح؟

السخرية الأكبر كانت من نصيبه وهو يقول قاصفًا إياها:

– الانتماء والإيمان بأرض كنعان يا أجنبية.

اشتعلت جمرة مبددة لون عقيق عينيها، ولكنها لم تعلق أو ربما ما قاله أصاب كبد الحقيقة، فلطالما حاربت بداخلها ذلك الجزء الذي يخبرها عنه.

عمَّ صمت قاتم للحظات في السيارة الصغيرة، حتى نطقت رندة أخيرًا بهدوء:

– أريد زيارة منزل آبائي قبل أن نتوجه لرؤية المتبقي من عائلتي في المخيمات.

****

رغم الحواجز العسكرية لليهود وأفرادهم المنتشرين كعصابات صغيرة على كل مفترق، لم يستطيعوا تشويه المناظر الخلابة لهذا البلد الطيب الذي يصرخ بكل معلم فيه، ربما هي مرهقة مستنزفة إلا أنها لم تستطع كبح إعجابها الشديد الذي وصل إلى حد الانبهار بأشجار الزيتون الكثيفة التي زينت المدن والقرى في حزام أخضر خلاب، وكأنها تتأمل زهرًا غامضًا يصعب فك لغزه، إنها ترى مجرد شجرة، ولكنها تخيلتها داخل نفسها وكأنها سيدة ألفية شامخة محتشمة بأوراقها، نورانية في سرها، لا هي خضراء مألوفة كباقي الأوراق ولا فضية متقشفة، بل ملكت طلة بهية تضفي على الروح سلامًا أبديًّا، لا عجب من تشبيه والدتها دائمًا لمعنى السلام بغصن الزيتون الذي يأبى الاستكانة ولا يخضع للظلام.

بانشداه كانت تتابع المناظر من نافذة السيارة المنطلقة لتراقب المنازل التي تراوحت ما بين حديثة جذابة، وأخرى قديمة بأسوارها تبوح بأسرار صمودها، جدرانها مبنية بتفاصيل عثمانية إسلامية، تأسر قلبها زهور اللوز، ونباتات محملة بثمار حمراء وصفراء مبهرة تسمى الزعرور كما أخبرها ذووها مرارًا يضخون بأوردتها تاريخهم الذي رفض الاستسلام يومًا لاغتصاب المستعمر، فهم حملوه داخل قلوبه، وما جعلها تفغر شفتيها حقًّا تلك الجبال المطلة بصمودها تحتضن كل شارع وحارة كوتد من الطبيعة يمنحهم قوة للمقاومة ويخبرهم كل حجر فيه عن أحقية أسلافهم هنا.

هتفت رندة ناعية:

– هذا هو منزل والديّ، هذه داري التي كبرت في ربوعها.

وقف أحمد بسيارته ينظر إليها بأسى بالغ، ففتحت رندة الباب مندفعة رافضة أي محاولة لإيقافها.

الشارع المرصوف كان ممهدًا تطغى عليه رائحتان متناقضتان، إحداهما كانت قابضة للقلب، إذ إنها حملت محاولة التطوير الملحة لإخفاء أثر رائحة أكثر نفاذًا تحمل دماء أطفال وشباب وشيوخ أبيدوا من هذه القرية في حملة إجرامية لاغتصاب حقوقهم، رائحة نفاذة لم تمحُها السنون، هنا رأت ابن عم لها يُدفن حيًّا، وهنا راقبت شبابهم الشهداء الذين قاوموا ببسالة يدهسون تحت سير دبابة غاشمة سحقت عظامهم مع لحومهم، وفي تلك البقعة تحديدًا سيق أكثرهم إلى محرقة جماعية اختلط فيها صراخ الرُضع مع الكهول، غير راحمين عويلهم أو متعاطفين بقلوبهم الصَدِئة منزوعة الرحمة حين سد إخوانهم من العرب آذانهم وأغمضوا أعينهم عن نجدتهم مكتفين بإطلاق وعود غاية في العذرية والأفلاطونية في قمم جامعتهم واعدين إياهم بخلاص لم يأتِ أبدًا.

– أمي.

كانت جفرا تقف بجوارها الآن تسندها من تحت كتفيها بتعاطف لمرآها بهذا الانهيار، وجهها كان محمرًّا بقهر غير محتمل، قلبها يغور بين أضلعها وكأنه سحق في مكانه، كانت رندة تنزف، تُدمى جراحها دون رصاص، تذعر من جديد في أرض حملت ذكريات كثيرة، ما بين سعادة وانتماء، وبين مكان رأت فيه الأهوال، حركت كفها بعجز تخرج من بين طيات حجابها خيطًا أسود سميكًا، معلق فيه مفتاح حديدي لم يقدر الزمن الطويل على أن يضفي عليه الصدأ، بل كان يلمع وكأنه صُنع حديثًا، وسلمه لها والدها بالأمس، همست:

– هذا مفتاح دار أبي وأخي، هذا بيتي يا جفرا، هنا ولدت، وهنا أتمنى أن أدفن كما أهلي.

نظرت إليها ابنتها بعجز غير قادرة على التعاطي أو إخبارها شيئًا يُسكِّن الجراح، ومن أين لها أن تجد دواءً لداء يعانيه آلاف النازحين واللاجئين؟!

أزاحت رندة يد ابنتها بضعف ثم اقتربت نحو الباب الخشبي القصير الذي طُلِي حديثًا في محاولة لتجديد لونه الأصلي.

همست رندة بألم يذبح الشريان في حالة عاطفية شديدة الخصوصية:

– أريد أن أدخل، أن أزوره وأشتم رائحة الراحلين.

تقدم أحمد محاولًا بأسى أن يشرح لها صورةً تتغافل عنها:

– هناك من يسكنه يا خالة، إن اقتربنا سيبلغون عنا عناصرهم.

كانت أكثر إصرارًا وحنينًا وكأنها مستعدة لكل شيء، عندما مدت يدها في جيب معطفها الأسود الطويل وأخرجت له عقدًا قديمًا قدم الزمن تلوح به، وقالت بلهفة:

– هذا صك ملكيتنا للمنزل، انظر ما زلت أملك الطابو العثماني.

قال أحمد بكآبة:

– لم يعد ذا قيمة، ربما أنتِ ملكتِ بالفعل طابو منحكِ أحقيتكِ منذ مئات السنين، ولكن المغتصب الذي يملك ورقة بعشرة أو عشرين سنة هو المعترَف به.

تهدّل كتفاها بعذاب ودمعها الغزير يغسل وجهها بثقل المقلتين المتوجعتين داخل الجفون، رفعت وجهها نحو بيت الأجداد تراقب من خلف سوره حلم عودة مستحيل، وهناك ظهر، بقسوة شطرتها آلاف شظايا القهر المسننة، رجل وامرأة بملامح لرعاع تجمعوا من بقاع الأرض دون نسب يوحدهم أو دماء واحدة تجري في عروقهم، يحدقان إليها باستخفاف، ساخرين من لوعتها، فاهمين جيدًا لغة عذابها، منتصرين شامتين باغتصاب حقها.

صرخت رندة:

– بماذا تشعرون وأنتم تحتلون منزلًا ليس لكم، وجدرانًا تصرخ وتنادي بأسماء أصحابها، في حين أنها لن تذكر أسماءكم؟

ضحكت المستوطنة بقبح ساخر، وقالت:

– لا شيء إلا السعادة، وأنا أهنأ في منزلي الجديد في حين أراقب عجزكِ عن التقدم خطوة أخرى قرب بيتي.

– ليتني متّ ورحلت مع من رحلوا قبل أن أراهم هنا، ليتني متّ قبل أن أشاهد أرضي مغتصبة.

أمسكت جفرا بها مجددًا تسندها، وتقدم أحمد أيضًا مُصِرًّا على أن يجذبها بعيدًا وشفتاه تنطقان بقوة الحق:

– تظن أنها طمست ملامح المنزل عن سكانه، ومحت تاريخ أفراده، عبثًا تحاول كما قومها، فنحن باقون لا فناء لثائر، وكيوم القيامة هو حق تحرير أرضنا، فمن بلا ماضٍ، لا مستقبل له.

****

– لقد أغلقوا البلدة للمرة الثانية.

قالها أحمد بملل وهم يراقبون قوات الاحتلال تنتشر على طول السواتر الترابية والمكعبات الأسمنتية التي سدوا بها الطرق بين القرى.

أخرجت جفرا كاميرتها سريعًا تلتقط المشاهد المقبضة وهي تسأله بروح صحفية عملية:

– لماذا أُغلقت؟ هل يمكنك إيفائي بكل المعلومات؟

نظر إليها من فوق كتفه وهو يقول بصرامة:

– أخفي هذه أولًا، إن رأوها معكِ سنقع في مشكلة كبيرة.

لم تجادله، بل سريعًا مدّت يدها في حقيبتها المحمولة، وأشهرت أمامه بعض الأوراق الموثقة وهي تقول:

– لقد حرصت على إخراج التصاريح التي تمنحني حق التحرك ورصد ما أريده.

عيناه كانت أبعد من التجهم أو الملل الآن، بل كأنها أقيمت فيها حرائق عاتية، إن سمح لها بالتحرر ستلتهم الأخضر واليابس، قال بغضب:

– ألم تفهمي بعد؟ هؤلاء لا يخضعون لأخلاق مهنية أو اتفاقات دولية، أنتِ لن تكوني الصحفية الأولى التي يعتدون عليها، حتى جواز سفركِ في هذه الحالة لن يحميكِ من أسرهم لكِ وإخضاعكِ لتحقيقات لن ترحمكِ.

قالت بعدم رضا:

– أرى أنك تهول الأمر قليلًا، فكل ما درسته عنهم أنهم...

قاطعها من بين أسنانه:

– درستِ وسمعتِ من إعلامهم الموجه، أكبر سلاح استخدموه ليتعاطف العالم معهم، فهذا ما يجيدونه، شحن العالم كله ضدنا، وأحيانًا يستخدمون الإعلام نفسه ومواقع التواصل لقلبنا نحن على بعضنا.

– أفضل أن أختبر الأمر بنفسي، فأنا هنا من أجل هذا تحديدًا.

قال بصبر:

– استمعي لي حتى ندخل البلدة، وبعدها افعلي ما شئتِ.

أكدت رندة بأنفاسها المفجوعة التي لم ترتَح بعدُ مما رأته في بيت والديها:

– استمعي له، وتوقفي عن العناد لن ينفعكِ في هذه الأرض.

وفعلت مجبرة وهي تعيد تصريحاتها وكاميرتها مكانهم، منتظرة من الجراح توضيحًا حين سألته:

– كيف سندخل إن كانوا قد أغلقوها؟!

قال بهدوء:

– سيفتشوننا بالطبع، ولكننا قد لا نستطيع العودة، حسب مزاجهم السوداوي.

كررت بهدوء:

– ما الذي حدث؟ أليس من المفترض الآن أن هناك مفاوضات تجري بين الجانبين؟

همس أحمد الجراح بغضب وعيناه تحدق إلى الصف الطويل للسيارات التي تحاول دخول البلدة منذ ساعات طويلة:

– مفاوضات يتهربون منها كالعادة، ويصرون على هدف واحد لن يحيدوا عنه، ضم الضفة للأراضي المحتلة.

صمت لبرهة مبتلعًا ريقه قبل أن يوضح باختصار:

– منذ ليلتين قام بعض أبطال المقاومة بعملية شديدة التعقيد عند إحدى نقاطهم.. فجّروا مخزنًا للأسلحة وقتلوا عشرة من جنودهم، واستشهد بطل من مقاومينا يُنسب لهذه البلدة بالذات.

قالت في برود:

– أي إنه ردّ على هجومكم واعتدائكم في المقام الأول؟

نظر إليها مستنكرًا كارهًا، وقال بحنق:

– هل تسمعين نفسكِ، ردّ على هجومنا؟ هل تُسمّين مقاومتنا وتمسكنا بأملِ طردهم من بلادنا اعتداءً؟!

تكلمت بلسان غافل كجيل تربّى على تناسي قضيته الدينية والقومية:

– بالطبع، أنتم من تتمسكون بدق طبول الحرب في حين أنهم يسعون للسلام.

نظر إلى عمته ثم إليها بذهول وكأنه لا يستوعب أن يسمع هذا الحديث من فتاة يُفترض أنها فلسطينية الدماء والهوية، ثم قال:

– أتسمين اعتقالهم ثمانية أطفال سلامًا؟ هل تطلقين على جرّ فتاة –لم تكمل عامها الرابع عشر لسجونهم دون ذنب ارتكبته إلا أنها أخت أحد الشهداء– سلامًا؟ لن أكرر عليكِ فظائعهم المحفوظة من قتل الأطفال والشيوخ وحرق البيوت وترويع الآمنين، لن أخبركِ بأمر مكرر ومحفوظ يُفترض أن العالم كله يعرفه، مثل دكّهم المنازل وإحراقها وقتل الشباب جهارًا، أنا لن أقول كل هذا يا من لا تستحقين من اسمكِ شيئًا، يكفي أن تعرفي بأنهم نجحوا في طمس عقول الجيل الجديد مثلكِ ليصبح مذبذبًا جاهلًا، فاقدًا انتماءه، يقف على شفا حفرة من الضلال، والإقرار بأنهم أصحاب أرض، سلبوها من أهلها في حرب إبادة لم تتوقف عبر السنين.

****

الوصول لمخيمات اللاجئين داخل فلسطين نفسها لم يكن بالأمر الهين كما أخبرها أبو جراح، فقد خضعوا لتفتيش عند كل خطوة يخطونها، تحكمات مذلة بغرضٍ أول هو الاستفزاز؛ حتى يجدوا ذريعة لاعتقال الناس، أو قتلهم حتى دون أن يرف لهم جفن واحد، كلمات بغيضة يلقونها على مسامعهم تهديدًا ووعيدًا بالخلاص من شعبهم بإبادتهم أو طردهم نهائيًّا من أراضيهم كما أسلافهم، عبر صفقة القرن أو قضية الضم غير المستحدثة.

لقد صدقت والدتها، آمنت هي الآن دون جهد بذلته للمعرفة بشفافية كلام إعلامهم الموجه المدعوم من الدول الغربية.. فهو شيء، وأرض الواقع شيء آخر.

بالنهاية وجدت نفسها توجه لعقلها سؤالًا يتضمن إجابته: ما الهدف الأساسي للتعتيم على قضية الموطن؟ تضليلهم هم الشباب والجيل الجديد ليتناسوها، ليؤمنوا بما تروج له عصابة صهيون، لقد نجحوا في زرع حب إسرائيل في قلوب أبنائهم، في حين ضللوا معظم أبناء هذه الأمة، وزرعوا في قلوبهم التزعزع بحقوقهم.

– مرحبًا، أنتِ جفرا إذن.

اعتدلت جفرا على الفراش المتمركز في منتصف غرفة ضيقة، جُهزت لها خصيصًى من عمِّ والدتها، رغم ضيق الحال الذي عرفته فور وصولها إلى تلك الحارة الملتصقة بيوتها ببعضها والمكتظة بالمهاجرين، حدقت إلى زائرتها بتمهل شديد، فتاة في عمرها أو أكبر بعامين، وجه مليح القسمات، بيضاء البشرة، واسعة العينين بلونهما الأسود الذي شابه أعلام حدادٍ ترفرف.

ملاحظة غريبة تعترف ولكنها لائقة بالفتاة ذات الروح الساخرة كما اتضح، إذ إنها أردفت وهي تتقدم نحوها تمسك دلة قهوة وفنجان:

– هل تحاولين تقييم إن كنتُ سأنقض عليكِ الآن أم بعد وقت؟ لا تخافي يا من لا تشبهين اسمكِ، لن أحتاج إلى فعل هذا قريبًا.

نظرت إليها بارتياب وقالت:

– قريبًا! أي إن لديكِ النية؟!

هزت كتفيها وقالت بهدوء:

– ليست نية عميقة، بل تأججت فور أن أخبرني أبو جراح عن الفتاة الغريبة التي قدمت إلينا ساخطة وكارهة لأصلها.

عبست جفرا وهي تقول مدافعة:

– هذا تشويه لما قلتُه، بل أتيت في الأساس لمحاولة الفهم.

تقدمت منها تومئ باستخفاف خافية البركان الذي يغلي بداخلها، ليس لجفرا بالأخص، بل لواقع مرير أصبح يحاوطهم، فكم من مضلَّل فقد انتماءه في المهجر كهذه المرأة الصغيرة.

– هناك أشياء لا يُسأل عنها ولا تحتاج منكِ إلى تحقيق صحفي يا آنسة لتقييمها، وإلا دماؤكِ ستصبح كالماء بلا قيمة.

قناع من الرخام أسدل بغيومه على ملامح جفرا التي ردت ببرود وقد قبلت منها فنجان القهوة:

– ليس تشبيهًا سيئًا، إذا كان الماء الذي يجري في عروقي من البحر الميت.

ابتسمت ملامح الفتاة بطريقة مريبة قبل أن تقصفها قائلة:

– قلتِها بنفسكِ، ماء البحر الميت شديد البرودة والملوحة، حيث تنفر منه كل أشكال الحياة.

الآن نالت منها، إذ لاح الضيق الشديد على ملامحها، ولكنها لم تتنازل، فصححت:

– اكتشفوا مؤخرًا كائنات حية دقيقة لمعلوماتكِ.

أحنت الفتاة رأسها تنظر إليها كمن يُحدِّث طفلًا وقالت:

– اكتشفوا طفيليات وبكتيريا، هل أنتِ بكتيريا يا جفرا؟ لقد خيبتِ ظني.

قفزت جفرا بغضب وقالت بنفاد صبر:

– لا، أنتِ غير محتمَلة، ما مشكلتكِ؟

وضعت دلة القهوة على الأرض، ونصبت ظهرها بغطرسة ترتشف من مشروبها بعضه، وأجابتها بهدوء مغيظ:

– أصبحتِ كلكِ مشكلتي.

استدعت جفرا كل حِنكة وصبر ملكته يومًا، وقالت بسلاسة:

– اسمعي.. من أول دقيقة لمست قدماي هذه الأرض وأنا أتلقى وعظًا للضمير والوطنية من زوجكِ دون أن يعرفني أو يفهمني، فبالله عليكِ لا تصبحي أنتِ الأخرى نسخة كريهة منه، فأنا لن أحتمل، هذا كثير يا...

عبست وهي تُضيِّق عينيها قبل أن تضيف باستنكار:

– يا الله أنا لم أعرف اسمكِ، بدأتِ بتقريعي من أول لحظة.

ارتبكت الفتاة، بل اهتزت يداها وأجابت مندفعة:

– أنا لست زوجة أحمد، هو لم يتزوج بعد، نحن مجرد قريبين.

– هاااا، هكذا الأمر!

توردُ وجه الفتاة الواثقة مع اهتزاز راياتها السوداء لم يكن أي ناظر ليغفل عنه، الآن اتضحت الأمور.

اقتربت جفرا وجلست جانبها تنظر إليها بمكر، قالت:

– قريبان مقربان فقط؟

قالت بارتباك:

– ماذا تقصدين؟!

توسعت ابتسامة على وجهها المشاغب، وقالت ببراءة:

– لا شيء، كنت أسأل ما اسمكِ لاستخدمه في أثناء دفاعي عن نفسي.

تجهمت ملامحها، وقالت من بين أسنانها بنبرة كبرياء:

– رُفيدة، دكتورة رُفيدة.

تجنبت نبرتها وهي تبتسم ابتسامة دبلوماسية سائلة بعفوية:

– وهل اسمكِ له دلالة معينة حتى تنطقيه بكل هذه العجرفة؟

مطّت رُفيدة شفتيها ثم قالت بفتور:

– جاهلة بتاريخنا العربي، ولمَ التعجب؟

تأملتها مليًّا في أثناء حديثها وقالت بلهجة عادية:

– أنتِ محقة، لذا هل يمكنكِ البدء في تعريفي بما أجهله؟ معنى اسمي طبعًا معروف، فأبي أطلقه عليَّ لأتذكر من أنا.

قالت ساخرة:

– وكأنه أفلح.

رفعت جفرا حاجبًا واحدًا مستنكرة ثم سرعان ما انفجرت في الضحك:

– حسنًا دكتورة غاضبة، حقًّا.. ما معنى اسمكِ، فسِّريه لي بِعَدِّه عربون صداقة معكِ.

تسللت ابتسامة ودود أخيرًا لوجه رُفيدة وقالت بهدوء:

– معناه العطية الصغيرة، إلا أن له إرثًا آخر هو سبب اعتزازي به.

صمتت وهي تراقب رأس جفرا الذي يتحرك متشجعةً، ثم أكملت رُفيدة بالفخر نفسه:

– رُفيدة الأسلمية، كانت صحابية مجاهدة تداوي جرحى المسلمين.

قالت جفرا بفضول:

– وأنتِ طبيبة، هل هذا تشبُّه من نوع ما؟

فتحت فمها تنوي الرد، لكن الجلبة في الخارج وصوت ضرب النار الذي سرى عبر الشوارع والأزقة واخترق البيوت المتراصة منعهما من الإكمال، جفلت جفرا واهتز فنجان القهوة من بين يديها، أما رُفيدة فقد كانت هادئة ثابتة ثباتًا عجيبًا ومهيبًا حين فسرت بهدوء:

– لقد اعتدنا، لذا لا تستعجبي من ردود أفعالنا، فنحن تمر فوق رؤوسنا ليلًا ونهارًا طائراتهم الحربية محلقة ومهددة بصوتها كشِباح الموت.

اهتز شيء داخل عيني جفرا وهي تقول:

– أنا آسفة.

هزّت كتفيها بلا معنى:

– على ماذا تعتذرين، أهو ذنبكِ.. أم ذنب الشعوب المكبلة؟ مَن يجب عليه تقديم الاعتذار، هم كثيرون على مر التاريخ من القادة.

مع ازدياد الصراخ والعويل، انتفضت جفرا مرة أخرى، ليس خوفًا بل بعقل وضمير عملي بحت، وتحركت سريعًا تفتح حقيبتها مخرجة منها كاميرا حديثة التكنولوجيا وقالت بتعجل:

– أريد رصد وتوثيق ما يحدث، هل يمكنكِ أن تدليني على مكان الرصاص؟

وقفت رُفيدة تضم شعرها المسترسل على كتفيها كما اتفق، ثم أمسكت بيدها تجرها خلفها وقالت:

– بالطبع، المكان قريب ويمكنني أن أجد لكِ بقعة آمنة بعيدًا عن أعين الجبناء.

وفعلت خلال دقائق، وهي تقفز معها عبر كل سطح وآخر فوق البيوت الملتصقة بحد غير طبيعي، مزدحمة بلاجئين كانوا يعتقدون أنها مسكن مؤقت فأصبحت ملجأهم الدائم.

لهثت جفرا قليلًا وهي تريح يديها على ركبتيها محاولة أخذ أنفاسها، ثم قالت:

– كيف تفعلين هذا بالله عليكِ؟ لقد تعبتُ وخِفت قليلًا.

كررت رُفيدة بهدوء:

– اعتدنا.

أومأت وهي ترفع رأسها وتعد الكاميرا سريعًا ثم من خلف سور طويل يكشف ساحة أخرى لبيوت السكان الأصليين لهذه القرية، كانت توجه كاميراتها بحرص نحو المشهد المؤلم وغير الآدمي، فهناك على الأرض كانت عصبة من الجنود يرفعون أسلحتهم بعد أن عاثوا فسادًا ببعض المنازل.

التقطت الصور سريعًا بمهارة رغم تواطؤ ذهنها وعينيها وقلبها، كلهم متضامنين مع مشهد القهر لنساء عدة متشحات بالسواد، ولكن العجيب في أمرهن الثبات والبأس، كانت إحداهن تتقدم لتربت على ظهر

طفل في العاشرة من عمره صارخة فيه بصوت زلزل هؤلاء الشرذمة المرتدين بدلات حربية خضراء:

– اثبت يا ولدي، ولا يتزعزع يقينك، اثبت والفرج بعون الله آتٍ يمة!

سألت مستفسرة:

– أمه؟!

ردت رُفيدة باقتضاب:

– نعم، وكأي أم هنا فهي تلقنه واجب جهاده.

– إنه مجرد طفل، ما الذي فعله؟

أجابتها بهدوء:

– لا يحتاج إلى أن يفعل، هو أخ لشهيد كان قد شارك في عملية قريبة، وحتى الآن لم يقدروا أن يعرفوا باقي منفذيها، لذا يجتاحون القرية بكل غلهم، وقد أصابهم الجنون، فرغم الجدار الذي أقاموه، وكل سبل الحماية التي يتخذونها، فقد أصابهم الفدائيون في عقر دارهم ونالوا منهم.

جلبة أخرى التقطتها كاميراتها عندما تصاعد الموقف الساخن على أشده، مجموعة كبيرة من الشبان والمراهقين وحتى الأطفال الذين اختلفت أعمارهم، تجمعوا فيما يشبه خط دفاع، وأخذوا يمطرون المعتدين من كل حدَب وصوب بالحجارة، ينالون منهم بإصابات طفيفة.

أخذوا يلتفون بخوف واهتزاز لا تخطئه العين حول بعضهم، محتمين بأسلحتهم التي شرعت دون تردد في ضرب الجمع منزوع السلاح في وجه أدوات الموت التي تقبع بين أيديهم، أطلق قائدهم في البداية عدة طلقات في الهواء وهو يهدد بالعبرية بأنه سيقتلهم إن لم يفترقوا ويبتعدوا، ولكن أحدهم لم يتزعزع موقفه الباسل، بل أخذت ألسنتهم في سب العدو، وانهمرت الحجارة عليهم من كل حدَب وصوب، مع التهليل بعبارة زلزلت أبدانهم خوفًا:

– الله أكبر.

بعضهم تقهقر يحتمي خلف دبابة وسيارة مصفحة أُعدت لأخذ بعض الأسرى، والبعض الآخر شرع في ضرب طلقات رصاص عشوائية قاصدًا أن يوقع أكثرهم شهداء، إلا أن جلبة أخرى تقدمت كحائط وسد منيع، شكّله رجل واحد كأول حجر في جدار الحماية، حماية المراهقين المندفعين بحب بلدهم وبروح المقاومة، سرعان ما كانت الحجارة تهدأ، ويتقدم بعضٌ من أشدهم قوة يمسك يد صاحبه بتقاطع، وبيده الأخرى يمسك آخر تقدم بجانبه، والآخر مد يده ككماشة وأمسك آخر وآخر حتى وصل العدد إلى فوق الثلاثين، مُشكِّلين سلسلة بشرية مثل الحديد في صلابته وعدم فله إن حاول أحدهم اختراقه.

أخذت صور جفرا تتوالى، وهمست برهبة:

– هل أرى أحمد الجراح بينهم؟

كانت يد رُفيدة ترزح على قلبها بالخوف، بعكس لسانها الذي يهمس بتضرع للخالق:

– اللهم اخزهم، اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك، اللهم انصرنا وثبت أقدام أهلينا، وقوِّ كلمتهم، وسدد رميهم، واحمِ شبابنا من كل آثم أراد بهم سوءًا.

ارتفع صراخ جهوري لأول متقدم منهم وذراعاه تنتشلان الطفل من الجنود، تدفعانه سريعًا خلف جدارهم البشري:

– على جثثنا أخذكم طفلًا آخر.

تقدم قائدهم يصوب السلاح على صدر ذلك الشاب الطويل، وقال بتوعّد:

– سنفعل إن لم تتحرك أنت وهم، وستجد بعد برهة سلاحي يفرغ في صدرك.

رفع الشاب رأسه وهدر:

– اضرب، لأننا لن نتحرك، وإن قتلت آخر نفس فينا لن تصل إلى الفتى.

وكان ردُّ القائد على كلامه أن رفع مؤخرة سلاحه ووجهها نحو جبهة الشاب الطويل وضربه سريعًا دون تردد.

زادت الهتافات من الجانب الفلسطيني بالتكبير.

بعدها أخذوا في ترديد جملة واحدة، رغم بساطتها على مسامعهم فقد بعثرت جانب المعتدي، وزادتهم قهقرة إلى خلف آلياتهم المصفحة:

– هذه الأرض عربية، القدس فلسطينية.

أما ذلك الشاب، فرغم عنف الضربة التي تلقاها فإنه رفض التحرك من مكانه وهتف:

– لن تأخذه، إن كنت رجلًا وصاحب حق اضرب رصاصك الآن.

عتم وجه قائدهم بالسواد والكره المخالط للغضب وعدل سلاحه سريعًا آخذًا قرار قتلهم جميعًا، ومن قد يحاسبه أو يلومه إن فعل؟

فإعلامه سيزين فعلته ويكللها بمبررات مقنعة سيصدقها العالم أجمع، بأنه قائد شجاع منع هؤلاء الهمج من الاعتداء على حلمه المقدس إسرائيل، إلا أنه امتنع مهتزًا لوهلة واحدة، ليس لضمير أو أخلاق يحملها، وإنما من بأس هؤلاء الناس وسرعة بديهتهم ووقوفهم في وجه الموت دون اهتزاز رمش واحد، في سرعة البرق كان حائط نسائي آخر من العجائز متقدمات السن يقفن بغير تنظيم بين الشباب والجنود، وإحداهن تزيح القائد وبعض جنده من صدورهم دون تردد، هاتفة في وجهه بقوة:

– إن كنت رجلًا أطلق علينا أولًا قبل أن تمسَّ واحدًا من أبنائنا.

صرخ الجندي:

– ابتعدي يا خَرِفة.

صرخت السيدة في وجهه بشدة:

- لا أحد خرف إلا أنت وقادتك، خرف قد أكله السوس واقترب الموعد الحق بالقضاء عليكم.

تصاعد النفور بداخل قلب الجندي المدجج بسلاحه في وجه النساء العجائز، كارهًا تلك الأوامر التي تقيده، محرمين عليهم قتل أحد كبار السن، ليس لمعايير أخلاقية يتبعونها، وإنما لأجل ألا يأخذ الإعلام المعاكس فرصة عليهم منددين بما يصورونه من الحدث، يستدرجون عطف العالم لصالح الفلسطينيين بقتل إحدى عجائزهم.

تفكر عابسًا غاضبًا: «لمَ هؤلاء الهمج يكرهونهم؟ لماذا العرب يبغضونهم إلى هذا الحد؟ أَفَعلوا هم شيئًا خارج إطار دينهم اليهودي؟!

فحاخامه لقنه جيدًا أن دينه يأمره بـ:

ألا يقتل، ولكن مباح له قتل كل من هو غير يهودي.

ألا يسرق، ولكنه يتيح له السرقة والنصب على كل من هو غير يهودي.

ألا يستبيح العرض، رغم أنه غير محرم أن يستبيح كل ما هو غير يهودي.

ألا يأخذ شيئًا عنوة أو يخرج مستوطنًا من بيته ظلمًا، ولكن من حقه أن يبيد كل من يقف كشوكة في حلقه مثل هؤلاء الناس الذين يتجمعون أمامه.

أن يضرب.

أن يمثل بالجثث.

أن يحرق ويهاجم كل من لم يعتنق اليهودية ولا يؤمن بقضيتهم الموعودة.

إذن ما بال هؤلاء القوم رغم السنين، وإرساء كل أركان دولة إسرائيل العظيمة، لا يصدقون مبدأهم وإيمانهم الأكبر، بأنهم شعب صهيون أتوا من لا أرض، ليعمروا أرض الميعاد، التي بلا شعب؟!

ما الضير إن كانوا بضعة ملايين لا تُعد على أصابع اليد، وأبادوهم وهجّروهم ليحلوا كلمة الرب ويجمعوا شتات اليهود في جموع العالم؟ شعبهم المختار المعظم له الحق!».

عاد ينظر إليهم ببرود يقلب نظراته بين وجوه النساء، ثم يحرك عينيه على وجه الشاب الطويل باستخفاف قاصدًا استفزازه، ثم بصق جانبًا قبل أن يأمره بلكنة أهل فلسطين:

- سلم الفتى، وسآمر جنودي بالانسحاب.

هاج الرفاق مكبرين مُصرين ألا يأخذ طفلًا آخر منهم، ألا يستبيحوا منازلهم بالمزيد من رجسهم، فيكفي الطفل ذو الثمانية أعوام الذي اختطفوه، والمراهقة الصغيرة التي اعتقلوها والتي يقاتل ذووهم وبعض المحامين لاسترادادهم.

صرخ الشاب النافذ بصوت قوي ذي سلطة وهيبة مرددًا:

- على احتراق جثثنا جميعًا أن تمد إصبعًا أخرى عليه، ها نحن أمامك عُزّل، وأنت مدجج بعتادك، إن كنت رجلًا وجنودك تقدم وخذه.

لوى ذلك القائد عنقه ثم كرر بصقة في حركة تحقير، إلا أنه أخذ يتراجع للوراء وهو يؤرجح جسده بافتعال، سلاحه مصوب بتهديد نحوه، حتى حجب نفسه تمامًا وعصابته وراء مدرعته، مشيرًا نحو الرجل الطويل بإصبعه في حركة مبطنة معناها لن أتركك، منذ اليوم أنت هدفي وطريدتي.

لم يهتم، وعندما تقدم أحدهم يحاول تجفيف دماء جبهته بالحطة، أزاح يده وقال بخفوت:

– ليس مهمًّا، أخفوا الفتى بنقله بين المنازل، لأنهم إن تراجعوا الآن، فلن يتنازلوا عن مطاردته.

****

تنفست جفرا الصعداء، وصدرها يتحرك بعلو وانخفاض وكأنها كانت تحجز تنفسها طويلًا أمام رهبة الموقف، ودون شعور منها، وكأن شيئًا خفيًّا وخياليًّا يقيدها، كانت تُقرِّب عدسة كاميرتها وتكبرها نحو واحد فقط من هذه الجموع، ثم استطاعت أخيرًا أن تهمس بسؤال يحرقها:

– من هذا الطويل؟

قالت رُفيدة بنَفَس متصاعد بالحمد في حين أن كلها يرجف رعبًا بشعور يفرضه عليها قلبها الذي يهتز عشقًا:

– كلهم طوال، من تقصدين؟

عبست وهي ترفع طرف عينيها ملاحِظة ما تمر به الفتاة من توتر، ثم قالت ببطء:

– أطولهم بطريقة ظريفة، امم ذاك الذي يبدو أنهم يتبعون خطواته المرتجلة بشكل تضامني.

ابتسمت رُفيدة من بين اضطرابها، وقالت بعينين ضيقتين غامضتين:

– عجيب وصفكِ، إنه كنان.. نجار قريتنا، في العادة ينأى بنفسه عن أي مظاهرات أو انتفاضة، مجرد شاب من اللاجئين، لا أحد يعرف أصله أو فصله ومن أي قرية هبط علينا.

صمتت لبرهة تناظر الموقف الذي ما زال مشتعلًا ثم أكملت بهدوء:

– ولكن يبدو أن لديه دافعًا اليوم، فالطفل أخ لأعز رفقائه.. استشهد منذ يومين.

همس لسان جفرا بالاسم وكأنها تستطعمه حرفًا حرفًا:

– كنان.

في حين كانت تنزل كاميرتها ببطء، كانت تحدق إلى الشاب بعينين ترفضان ترك رسم ملامحه وهيئته التي اهتز لها شيء مبهم داخل صدرها:

– كنان الغريب، نجار القرية!

****

«هنا فلسطين، هنا لا ينعدم الأمل أبدًا، ولا نيأس من تذوق طعم الحرية، بأرض الحب».

بعد ليلة.. وقفت رُفيدة في أرض خضراء تقع خلف مسكنها، يؤنسها الشجر العالي الذي يرفرف جالبًا السلام، رغم أن ما تشعر به الآن كان بعيدًا كل البعد عن الهدوء والاطمئنان.

– مرحبًا.

التفتت بكامل جسدها كالطلقة تتبع الصوت الرخيم الذي اخترق وقفتها، وقبل أن يضيف شيئًا آخر كانت تصرخ فيه:

– أجننت لتقف عاري الصدر في وجه أسلحتهم؟!

زفر أحمد بقنوط واقتحم الأشجار مقتربًا منها، وقال بهدوء:

– ومنذ متى أصبحت مواجهتي لهم تخيفكِ؟ هل هذه المرة الأولى يا رُفيدة؟!

الألم كان ينعقد فاعلًا الأفاعيل بصدرها، يتنازع بين ما هو مقبول ومرفوض، أخفضت رأسها للأسفل متجنبة النظر إليه وهمست:

– لقد وعدتَ أن تنتهي من تجهيز منزلنا قريبًا، أن تعود لمطالبة أبي، أنت وعدتني بالحياة، لذا أجدني رغمًا عني أرفض دفعك لنفسك إلى الموت بكل هذه البساطة.

لم يجد إلا الابتسام ردًّا على كلماتها، على خوف من حقها أن تشعر به، ألا يجد الصدى نفسه بداخله منذ أن تورط قلبه معها؟!

– أليس الموت في سبيل الأرض، ودفاعًا عن هذا الطفل يعد ثمنًا زهيدًا؟

عيناها اشتعلت رفضًا بلون العنبر الهادئ الذي يأسر النفس ويكبل الفؤاد، وجاذبية وجهها لا تترك مجالًا للخطأ فيها.

رُفيدة كانت فتاة قوية، ذات رأس يابس وعجرفة فطرية وكأنها جزء لا ينفصل عن تكوينها، ورغم صفاتها تلك لم تكن قط امرأة مكروهة، ولم تجعله رجلًا يحاول تجنبها، على العكس تمامًا، محظوظ هو بكسب امرأة شجاعة مثلها جريئة وصلبة، تذكره بنساء الأساطير الإغريقية، ولماذا التشبيه؟ ألا يكفي أنها تنحدر من أم فلسطينية؟ أي مصنع الرجال.

– لا يا أستاذ أحمد، ثمن جيد، ولكن ماذا عني أنا، عن حياة رغيدة وأطفال يحملون اسمك وعدتني بهم مرارًا؟

اِلتوَت شفتاه بشبه ابتسامة، مجرد التواءة خائنة وصلت إلى عمق عينيه، فحبيبته المحاربة لا تضعف بالعادة، وتظهِر جانبًا من رعبها، وتذكره بأحلام بنوها معًا على استحياء.

هدرت فيه محاولة كبح بلل عينيها الواسعتين كعيني المها عبثًا:

– لا تتجرأ وتقابل كلامي بالضحك.

عيناه الضاحكتان لم ينمحِ منهما إحساس السعادة، وإن اختلط فيهما عنف المشاعر وهو يقول بصوت أجش:

– هذه أنانية لا تليق بكِ.

– العشق أنانية طرفين.

كلاهما لم يعرف الخوف يومًا، إلا أنها عندما رأته وتوقعت سقوطه شهيدًا أمام عينيها رغمًا عن كل ذرة فيها ارتعبت، همست ببهوت:

– أنانية فيكَ!

للحظات ظهر تعبير مختلف في عينيه الكحيلتين كحلٍّ رجولي يجلب للقلب الرهبة، لن تنكر أن الجراح يحمل من الوسامة ما يجذب أنظار النساء، وجه أبيض خشن التقاسيم، عينان واسعتان، وفك صلب مزموم يعلوه أنف مستقيم، تحدهم لحية شقراء داكنة بلون شعر رأسه، قال أخيرًا بنبرة أكثر عمقًا وأشد احتواءً:

– وأنا أناني فعلًا معكِ، سنون وأنا أحتجزكِ بجانبي رغم الموانع والعقبات، وزهد الحال وراتبي الضئيل بِعَدِّي أستاذًا بمدارس اللاجئين، مهجَّرًا من مدينته وقريته آتيًا لمخيمات مدينتكِ، العراقيل كثيرة يا رُفيدة، وأخشى يومًا ألا أفي بعهدي.

ابتسمت بحزن، وقالت ببطء:

– لم تجبرني على الانتظار، القرار كان بيدي منذ اللحظة الأولى، أنتَ لا تملك رفاهية عدم الوفاء.

ظل عاقدًا حاجبيه ينظر إليها نظرة داكنة، وقال أخيرًا مدعيًا الصرامة:

– أنتِ فتاة عنيدة!

ضحكت بِرِقّة وهي تدفن أصابعها في شعرها الذي استرسل حول كتفيها تزيحه للخلف بخجل وقالت:

– المحاربات لا يملكن رفاهية أخرى، العناد سر انتصارهن.

اقترب منها خطوة واندست يده تحت ذقنها رافعًا وجهها نحوه مشبعًا روحه، مريحًا هواجسه عبر نظرة واحدة ينهلها من عنبر عينيها، وقال بصوت أجش:

– بعد أن ينتهي هذا التوتر، سأذهب إلى والدكِ، فأنا على استعداد كامل هذه المرة، فالمنزل الذي أخذته على أطراف المدينة جاهز تقريبًا ولم يتبقَّ غير الشيء اليسير، سنختاره معًا بعد عقد قراننا.

صمت أمام احمرار وجنتيها وتلك النظرة المذهلة التي سكنت عينيها محدقة إلى عينيه كالمقيدة غير قادرة على الإفلات من حصاره، همس بخفوت:

– بالطبع إن نجوت منها، فأنتِ تعلمين أني سأكون أول المتقدمين إن تصاعد الأمر كما نتوقع.

ارتجف بَدَن رُفيدة كاملًا كما ارتعشت نبرتها:

– إن شاء الله لن يصيبك مكروه، أستودعك الله.. فهو القادر على كل شيء.

همس بحنان:

– المرة القادمة التي سنتقابل فيها ستصبح أمام العالم أجمع، أَمسكُ يدكِ دون قلق أو خوف من أحدهم، ستكونين أم الجراح.

كان يحاول تشتيت أفكارها المفجوعة التي تتراقص الآن في حدقتيها، خائفة.. ومن يستطيع لومها؟ ترتعب وهي من لم تشأ يومًا الوقوع في أشباح الرعب، لكن أي حل آخر أمامها أو رفاهية تملكها وطريقهم مرسوم منذ الأزل؟ مربوط به ومعه، وبكل من يحيطهم، اختيار يصرخ بحب الحياة والأمل، إلا أن العدو المتربص يقف لهم برایاته السوداء ينعق فوق رؤوسهم بمصير الفراق، ألا من عزة تنهض من سباتها وتعينهم على الظفر ليس بقضيتهم وحريتهم فقط، بل بحقهم في تقرير المصير، ككل شعوب العالم؟

******

طوت رندة سجادة الصلاة ونظرت لابنتها التي أعدّت حقيبة ظهرها بعَجَل، وحشرت هاتفها بين كتفها وأذنها:

– إلى أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟!

وضعت جفرا قدمها على طرف الفراش لتغلق سحاب حذائها ذي العنق الطويل وأجابت:

– لأداء عملي.

شحب وجه رندة قليلًا عالمة يقينًا شغف ابنتها في اللحاق بأي خبر صحفي متضامنًا –الآن وبقوة– مع رغبتها للمعرفة من داخل أرض النار:

– هل أصبتِ في عقلكِ، ألا ترين ما يحدث بالخارج؟ لم تأتي معي لأرميكِ بالنيران.

اعتدلت جفرا ملتقطة حقيبة ظهرها تلبسها بعجل ناطقة بتهكم:

– غريب أمركِ يا أمي، ألم تُصدِّعي رأسي بشعاراتكِ أن تلك الأمة لن تتحرر إلا بسواعد أبنائها؟ ألستُ أشاطر هؤلاء الأبناء الميراث نفسه؟

وجدت رندة أفكارها تسبح في الأمس القريب مع صور وكلمات بها النفور والتحامل من ابنتها التي تتخبط رافضة ذكر تاريخ الأجداد، ضائعة بين فكي الرحى ما بين الحقيقة والسراب الذي حبكوه جيدًا مضيعين انتماء الكثيرين.

قالت رندة بتحشرج:

– حسنًا، إن اعترفتِ بداخلكِ أنكِ منهم فعلًا كُتِب عليكِ الجهاد، وإن كان بالقلم وبضعة صور لتُظهِري للعالم أجمع ما نعانيه حقيقةً بعيدًا عن الإعلام الزائف، لن أقف في وجهكِ، لكن...

صمتت رندة أمام عيني ابنتها المصرة بغير تنازل تموج فيهما مشاعر كثيرة غير مفهومة، أكملت:

– ما يحركِ الآن هو الرغبة البحتة في إثبات وجهة نظركِ التي أتيتِ بها، رغم ما رأيتِه منذ أن وصلنا!

تحركت جفرا أمام عيني والدتها تمنحها ظهرها، تمسك مقبض الباب ناوية التسلل حتى لا يراها أحد قاطني المنزل، وقالت أخيرًا بهدوء قاتم:

– أنتِ أتيتِ لتري أرضكِ وتُشبعي روحكِ مع من تبقى من عائلتكِ، أما أسبابي فأنتِ تعلمينها بوضوح، ولن أتوقف حتى أحصل على إجابة التساؤلات التي تدور في عقلي، فأنا أستحق بالنهاية أن ألمسها بيدي.

هتفت رندة خلفها بعجز:

– جفرا، البلد على أشدها، المستوطنون والجنود يستبيحون كل ركن فيها، لا ترمي نفسكِ بين أيديهم.

إلا أنها لم تسمع، بل أكملت طريقها يلاحقها صوت والدتها المتضرع لله أن يحميها، هل تكذب رندة على نفسها؟ إنها نادمة أشد الندم لمطاردة حلم عودتها لسنين، مرتعبة من جلب صغيرتها المتخبطة بين قوميتها وهويتها، لقد حاولت هي وأبوها، ويعلم الله وحده كم اجتهدا في تربيتها زارعين فيها حب وطنها وعشق عروبتها والانتماء لجذورها حتى إنهما كانا يرفضان رفضًا قطعيًّا أن تتحدث بالإنجليزية داخل المنزل أو في أي مكان يوجدون فيه.

رندة كان لها فكر واحد لا تحيد عنه، وإن خسرت ابنتها بحكم المنشأ والمولد بعضًا من انتمائها إلا أن اللغة تبقى هي القومية التي تتوغل بمكمن عميق داخل جدران قلب وروح الأمة، ورغم حرصها الشديد، رغم كل حكايات الأجداد وزرع التاريخ العميق فيها لم يقدرا أن يقاوما طوفان الاحتلال داخل صغيرتها الذي زعزع ركائزها.

من قال إن الاجتياح الطاغي سيطر على الأرض فقط؟ بل حربهم الكبرى التي نجحوا في كسبها، كانت احتلال عقول أبنائهم مزعزعين ثقتهم بجذورهم نازعين بكل غل وشراسة فروعهم، مستبدلين بزرعة أبناء العرب، جذورًا وهمية مزيفة لأبنائهم.

فأصبح شبابهم بكل وجع يتخبط وهم أصحاب الحق، والآخرون يدّعون الثبات وهم أهل الباطل.

– إلى أين سيوصلكِ جموح بحثكِ عن إجابة ترضيكِ؟ أخشى أن أخسركِ أنتِ في طريق البحث عن ذاتكِ.

من بلا جذور، لا أصل له، وهي تريد لمس عمق أرضها بنفسها، ورغم قلب الأم الذي يموج بالرعب على طريق أصبح مصيريًّا على ابنتها اتباعه، لن تقدر على منعها وإن انتهى الأمر بأن تعود لها مجرد كفن تحمله الأكتاف.

****

– صه واسمعي، نحن كنا نلاحق منذ أمد دليلًا حيًّا بالصور بعيدًا عما يصل إلينا، حكايات حقيقية تحدث وليس مجرد صفحات نكسة ينكرون بكل تعنت حدوثها.

قالت رفيقتها على الهاتف بتردد:

– أليس هناك خطورة يا جفرا، ألم يخبركِ مدير الصحيفة أنكِ تحتاجين إلى تصريح من الأمم المتحدة ليحميكِ إن تعرضتِ لبطشهم؟

كانت عيناها تتفحصان بدقة وببصر عملي الأزقة الضيقة كما بيوت هؤلاء اللاجئين، حيث علمت الآن بالتجربة أن منازلهم تلك محرومة من أقل متطلبات الحياة، فالمياه شحيحة، والكهرباء تأتي بالصدفة البحتة، أما عن شبكة الإنترنت ووسائل الاتصال فهي شبه مُعدمة، لقد أُجبرت أن تربط رقمها الأمريكي على شبكة إسرائيلية لتستطيع أن تتواصل الآن مع رفيقتها، قالت بفتور:

– لقد رفضوا منحي التصريح، كما أن أخذه من المنظمة العالمية شبه مستحيل.

قالت رفيقتها بسخط:

– إذن أنتِ تتجولين الآن بتصريح وهمي؟ هل جننتِ؟ أتعلمين ما قد تتعرضين له؟

ضيقت حاجبيها وهي تراقب الطريق جيدًا محاولة تذكر كيفية الخروج منه، وقالت بهدوء:

– هم يدّعون التحضر وعدم التعرض مطلقًا لأي إنسان يحمل مجرد قلم وكاميرا، في حين أن الطرف الآخر يدّعي أنهم معتدون يُخرسون أصواتهم، ويقصفون أقلامهم، لذا دعينا بالتجربة نثبت من منهم على حق.

قالت رفيقتها بخفوت:

– أنتِ لن تتراجعي حتى تحل مصيبة فوق رأسكِ.

ردت ضاحكة:

– هذا ما تجزم به والدتي بالفعل.

التضامن ليس كلمة لا طائل منها لدى فلسطينيي الداخل والخارج، والعزة والغيرة الرجولية لا تحتاج إلى أكثر من صرخة، حتى وإن كانت غير مُستنجِدة ليهبوا جميعًا كالإعصار حامين أعراضهم ولو من لمسة.

كالعادة وكما قالت رُفيدة مكررة على مسامعها كلمة واحدة لا ينفك معظمهم عن ترديدها بحبور عجيب:

– اعتدنا.

والآن في حين كانت تهبط لأسفل طريق ممهد يشبه التلة، فهمت تحديدًا ما تعنيه الكلمة المختصرة، فالسنون تروي لهذه القرى التي تتشبث بثقافتها الكنعانية المشهد المؤلم نفسه، يجتاح المحتل القرى الهادئة بحجة البحث عن فدائيين أو سلاح مخبأ داخل المنازل، يقتلون من يريدون، ويأسرون من يعتقدون أن وراء استجوابه بأعنف الطرق وأبشعها معلومة قد تفيدهم، في حين أن لكلاب المستوطنين الذين احتلوا المنازل عقب تهجير ساكنيها الأصليين أهدافًا أخرى وسلاحًا ذا فاعلية.

– همج.

لقد رأت من قبل أفلامًا مصورة ومقتطعة شبيهة لما يحدث على مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن الرؤية والسمع شيء، وعيش الحدث والتوغل فيه شيء آخر.

لا تعرف جفرا لِمَ شعرت بشيء ما يوجعها، جاهلة إن كان ألمًا جسديًّا، أم نفسيًّا يضرب قلبها بعمق وعنف شرس متغذيًا على الروح القتالية وفورة قضية تجهل كليًّا أنها مدفونة داخل كل ذرة دماء تحملها.

أخذتها قدماها للتقدم أكثر وقد غلفت كتفيها وجزءًا من رأسها بكوفية والدها المحملة بعبق رائحته، كان قد أهداها لها بِعدِّه تذكارًا أخيرًا منه وهو على فراش الموت موصيًا إياها:

– إن قُدِّر لكِ العودة يومًا وزيارة أرض أبيكِ وأجدادكِ، أريدكِ أن لا تخلعي هذه عنكِ طوال مدة وجودكِ، وإن شددتِ الرحال عن أرضنا يائسة من حقكِ في المكوث فيها، ادفني هذه «الحطة» التي حملت روح أبيكِ هناك، علّ النفس المفجوعة بالغربة تهدأ.

سيطرت على انتفاضة قوية اجتاحتها، وتحكمت في غلالات دموعها التي أرادت الهبوط مجددًا لنعي السند والحبيب، جابرة نفسها على أن تندمج مع الحدث فكرًا، لمحت سريعًا مجموعة من المراسلين الصحفيين على أحد الأرصفة يرتدي كل فرد منهم شعار الدولة التي ينتمي إليها، يصورون مثلها ولكن من بعيد، وجدت نفسها تختار أحدهم سريعًا حمل اسم التلفزيون الفلسطيني ثم سألته:

– ما سبب هذه الجلبة؟ هل له علاقة بالمجندين المنتشرين بالأرجاء باحثين عن الفتى أو الأسلحة؟

اِلتفاتة واحدة كل ما منحه لها المراسل، ثم عاد ينظر أمامه وهو يقول دون أن يُظهِر أثرًا لأي انفعال على وجهه:

– المستوطنون اليهود يستغلون الفرصة بحماية الأوغاد، إذ إن هذا المنزل...

وأشار لها بطرف إصبعه على منزل عريق يقع أسفل التلة ومُروج واسعة تحمل أشجار زيتون ليس لها عدد، ثم تابع:

– هذا المنزل يفصل بين القرية، وضفة قرية أخرى استولوا عليها من سنين، وامتلاكه من حينها أصبح هوسًا لهم، وضعوا أمامه

–مساومين ساكنيه– ملايين الدولارات واللجوء لأمريكا ومنزلًا فاخرًا بديلًا داخل القدس المحتلة، إلا أن مالكيه يتشبثون بالرفض وحقهم في منزل أجدادهم.

سألت بفضول مسجلة ما يقوله سريعًا عبر جهاز صغير تعلقه أعلى سترتها:

– ومنذ متى يعرضون المال؟ ألا تقولون إنهم يسفكون دماء الأهالي ويغتصبون الأرض التي يرغبون؟

التفت إليها يحدق إليها من فوق كتفه ثم ردد باستنكار:

– نقول! ألا ترين أنه الواقع حقًا؟

ردت بعملية:

– أنا أحاول أن أفهم، فهذه القصة لم أسمع بها.

– أنتِ غريبة، لأي جريدة تنتمين؟

بهتت قليلًا، ثم أجابته بتلوٍ:

– هذا أول عمل ميدانيّ لي، اخترت أن يكون كما حلمت طويلًا داخل بلادي.

لم يقتنع الشاب، إلا أنه قال باقتضاب:

– قاموا بهذا فعلًا، فهذه ليست المرة الأولى التي يجتاحون فيها المنزل معتدين على سكانه، ويقف لهم الأهل والشباب في تضامن مدافعين، أما اليوم زادت الحقارة المعتادة وقد اختطفوا طفلة من الدار لم تبلغ الخمسة عشر شهرًا.

توسعت عيناها بذهول قليلًا وهمست:

– تقصد عامًا؟!

قال من بين أسنانه:

– بل مجرد رضيعة، أنا لم أخطئ، فنحن الصحفيين كالأطباء يا جديدة، خطؤنا بمصيبة، ورسالتنا أمانة.. إن تهاونا فيها أضعنا حقوقًا، وقتلنا همم الشعوب وعزائمهم.

لم تهتم كثيرًا لنبرة الازدراء في صوته، على كل حال هي تعترف أنها أحيانًا تستحقها فتُذبذب أفكارها، يبدأ في الحديث معها هنا بالذات، سألته مرة أخرى بتحفز:

– وأين الطفلة الآن؟!

عقد الشاب حاجبيه كما تداخلت التعابير على وجهه، ثم أمرها وهو يستعد للركض ناحية القتال الذي نشب:

– اتبعيني وستعلمين ما مصيرها.

وكان الحدث المشتعل، لم يختلف كثيرًا عن مشهد الأمس، هي مقتنعة الآن أن هؤلاء الناس لا يهنؤون بيوم طبيعي كما سائر البشر، راقبت جفرا من خلف عدسة كاميراتها المتهورة هبوب إعصار بشري متمثل في مجموعة من الشباب الملثمين برايات صفراء يتقاطع فيها بندقيتان، وخُطَّ عليها بوضوح «ثورة حتى النصر»، وكانت مجموعة منهم قد اكتفوا بتغطية وجوههم بالحطة الملونة بالأبيض والأسود الشهيرة، كان الشبان المندفعون منقسمين إلى مجموعتين: المجموعة الأولى يحملون بين أيديهم رضيعة، وبعضهم يجري بالاتجاه المعاكس يحمون ظهورهم، في مواجهة مجموعة من المستوطنين مع الجنود المدججين بالأسلحة يطاردونهم بقنابل مسيلة للدموع، ممتنعين عن إطلاق الرصاص الحي خوفًا على تلك الشرذمة من جنودهم ليس إلا.

وعلى حدود بوابة هذا المنزل توقف سعيهم وهم يعطون الصغيرة لأحد الرجال الحامين، الذي ناولها لآخر، ثم إلى يدِ آخر حتى استقرت أخيرًا بين ذراعي جدها الذي انهار على الأرض باكيًا مبتهلًا لله بالحمد لعودتها سالمة.

ولكن الموقف لم ينتهِ عند هذا الحد، بل كانت بداية الشرارة التي زادت المشهد جذوة، فها هم المستوطنون ذوو (الكيباه) على الرأس ينحنون جانبًا بكل غِلٍّ مستمرين في وعيدهم بانتزاع كل شبر من

الضفة وغزة وكل جزء بقي يحمل عبق فلسطين.

وقد سَلِم من اجتياحهم عقب قبول ياسر عرفات قرار مجلس الأمن الدولي (242) بإقامة دولتي فلسطين وإسرائيل بجانب بعضهما، نعم ربما لسانه قَبِل كما منظمة التحرير، إلا أن عقله وجهاده لم يقبل أو يقر بالوجود الصهيوني أبدًا، وكرّس الباقي من حياته للمقاومة مطالبًا بحق شعبه، كما يفعل أبناء فكره الآن.

عرفات كان فكرة.. والفكرة لا تموت، بل تُستمَد منها كل عزيمة جسورة حتى لفظ الأنفاس، وهل هناك شرف أكبر من أن يصبح كل فرد منهم شهيدًا فداء لتراب وطنه؟ وقد بدأ هؤلاء الجذّابين من وجهة نظرها وعينيها المراقبتين يندفعون دفعًا لهذا الطريق غير مبالين بوابل الرصاص الذي بدأ ينطلق فوق رؤوسهم.

الاشتباك المتوقع حدث، الجانب الصهيوني بالرصاص والقنابل، والجانب الذي حُشِرَت فيه بالحجارة، ولن تنكر أنها خافت بل تقهقرت محاولةً التراجع، إلا أن عصبة صغيرة من هؤلاء الغربان ذوي البِزّات العسكرية توجهوا نحوها، ونحو زملائها، يحطمون كاميرا هذا ويقطعون البث المباشر لآخر، يأمرونهم بكل غضب هادر أن يكفّوا عن التصوير، يعتدون بالضرب والسباب على الصحفيين.. حتى الدوليين منهم، تبًّا.. ألم تدرس في الجامعة أنهم متحضرون؟ أن إسرائيل ابنة أمريكا المدللة، لديها شعب متفهم وعادل يرحب بكل من ينقل الحقيقة من أرض المعركة؟

إن الحقيقة المرة التي تلتقطها الآن، من استفزاز لمشاعر الشعب، واختطاف للأطفال، واعتداء على المنازل وساكنيها، الحقيقة التي تروي تكرار المشهد منذ سنة 1938م من قتل عُزَّل كلُّ سعيهم الدفاع عن إنسانيتهم برصاص الصهاينة، لا تناسب (الابنة المدللة) بالمطلق.

آخر شيء كانت تتوقعه في حياتها أن تنال منها يد غاشمة، ألا تَبَّتْ تلك اليد التي صفعتها على حين غِرة متسببة في ترنح جسدها صدمةً وألمًا وقد تهشمت كاميرتها تحت الأقدام، والصوت العبري يصرخ فيها بعربية متكسرة:

- أمرتكِ ألَّا تصوري يا امرأة، امشي من هنا أو أجركِ إلى السجن.

الأمر لم يحتَج منها إلا إلى لحظة واحدة من الذهول قبل أن تنصب نفسها بألم تاركة التحديق إلى سلاحها السلمي الذي دُمِّر تمامًا، ونظرة إلى المجند بغضب جنوني متهور أعماها، صارخةً فيه بانفجار، رادةً صفعته بأخرى أشد وطأة:

- تعتدي عليَّ وأنا أؤدي عملي يا كلب؟!

بالنسبة إليه لم تكن لديه -كما قومه- مشكلة في الاعتداء مرة أو عشر مرات على النساء، ومن أين يأتي مَن على شاكلته بمبادئ أو أخلاق وقد تجمعوا من شتات الأرض وبقاعها جاهلين قوميتهم، غير عارفين من أي نسلٍ انحدروا؟!

لم تُصدم كثيرًا عندما أمسكها من مقدمة ملابسها يهزها بعنف مستعدًّا لجرها إلى عربة الترحيلات، ولم يكن في الأمر ضير من كيل الضربات مسببًا لها الجروح.

صرخ يسبها:

- عاهرة.

برقت عينا جفرا بجنون متصاعد غير عابئة بالنتائج، ودون تردد صرخت:

- العاهرة هي والدتك، هل أخبرَتك كم من رجل احتاجت إليه لإنجابك؟!

همَّ بصفعها مرة أخرى، وربما ألقاها على الأرض المرصوفة بالأحجار المسننة، إلا أن جسدًا رجوليًّا اندفع يحول بينه وبين ما نوى، هاتفًا بصوت اتقد فيه جمر الغيرة الحرة دون أن ينطفئ:

- ارفع يدك النجسة عنها.

البث الحي بجذوة براكينه كان على أشده.. هؤلاء يضربون وآخرون يفرون هاربين، والأكثرية مستمرون في المقاومة، وآخرون لم يتزحزحوا عن حماية هذا المنزل، أما عن ذلك الذي يحاول حمايتها فلم يكن منفردًا، بل لمحت بعينيها المهتزتين قليلًا المراسل الذي تحدثت معه قبلًا يقتحم المسافة بينها وبين الجندي، إضافة إلى ثلاثة آخرين تقدموا مدافعين عنها بقوة، أما عن ذلك المعتدي ورغم الحائل الذي تشكل بينها وبينه، فإنه لم يتنازل عن جرِّها من ملابسها مُصِرًّا على أنها معتقلة بقوة القانون.

أي قانون هذا الذي يتحدث عنه؟ أي حكم لهذا المعتدي في أرضٍ غير أرضه؟ أي مبرر هذا الذي يجعله ذا سلطة عليها وهي لا تحمل جنسية كلا البلدين المتناحرين أصلًا؟!

وهنا اندفع لسانها يهذي بحماقته عن اقتناع تام:

- أنا مواطنة أمريكية، محمية تحت أي سماء بسلطة بلادي، سأشكوك أنت وكل سلطة إسرائيل يا كلب.

الجنون التام هو ما رأوه من الوجه العبري وهو يهذي بكلام غير مفسَّر، مستعينًا ببعض من عصبته في وجه جفرا ومَن اندفع لحمايتها.

هدر الرجل الذي كان أول المدافعين عنها بنبرة غاضبة خشنة:

- اخرسي.

صرخت بقوة وهي تطبق بفمها على يد الجندي ليترك ملابسها:

- ومن أنت الآخر حتى تنهرني؟!

انضم شخصٌ آخر بارز بينهم، ووقف في وجه الجنود فاردًا كلتا ذراعيه يحميها وأصحابه عندما تراءى له صراخ الجندي من عضها يده، وعزمه رميهم جميعًا بالرصاص، وهدر:

- حمزة.. أبعد هذه المصيبة من هنا.

كان الشاب الذي عرفته الآن يتنفس بعنف، أنفاسه اللاهبة تكاد تلفح أذنيها من بُعد، في حين أنها لا تعلم ما الذي أصابها، شاعرة بوجهها يشحب ويبرد، كأن كل قطرة دماء كانت تتسبب في إصابتها بحمى

الموقف هربت لتتركها مرتعدة صامتة مستسلمة وهي تُقيِّم الموقف الذي وضعت فيه نفسها مع أربعة من الشبان، الذين لم يترددوا أن يقفوا بصدورهم العارية في وجه الموت؛ حماية لها وغيرة على كيانها الذي شعرت باستباحته من صفعة الجندي.

استجابت لدفع حمزة لها خلف ظهره متراجعًا بها خطوات معدودة للوراء، وعيناها كعينيه لم تتركا رصد الأحداث وحوار كنان الهادئ رغم كارثية الموقف، قال محاولًا إقناع الجندي عله يحميها من بطشهم:

– اتركها، لن تستفيد من اعتقالها شيئًا، فقد صرحت أنها صحفية ومحمية بجنسيتها، ولا أعتقد أنك تريد جلب المشكلات لنفسك.

رد الجندي الغاضب كما عصبته التي تقف بجواره:

– لا أفهم ما تقوله.

قال كنان بصوت جامد:

– بل تفهم وتجيد العربية، لقد سمعناك وصورناك وأنت تهجم عليها، اتركها وأعدك أن نمسح هذا الفيديو.

صرخت جفرا قافزة من خلف حماية حمزة:

– تعد من؟ خونة العهود؟ تحدّث عن نفسك إن كان هناك صور، فأنا من سأندد بهذا الخنزير.

هدر كنان مجددًا:

– أبعدها يا حمزة.

رأت حلق هذا الحمزة يتشنج، وعيناه بلون الدم تزيدان نيرانًا خطِرة، وقال بقسوة:

– أقسم بالله لولا لكنتكِ السليمة والحطة التي تتسترين بها لكنتُ تركته عليكِ بنفسي.

توسعت عينا جفرا بجنون أكبر وهست:

– إذن.. لاعتقادك بأني فلسطينية تدافع عني، أما لو كنتُ من أي دولة أخرى لتركته يعتدي عليَّ، بماذا تختلف عنهم؟

زفرة خشنة صدرت عنه قبل أن يزيحها من أمامه مجبرًا إياها على الركض غير مبالٍ إذا ما منحها ردًّا يلجم تطاولها، غير عابئ بإخبارها أن أيًّا مَن كانت مكانها يكفي أنها امرأة وسيخلصونها بأي ثمن.

سمعت من خلفها صوت جنود يطاردونهم ولمحت كنان ما زال هناك يحاول تعطيلهم بقوة الجسد والكلمات:

– لن تقبض عليها، هنا ليست مظاهرة، وليست القدس التي يؤسَر فيها كل من رفع علمًا يرفرف.

صوت مستخف يحمل شارة القائد كان يأمر الجندي الذي تثبت مكانه:

– اتركها، سنحصل عليهما معًا قريبًا.

– أمرك قائد عِزرا.

ببرهة كان يطيع الأمر، وقد تواجه كنان وعزرا للمرة الثانية في أقل من أربع وعشرين ساعة، سامحًا عزرا لكنان بأن يحمي طفلًا وامرأة!

سخر كنان بجمود:

– منذ متى هذه الشهامة؟!

لوح عزرا بسلاحه ثم قال بقبح:

– عندما يكون لديك فأر يحيرك، تنصب له المصيدة وتتركه يركض هنا وهناك مستمتعًا بذعره، ثم وقت انتهاء متعتك من مراقبته...

صمت لبرهة قبل أن يطرقع بإصبعي السبابة والإبهام وتابع:

– تدعسه هو وكل عشيرته مطهرًا أرضك وبيتك.

التوى عِرْق بجانب فم كنان رادًّا ببرود:

– الفئران هي التي تختبئ محتمية وراء جدار عازل بنته جبنًا وخوفًا مِن أسود متثائبة تجعلهم يموتون كل لحظة، فما بالك إن قرر الأسد النائم أن يفيق ويثور؟

صك عِزرا فكه ثم قال:

– أستطيع قتلك الآن.

فتح كنان ذراعيه:

– وما الذي يمنعك؟

الحقد الأسود مع برود جليدي داخل كلا المتواجهَين كان يتعاقد في صمت به خواء غريب، ونظراتهما المتوعدة كلٌّ من جانبه تتشابك دون أي تعبير على ملامحهما، وكأن اللسان يريد القول إن هناك قصة مطاردة وتحديًا شخصيًّا بحتًا يعتملان بداخل الرجلين، قصة ربما حدثت وربما لن تكرر، إلا أنهما يوقنان في هذه اللحظة أنها ليست نهاية مواجهتهما.. بل البداية، ولأن لكل بداية نهاية، فإن نهايتها لن تكون إلا بالدم الذي سيغرق صدر كليهما بالرصاص الحي.

وعندما تركه عِزرا متراجعًا خطوات، كانت عيناه تنحدران نحو البعيد، يهمس لسانه مستطعمًا اسمًا غاب عن نطقه سنوات:

– جفرا، تُرى أي ريح رمتكِ هنا؟ وهل مررتُ بتفكيركِ؟ حتى لو مجرد طيف باهت من الذكريات التي جمعتنا؟

تعريف المعتدي القاتل في قاموس (صهيون المحرف): هو الرجل رقم واحد الذي عاد، بروح جديدة وجلد بائس، شابًّا فتيًّا لينعش الأرواح..
إنه (ظريف الطول) الذي نفر غربته وعاد ليطالب بملكيته في أرضه وأحقيته بها.

الفصل الثاني

«نحن لم نبكِ ساعة الوداع، فلم يكن لدينا وقت ولا دموع ولم يكن وداع، نحن لم ندرك لحظة الوداع أن هذا هو الوداع، فأنّى لنا البكاء؟»

****

لم يتوقف ركضها إلا بعد عدة أميال، عندما أجبرها التعب لتقف مكانها منحنية للأسفل قليلًا هاتفة بلهاث:

– لن أستطيع المتابعة، فليقبض عليَّ إن أراد.

وقف حمزة على بُعد خطوات منها ينظر إليها بأنفاس تهدأ تدريجيًّا دون تأثر بهذه المسافة التي قطعها هاربًا من أسر محقق، إذ إنه اعتاد ليس الركض فقط، بل الفرار الدائم من جنود مدججين بأسلحة إن طالته لن تتردد في إسقاطه قتيلًا، فحص الشارع الأثري جيدًا، يتأكد من خلوه من أعين مترصدة أو مطاردين، وعندما تأكد أن لا أحد يتبعهم، قال بجمود:

– هل تعلمين كيف تعودين لمنزلكِ، أو المكان الذي تقيمين فيه؟

رفعت رأسها المنخفض من موقعها تتأمل ملامحه الـ.. الـ ماذا؟! تستطيع القول: الكارهة، إذ يبدو أن هذا الحمزة قد ضاق ذرعًا بها، ويريد التخلص من وجودها.

هاا لماذا أنقذها أصلًا؟ على كل حال.. هي تعترف أنها ليست شخصية يسهل محبتها من المقابلة الأولى، قالت في برود:

– أعطني اسم الشارع وسأخبر ابن خالي يأتي لاصطحابي، تستطيع الانصراف وإكمال سعيك للانتحار.

نظر إليها حمزة مستنكرًا:

– على الرُّحب والسَّعة، إنكِ لا تحتاجين إلى تقديم الشكر الحار لتعرُّضنا للقتل في سبيل إنقاذ جلالتكِ.

انتصب ظهرها ووقفت بوجهه شامخة ثم قالت بصلف:

– إن كنتَ تنتظر إطراءً على واجبكَ، فأنت يا مسكين لن تحصل عليه أبدًا.

المستفزة، بحق الله.. لماذا ورِث هذه الدماء والجينات التي تمنعه من إهانة امرأة؟ لكان الآن فتك بها ممثلًا بجثتها، المستفزة التي تدفعه لتفكير نذل، ليته من أولئك الأوغاد؛ لاستطاع بكل أريحية جذب هذا اللسان وقصه ثم تعليقها على باب حارته عِبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر.

عندما لم يُجِبها، مكتفيًا بالنظر إليها بعينين كالجمر، كأنه على وشك قتلها، قالت ببطء:

– إن كنتَ انتهيت من تخيل طرائق الفتك بي، امنحني اسم هذا المكان.

إلا أنه لم يجبها أصلًا، بل أثار صوت آخر عميق الرجفة في أوصالها رغمًا عنها، وهي التي لم يسبق لها التأثر قط بأي رجل، قال بتسلٍّ:

– لماذا تحتجز الأمريكية هنا يا حمزة؟ أعطِها الاسم قبل أن تُبلِّغ فِرق المارينز لتنقذها.

ببطء شديد وحواس ملجمة.. كان رأسها يستدير لتحدق إلى الطول الفارع بطرافة تثير البهجة.

شعور غريب! منذ متى كان قِصَر إنسان أو طوله يؤثر بهذا الشكل في عيني آخر ويدفع للقلب خفقة محسوسة ومهيبة؟

ابتلعت جفرا ريقها ناهرة نفسها داخليًا: «ما الذي يحدث معكِ؟ منذ متى تنجذبين كالحمقاوات وتترصدين رجلًا بهذه البلاهة؟!»

ردّت سريعًا علها تفيق لنفسها:

– لا أحتاج إليكم، ابن خالي يكفي جدًا.

التسلية لم تنمحِ عن الوجه البشوش الذي يقف على بعد خطوات منها بمرح عجيب.

على أساس أنه عائد من قتال بصدر عارٍ وعراك مصيريٍّ، أليس من المنطقي أن يكون هؤلاء مجرد منتحرين عابسين مكتئبين وحفنة من الفشلة، كما قرأت وسمعت العديد من التحليلات السياسية عنهم؟!

– وهل ابن خالكِ الأمريكي يعرف طرق بلدتنا مثلنا؟! امم وأين كان ابن الخال هذا وأنتِ تدفعين بنفسكِ إلى التهلكة بإباحتك لكلب أن يلمسكِ بحجة القبض عليكِ؟

احمرَّ وجهها حرجًا في رد فعل نادر ثم قالت بغضب:

– الجراح فلسطيني، وإن علم بما جرى لكان قتله، وقتلك أنت وحمزة.

لاحظَ كنان من وقوفه البعيد غليان حمزة كالمِرجل، وكأنه في أي لحظة سيفتك بها غير مهتم إطلاقًا بأي معايير أخلاقية، قال كنان بهدوء:

– دكتور حمزة، أشكرك بالنيابة عنها، وأعتقد أني سأتولى الأمر من هنا، بعد إذنك.

نظر إليه حمزة لبرهة نظرة عجيبة، ثم تخطاها أخيرًا في خطوات أشبه بالهرولة، وكأنه لا يطيق صبرًا للابتعاد عن مرمى هذا الكائن المستفز.

توقف قبل تخطيه كنان، وسأله بفضول:

– هل تعرفها؟

هزَّ كنان رأسه نفيًا دون أن تفارق عيناه التحديق إليها باهتمام، أجابه أخيرًا:

– لا، هذه أول مرة أبصرها، إلا أن اسم ابن خالها مثير.

انحرفت عينا حمزة نحوها بفتور، وقال:

– انتبهتُ للاسم طبعًا، إلا أنه من المستحيل أن يكون لأحمد الجراح ابنة عمة على شاكلة هذه الـ..الـ.. اللسان.

اهتزاز طفيف، طفيف للغاية في كتفي كنان عبَّر عن ضحكة مكتومة، كالعادة حمزة يجيد جدًا التشريح والوصف، ألم يكن هو أول من أطلق عليه اسمه الخفيّ؟!

رد كنان في هدوء:

– سأوصلها إلى أقرب مكان آمن ثم أتبعك.

– سأعود لحماية المنزل والأسرة مع الشبان، نحتاج إلى كل ذراع متوفر.

هز رأسه سامعًا خطوات ابتعاده في الشارع الخالي، الذي أُغلق في وقت سابق وأُخلي بأمر حكومي إسرائيلي، رغم أنهم لا يملكون سلطة حقيقية على المكان حسب تقسيم الأمم المتحدة المتفق عليه منذ زمن، فهذه المنطقة تحت سلطة مدنية وعسكرية فلسطينية (المنطقة أ)، إلا أنهم منذ متى يحترمون اتفاقيات؟ ما يريدونه يأخذونه، ومن يرفض فمصيره واحد وحتمي (الموت حرقًا).

جفل جسده الضخم بقوة، ورغمًا عنه أغلق عينيه محاولًا السيطرة على ذكرى مرت بعقله، لقرية كاملة أُحرقت بين ليلة وضحاها، فتحولت لركام اختلطت فيه جثث أهلها بتاريخهم، رماد ما زال يكتم أنفاسه ويعدم حاسة الشم لديه إلا من رائحة واحدة، رائحة لحم جده الذي مات دفاعًا عن شرف أمه، وفداء لفرار أبيه بهم.. أبوه الذي تحول لبقايا إنسان أضاع أمانته وشتتهم!

– هل أنتَ بخير، هل أُصِبت، أتحتاج إلى مساعدة؟

الصوت الأنثوي الفضولي أخرجه من ذكريات يحاول دحرها، إلا أنها أكثر وجعًا من أن تنصاع لجدار العقل الذي يحاول عزلها، لملم نفسه سريعًا وهو يعقد ذراعيه على صدره، فتح جفنيه محدقًا مباشرةً إلى التي اقتربت على بعد خطوات، ثم قال بلكنة أمريكية سليمة لا يوجد بها خلل أو تعثر معتاد وطبيعي لمن يتعلمها بجانب لغته الأم، لكنة وصلت إليها بحروف واضحة أدهشتها، إذ يفترض بمن ينطق بهذه الطلاقة أنه عاش في أمريكا وتشربها من داخلها مباشرة:

– والآن يا سيدة، ما الذي أتى بكِ لأراضينا؟ وكيف لم تحصلي على حماية بلدكِ المزعوم؟ ما أنا متيقن منه أن مَن يحمل جنسيتكِ يكون هناك ليصور ما يجري من وجهة نظرهم.

قالت مدافعة لاتهام أغضبها:

– أنا فلسطينية الأصل، وأمريكية المولد، ومن حقي العودة لبلادي، أم أنك تحمل بداخلك شيئًا ضد الغرباء؟

قال بهدوء:

– أنا لا أحمل ضد أي إنسان مشاعر سلبية، إلا الغرباء منهم كما وصفتِ نفسكِ.

قالت بنزق:

– لا تأخذ الكلام ضدي، قصدتُ مَن يُولد في المهجر وينشأ فيه.

قال:

– الأمر أنكِ -كما وضحتِ- لا تلقين الوصف عبثًا، فكان أول تفكير للدفاع عن نفسكِ ذكركِ بأنكِ مواطنة أمريكية، ولم تفكري مرتين في دفع الاتهام بأنكِ تحملين هوية عربية.

قالت سريعًا بعبوس:

– الهوية العربية ليست جريمة لأتنكر لها.

للحظة لم يردَّ سامحًا لنفسه أن يتأملها بشمولية منقادًا لخاطر عجيب وإحساس أعمق من أن يصده، قامة متوسطة ممشوقة، وجه طويل بصفة محببة خلابة، لا هو مستدير ولا منحوت، أنف رغم صغره فإنه بأرنبة مرتفعة تفصح عن ثقة كما نظرة صاحبته، وشعر بقصة صبيانية، وأخيرًا عينان بلون القهوة المحترقة، تبادلانه التفحص دون تنازل، فيهما التمرد والقوة كفرس جامح غير قابل للترويض، تناظرانه كعيني ظبي هارب.

حزام من الأشواك التف حول صدره وهو يحدق إليها برهبة إدراك التشابه.

عندما تكلم أخيرًا.. كان صوته فيه خشونة وهجوم، وكأنه صُدِم بأمر ما أو انعقدت لديه ذكرى مرفوضة معها:

– إلا أنكِ لا تملكين تلك الهوية لتدافعي عنها أو تتفاخري بها، صحيح؟

شحب وجه جفرا، للمرة الثانية وخلال دقائق قليلة كان هذا الشخص ينال منها مصيبًا إياها بالخرس النادر، لقد أصاب كبد الحقيقة، أليست بنفسها تعترف بأن سبب قدومها هو البحث عن هوية ترضيها بدلًا من تخبطها خمسة وعشرين عامًا بين أرض مكتسبة وماضٍ وإرث أبى كلا والديها أن يكبلاها به، فأنتج ذلك التنازع فتاة مذبذبة بين المقبول والمرفوض، بين والواقع والسراب.

– أنتَ، كيف تجرؤ؟

تمتم ببرود:

– أجرؤ على ماذا؟ لقد تنكرتِ بنفسكِ.

كبحت غضبًا استعظم وتفاقم بداخلها:

– أين نحن؟ أريد العودة للمخيمات.

قال في نفسه: «إذن هي بالفعل قريبة أبي الجراح، كيف، ومن هي؟!».

حرر ذراعيه المنعقدتين ثم قال وهو يمر من جانبها متخليًا عن النظر إليها:

– اتبعيني.

اندفعت تجاوره دون تردد وقالت:

– ولماذا أتبعك؟ أيخيل إليكَ أني جاريتك؟

هزَّ رأسه بيأس ثم قال بتهكم:

– بالتأكيد تعلمين أن النساء لدينا مجرد جوارٍ، وإسرائيل الحبيبة تحاول تحريرهن منا كما كل امرأة شرقية.

تأففت جفرا بنزق ثم قالت:

– مالي أنا ومال صراعكم الأبدي؟ اطمئن من تلك الناحية، أنا أعرف تمامًا أن الدين اليهودي لا يحترم المرأة إطلاقًا، بل يعدُّها كائنًا ناقصًا بلا عقل ولا حقوق، أي إن الديانة المحرفة نفسها تقول إن المرأة أقل من مرتبة الحيوان.

التفاتة بسيطة مع حاجبين منعقدين بتسلٍّ مرِح هو كل ما أخذته منه، سأل:

– وماذا تعلمين أيضًا، يا حاخام زمانكِ؟

أخذت جفرا نفسًا طويلًا بصبر وقالت بهدوء:

– أنا مسلمة على فكرة.

قال برزانة ثقيلة:

– تلك النظرة العنصرية لا ننظر بها إلى أحد في هذه الأرض، فمَن دافع عنكِ مثلًا وعرَّض نفسه للخطر دون تردد، فيهم المسلم والمسيحي.

قالت بلهجة لاذعة:

– لم يكن فيهم اليهودي، وإلا كنتم قتلتموه.

لم تستفزه، فهو شخص من الصعب جدًا إشعال غضبه، قال شارحًا أمرًا واقعيًّا:

– إذا كان صهيونيًّا فسأكون أول من أقتله وأخرجه من أرضي التي لا ينفك يسيطر على كل شبر منها، أما إذا كان فلسطينيًّا من الديانة اليهودية كمن يسكنون الجبل منذ سنين وقرون عدة ويرفضون الانصياع للكيان، فسأدافع عنهم بدمائي دون تردد.

لمعت عيناها بفضول واستغلال.

هذا هو يا جفرا، لقد ملكتِ واحدًا منهم، شاهد عيان للأحداث، فاستغلي الموقف وخزِّني كل ما تستطيعين الحصول عليه منه، قفزت في خطوتين رشيقتين حتى أصبحت تواجهه، وقالت بعملية:

– إذن.. أنت تعترف ضمنيًّا أن هذه الأرض ملك لهم وحدهم كما ورد في النصوص التوراتية منذ العهد القديم.

ثبت كنان مكانه وقال بصقيع:

– هل ترمين للعهد الإلهي الذي يتغنون به: «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالًا وجنوبًا شرقًا وغربًا، لأن جميع الأرض التي ترى أعطيها لك ولنسلك إلى الأبد»؟

توسعت عيناها باهتمام وقالت بلهفة:

– نعم هذا هو، فالنصوص واضحة وتاريخية لا نستطيع إنكارها، فالوعد كان لإبرام...

نظر إليها بعنف متوهج مصححًا:

– اسمه نبي الله إبراهيم.

لم ترُد على الفور، بل استمرت حرب النظرات بينهما أقوى وأعنف، حرب إثبات تاريخ وقوة إرادة.

قالت ببطء:

– النتيجة واحدة وقد أقررت بنفسك بالوعد، كما وعدهم بتوريثه من نهر مصر لنهر العراق.

ضحك ضحكة سوداء، ضحكة تحتل فم كل إنسان هنا، علها تطبب ألم التاريخ وتخفف وجع ضياع أبناء كثيرين مثلها.

«تُرى هل شوهوا عقل حبيبته، فزرعوا تاريخًا كاذبًا ودينًا أجوف في عقول نسائهم كالتي أمامه؟»

رفعت ذقنها وقالت من بين أسنانها:

– كما توقعتُ، ليس لديك ما تدافع به أمام الحقائق سوى السخرية.

انقطعت ضحكته كما بدأت، ورفع ملامح قاتمة ناظرًا إليها بمقت أوجعها دون سبب، وقال:

– لا، أنا أعترف، ولن أدافع بل سأخبركِ أيضًا أن هذه الوعود تكررت لإسحاق ويعقوب، واستنادًا إلى كل هذه الوعود الإلهية، هم أتوا إلى هنا، إذ إن فلسطين من حقهم وحدهم على أساس أنهم شعب الله المختار.

صمتَ لبرهة أمام وقفتها الجامدة وأكمل ساخرًا:

– إذا كانوا هم شعب الله المختار، لماذا تشتتوا منذ البداية يا ترى؟ لمَ رب العباد لمْ يخلق كل سكان الأرض من اليهود فقط، أو حتى أسكنهم مع الملائكة في السماء؟ امم لحظة.. هم بالأساس لا يعترفون بأي ديانة أخرى، الإسلام والمسيحية على حدٍ سواء مجرد ديانات ملحدة.

أشاحت بوجهها لأعلى وكتّفت ذراعيها وهي تقول ببطء بارد:

– تحلَّ ببعض الأخلاق وناقشني بتحضر بعيدًا عن الهمجية.

التوت شفتاه في سخرية دامية ثم قال:

– نحن همج، ألم تتعلمي هذا في الولاية التي كبرتِ فيها؟ آه مهلًا، نسيت أن الدراسة هناك بالفعل لا تتطرق رسميًّا لتوصيف عِرقي، إلا أنه لا بأس إن دخل إليك مدرس منمق وسيم تسبقه الرائحة العطرة، علها تشتت عقلك عن الحقد والخبث الذي يفوح منه ولا يزول، يحاول إقناعك أن قومك مجرد همج أتوا من الصحراء، وأن دينكِ مجرد دين سيوف ودماء.

أخيرًا تحول الحوار للعربية وهي تقاطعه قائلة بصقيع:

– بالنسبة إلى إنسان حاقد عليهم أنتَ تعلم الكثير.

التوى فمه بسخرية أوضح:

– تحتاجين إلى أكثر من هذا بكثير لاستفزازي، يا مجهولة الاسم والهوية.

سكن السخط ملامحها وهتفت بغلظة:

– وأنت أوصلتني سريعًا ومن مرة واحدة لهدفي، بأن ما أعرفه هو اليقين.

كانت عيناه المظلمتان تنظران إليها في حداد عجيب وكأنه يرثيها، لا بل يرثي إرثًا عظيمًا، وقال بخفوت:

– إن كانت هذه الأرض قد وعدوا بها فعلًا، ولهم حق فيها كما يدَّعون، إذن دعيني أتشرف بمنحكِ أول دليل من قلب حجتهم ينسف هذا الهراء.

زمَّت شفتيها وهي تقول بوقاحة:

– لا تخبرني بشعارات فارغة بِتُّ أحفظها من كثرة ما ردَّدتموها.

كانت يداه تقبضان جانبه بعنف مكبوت، إلا أنه قال:

– لا شعارات، إن كانت هذه الأرض ملكهم بوعد رباني لخليل الله إبراهيم، فإذا فندنا جيدًا هذه الوعود التي أشك بأنها حُرِّفت، لكن تبقى الحجة القوية أنها وُرِّثت لنسلك، أي للعرب من مسلمين ومسيحيين بِعَدِّهم من نسل إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم من هاجر المصرية، التوراة نفسها أكدت هذا بآية واضحة في سِفْر التكوين، لأن إسحاق يدَّعى أن له نسلًا: «وابن الجارية أيضًا سأجعلك أمة لأنه نسلك».

سخرت بوقاحة:

– يبدو أني لست حاخامًا وحدي، ها أنت تحفظ التوراة.

قال كنان ببرود:

– لِتهزم عدوك عليك أن تعرف نقاط قوته قبل ثغرات ضعفه.

ردت سريعًا:

– إلا أنك تعتقد أنها مُحرَّفة بالنهاية، وهذا ليس دليلًا قويًّا، أو دعنا نقُل: إن كانت الأرض إرثًا للأبناء.. فهي لجميع الديانات، فإبراهيم أب لجميع الأنبياء.

صحَّح بغلظة مكررًا:

– نبي الله إبراهيم، نعم بالطبع مُحرَّفة، وإن لم تكن فدعيني أخبركِ بأني مقتنع برأيكِ، هذه الأرض حق مكتسب منذ التاريخ لكل ديانة سماوية بوركت بها، إلا أن اعترافي هذا يقابل بالنكران منهم، أنا أخبركِ أنها للجميع في حين أنهم يتبجحون بالقول بأنهم يملكون التوراة، وشعب التوراة يجب أن يملك هذه الأرض دون غيره، أي إننا نحن يجب أن نُباد ونُمحى لصالحهم.

اهتز شيء داخل عينيها لم يفهمه، قالت:

– في أمر الإبادة لا أستطيع مقارعتك، ولكن هذا انتهى...

قال كنان بذهول:

– انتهى! هل تمزحين.. أم أنكِ عمياء القلب؟ كيف لكِ أن تنسي الاعتداء الوحشي الذي كنتِ على بعد فرقعة إصبع منه منذ مدة قصيرة؟

انتفضت بعمق وهي تشيح بصرها عنه وقالت متجنبة الرد:

– لقد وصلت إلى هنا لأبحث وأعرف يا كنان، لا تلقِ أحكامك جزافًا.

هل هو من يطلق أحكامه الآن؟! ما مشكلة هذا الكائن العجيب الشبيه بالظبية الشاردة؟!

ضيَّق ما بين عينيه وهو يقول بتؤدة:

– من أجل أبحاثكِ تلك، ولدحر نظريتكِ ونسفها، أريد إخبارك بشيء أخير.

تمتمت دون النظر إليه:

– ما هو؟

أردف وهو ينقل خطاه بعيدًا عن مرماها متابعًا طريقه:

– الحجة الدينية لديهم ضعيفة للغاية، ليس من أجل تفسيري السابق فقط، بل ليس كون الشخص يهوديًّا يعني أنه انحدر من أصل سام أو من صلب إبراهيم مثل العرب حتى يشملهم الوعد الديني، فكثير من علماء الأجناس والسلالات برهنوا إخفاق ادعاء الجنس اليهودي وخرافة نقاء قوميتهم، فهم منذ ألفي عام أو ما يزيد اختلط جنسهم عن طريق الزواج وغيره بأجناس أخرى، وبعضهم اعتنق اليهودية أو بالأحرى الصهيونية التي ابتُلينا بها.

تبعته راكضة خطوات محاذية له وحاورته بعملية:

– تقصد أن الدليل القوي على كلامك هو تعدد أشكالهم؟ إذ إنك لن تجد داخل هذا الشعب واحدًا يشبه الآخر!

نظر إليها بطرف عينيه والتسلية تعود تغمر روحه وقال:

– نعم.. فهناك القوقاز، ويهود مالابار والفلاشة الأثيوبية، والمثال الأكبر هو اعتناق ملك جزر بولان ديانتهم، وكما تفضلتِ أنتِ وقلتِ.. إن هذا يظهر من أشكالهم الجلية الخارجية المختلفة في لون البشرة والعيون وشكل الجمجمة والأنف وغيرها.

صمت لبرهة وتوقف يواجهها من جديد، فحذت حذوه، وأردف:

– أو كما تواقحتِ قبلًا وأنتِ تسبِّين الجندي بجهل نسبه.

رغم احمرار وجنتيها خجلًا فإنها لم تتنازل متمتمة بقرف:

– وهل سبَبْتُه ظلمًا؟ إنه مجرد نغل كما قادتُه.

ارتدَّ وجهه للوراء بصدمة وهو يحدق إليها، وقاحة هذا اللسان ليس لها آخر، هذه الفتاة لا تتورع في التنابي، «نغل!».

قالت بثقة:

– نعم، وهذا يدعم نظريتك وينسف نظريتهم، أنا مثلًا من مجرد مظهري الخارجي عرفت أني أنتمي إليكم، كما حمزة وأنت وأحمد ورُفيدة، بسهولة تستطيع الجزم بأننا عرب، أما هم فحتى لغة قومية واحدة لا تجمعهم، أنا أعرف أن معظم من يدخل الأراضي المحتلة على أساس أنه يهودي لا يتكلم العبرية.

ضيَّق ما بين عينيه وقال ببطء:

– بغض النظر عن وقاحتكِ، أنتِ في أي جهة بالضبط؟!

قابلَه الصمت مرة أخرى، عدى عن تحريك حلقها تحريكًا حادًّا، واهتزاز حدقتيها، قالت أخيرًا بنبرة كأنها آتية من عمق الجحيم:

– أنا لا أعرف، ربما أحفظ اسمي، أتغنى مثلك بأطلال عنترية حفّظها لي والداي، ولكن النهاية الجارحة أني أجهل تمامًا في أي صف أنا.

معاناتها لم تصل إليه رغم تفهمه، ألم يكن هو وأخواته من ضحايا التشتت وتشويه القضية والدين مثلها؟ لمْ يُشعرها، لأنها ملكت بالنهاية أبوين حاولا توجيهها للاتجاه الصحيح، ولكنه وحبيباته لم يمتلكوا أي اختيار قبل دمارهم، قال أخيرًا بجمود:

– صف الحق.

– وكيف أبحث عن هذا الحق؟

– الحق بيّن لا يحتاج إلى البحث عنه.

– وماذا إن ضُلِّلنا وتشوشت الرؤية أمامنا؟

قال بتروٍّ:

– كونكِ تعرفين أنكِ مُضلَّلة فهذا نصف الطريق لتصلي إلى غايتك.

كانت تحدق إليه باضطراب، لا تفهم بعد ما الذي يجري معها، منذ متى باحت بِعِلَّة صدرها؟ الإجابة أبدًا، فكيف لها أن تبوح بأريحية لرجل تحدثه لأول مرة؟ ربما لأنه غريب لا يعرفها، ولا تهمها نظرته لها أو ما قد يفكر فيه عنها، قد يبدو تحليلًا منطقيًّا، ففي بعض الأحيان يصبح رفيق الطريق هدفًا جيدًا كي نبوح له دون أن يلقي اتهامات أو نصائح لا نحتاج إلى سماعها.

قالت:

– ربما تكون محقًّا، ولكن يبقى الشك الذي يأكل كل أُسُسك وثوابتك.

قال مبتسمًا:

– من الشك يأتي اليقين، كل القوانين البشرية وحتى الدينية بدأت بالشك.

ابتسمت ملامحها وهي تقول مازحة:

– أنا أشك؛ أنا موجود.

قال في لهجة واثقة صارمة:

– بل أنا موجود، وإن احتواني تراب هذه الأرض سأظل موجودًا إلى قيام الساعة، هناك بديهيات لا تقبل الشك أو التأويل يا لورين!

انمحت ابتسامة جفرا ببطء وظلٌّ أسود يغيم على رأسها في شعور مستنكر! قالت:

– لورين!

ارتبك، وكانت هذه الارتباكة بادرة لم تتوقعها، قال سريعًا:

– إنها.. أعني جدالكِ يذكرني بإحداهن.

قالت بتردد:

– هل.. يمكنني السؤال من هي؟

رد سريعًا مجفلًا إياها:

– لا.

ثم تراجع خطوة يمد يده نحو ممر ضيق مباشر، وقال:

– وصلنا، من هنا تستطيعين العودة لبيت الجراح بسهولة، وداعًا.

استدار فأتاه صوتها سريعًا تأمره بغضب متمرد:

– انتظر.

لم يجبها، فاندفعت نحوه ودون تردد.. طرقت بيدها على ظهره في محاولة لإيقافه، وما لم تتوقعه أن تجد يدها في لحظة تطير في الهواء معلقة لأعلى وعينان حمراوان كالجحيم ترسلان إليها تهديدًا مرعبًا، قال بتشدد:

– احذري، هنا ليست أمريكا، وأنا لست من يؤمر أو يخضع لفتاة مدللة وسليطة.

كالماء البارد كان وجهها:

– لماذا قدَّمت مساعدتك إذن وتخليت عن رفاقك؟

حرَّرها دافعًا كفها بعيدًا، وعاد يوليها ظهره دون أن يمنحها شرف التفسير.

قالت:

– اسمي جفرا يا كنان.

نظر إليها من فوق كتفه ثم قال باستخفاف:

– لم أسألكِ، إلا أنه واجب عليَّ إخبارك أنه لا يليق بكِ.

وكأنه ضغط على زناد سلاح ناري، إذ إنها لم تفكر مرتين وهي تنحني لتلتقط حجرًا صغيرًا وتضربه نحوه مباشرة، أطلق كنان صوتًا متألمًا من هول الصدمة، ونظر إليها بعدم تصديق:

– هل ضربتِني بحجر؟

قالت بغضب:

– أنتم نعم المُعلِّم، أم ربما هو جين ما يولد معنا، يعلمنا أن سلاحنا الوحيد للدفاع عن النفس هو الحجر يا نجار القرية المسالم.

التوى فمه بشبه ابتسامة لا تمت للمرح بصلة، ثم اندفع نحوها في خطوتين تهديدًا، وكأنه ينوي الإمساك بها وتخليص البشرية منها، تراجعت بذعر للوراء، ولكنه لم يفعل كما توقعت، وما تجهله هي أنه مهما فعلت لن يجرؤ يومًا ويمس طرفها، ولكن إن كانت تجهل حميَّتهم –وهذا الأمر يخيفها– فليتلاعب بأعصابها قليلًا، قال مهددًا:

– أنتِ لستِ فاقدة ركائزكِ فقط، بل وصَلِفَة أيضًا، أقسم بالله في المرة القادمة التي سأراكِ فيها وأسمع هذا الصوت الوقح سأغسل فمكِ بالصابون علَّ هذه القذارات تنجلي عن عقلك الصدئ.

****

فور أن دلفت من الباب، تواجهت مباشرة مع والدتها ورُفيدة التي اندفعت تقبض على ذراعها تجرها صارخة:

– هل جننتِ؟ تذهبين لخط من خطوط النار وحدكِ، دون أن تستشيري أحدًا أو تأخذي حماية؟

مطت شفتيها بلا مبالاة وقالت:

– من أخبركِ؟ دعيني أخمن أول حرف من اسمه.. كنان، متى وجد الوقت؟

هزتها قائلة بغيظ:

– كنان أو غيره لا يجرؤ أن يهاتفني، إلا أن فعلتكِ العظيمة وألفاظكِ السوقية التي لا ترقى أبدًا لامرأة، انتشرت كالنار في الهشيم على مواقع التواصل.

هتفت بغيظ:

– تبًا!

صرخت رندة

– جفرا كفى، لماذا تفعلين بي هذا؟ أتلك خطة لتدفعيني إلى العودة بعيدًا عن أرضٍ تبغضينها؟

بهت الوجهان المقابلان لرندة، أحدهما غضبًا، وهو وجه رُفيدة التي نفضت يدها مبتعدة عنها خطوات محدقة إليها بشرر، في حين كانت جفرا تنقل وجهها بينهما باضطرابِ مَن يريد أن ينفي التهمة عن ذاته، ثم قالت أخيرًا بخفوت:

– صدقًا يا أمي، لم أعتقد أن الوضع متأزم لهذا الحد، فما سمعت عنه وما وُصِف لي شيء، وما رأيته بعيني كان أمرًا آخر أشد فتكًا.

جلست رندة على مقعد من خشب الأرابيسك القديم، ثم قالت بنبرة حزينة تشق صدر من يسمعها بالوجع:

– لقد عشتُ حلم العودة طويلًا جدًّا، من أجل خاطر واحد تعرفينه يقينًا، وحين تحقق بطريقة منقوصة.. أوجعتِني وأثرتِ الشجن والمرار، ها أنتِ بأفعالكِ تحاولين سلبي حلمي.

اقتربت جفرا بحذر دون أن تغفل عن منح رُفيدة نظرة اعتذار صامتة، ثم جلست على ركبتيها تحت أقدام رندة وأمسكت بكفيها تشدد عليهما مؤازرة وقالت:

– لم أقصد أن أتسبب في جزعكِ أو أن أثنيكِ عن قراركِ للبقاء بوطنكِ، ولكن هذه وظيفتي يا أمي، شغفي الذي نمَّاه والدي خصِّيصًا لأجل هذه اللحظة، أليس هو من دفعني إلى دراسة الصحافة لأكون صوتًا حرًّا يدافع ويجاهد بسلاح القلم لصالح القضية؟

تأوهت رندة بعذاب وهتفت بلوعة:

– وكيف تدافعين عن أمرٍ لا تعترفين به؟

قالت متوترة:

– الآن فهمت، الصورة بدأت تتضح شيئًا فشيئًا، والإيمان أوشك أن يتغلغل في جدار قلبي وينيره.

حررت رندة كفيها ثم أحاطت وجه ابنتها بحنان تناقض مع نبرتها الملتاعة قائلة بحسرة:

– أنتِ كل ما تبقى لي، كما أني كل ما تملكينه، إلا أنكِ تعلمين جيدًا ما دفعته ثمنًا لأدخل أرضي كالغرباء، حتى حق العودة حُرِمت منه، حق الهوية الخضراء رَفض الكلاب منحه لي كما كل نازح ومهجر من أرضه، ربما قبلتُ أن ندخل أنا وأنتِ كالغرباء متنازلةً عن هوية فلسطينية أحملها، ولكني فعلتها بعد أن يئِستُ من العثور على أخي الوحيد في كل بقعة من الأرض التي يرحل إليها قومنا، لا تقفي حائلًا بيني وبين حلمي يا جفرا، فالوقت الذي مُنِح لي للبقاء هنا قصير، وكل ما أرغب فيه هو ضم أخي -الذي ربما يكون متخفيًا هنا أو هناك داخل أراضينا- بين ذراعيَّ.

أومأت جفرا دامعة العينين سائلة بخفوت:

– ألم يخبركِ ابن عمكِ أي معلومات جديدة؟

ابن عمها الذي بقي هنا ولجأ لمخيم بالداخل بعد المجزرة والإبادة التي تعرض لها كل سكان قريتها الهادئة، والتي راح ضحيتها والدها أمام عينيها كما العديد من الأطفال والنساء والأشداء، وهربت هي ووالدتها للأراضي اللبنانية التي ضاقت بهم ذرعًا، فرحَّلوهم عبر منظمات الإغاثة إلى أمريكا، وهناك عانت هي ووالدتها الراحلة حتى قابلت زوجها الذي كان ضحية نزوح آخر، أما عن أخيها زكريا فهو اختفى تمامًا يوم العدوان عليهم بعد أن سيق هو وعدد كبير من الشبان والصبيان للأسر، إلا أنها طوال كل هذه السنوات تبحث عنه في الخارج، وتخاطب جميع الجهات، ربما ما زال داخل سجونهم، كما أن ابن عمها إسماعيل لم يترك مدينة أو قرية لم يبحث فيها عن زكريا.. ولكن لا أثر، وكأنه لم يُوجد على هذه الأرض قط.

– لا، لم يفعل بعدُ يا جفرا، إلا أني أتعشم في قلب أخي أن يشعر بأني هنا وعدت قريبة منه، فيرغب في الظهور أخيرًا ليطمئن قلبي.

ابتسمت بشجن هي وجارتها رفيدة:

– تُرى كما عمره الآن؟ هل هو وسيم مثل أمي الجميلة؟

ضحكت رندة حزنًا ناطقة بألم:

– هو الأصغر، أي إنه في الخمسين من عمره الآن، ونعم.. زكريا كان الأجمل بيننا، رغم ساقه التي فقدها وهو يحاول الهرب مع أخينا الأكبر الذي قُتِل بقذيفة ألقيت على مدرسة قريتنا قبل تهجيرنا بخمس سنوات.

صمتت لبرهة تغلق عينيها بتشدد، وكأنها تحاول كبح دموع الذكرى، إلا أنها لم تستطع، فقد شهقت في بكاء شديد وعويل لم توقفه كلمات جفرا الملهوفة ولا يد رُفيدة المعزية.

ومَن قد يملك القدرة على تقديم التعازي لموت يهز قلوب الأحياء ويقضّ المضاجع لفؤاد ولد داخل الحزن الأبدي؟!

******

– من الواضح أن «الكابتن الجديد» وضعك في رأسه.

قالها أحمد في هدوء شديد، وهو يناول كنان قدح القهوة التي أعدها على النار التي يلتفون حولها جالسين أمام المنزل بغرض الحراسة وطمأنة سكانه بعد نوبة الهلع المعتادة التي تعرضوا لها في السويعات الأخيرة.

التقط كنان حجرًا من جانبه ورماه نحو شجرة، والتقط الكأس وقال:

– جدي كان يحب شجر الزعرور، إلا أني كنت ألتقط معظم الثمار قبل نضجها، ورغم غضبه على والديَّ كلما فعلوا ذلك، فإنه لم يلُمني يومًا، بل يربت على كتفي ويقول لي: اشبع وتدلل في عز جدك قبل أن يثقل كتفيك الهم الذي يصاحبكم منذ ولادتكم.

ظهرت الحيرة على وجه أحمد، فكنان لم يتطرق يومًا لماضيه، دائمًا ما كان ماضيه منطقة محرمة السؤال فيها أو العبث بذكرياتها.

ارتشف كنان بعضًا من كوبه وهو ينظر إلى النار بشرود معاكس للجحيم الذي تفاقم داخل عينيه القاتمتين وقال:

– كلماتٌ وقدرٌ ألقاهما فوق ظهري، ربما تكهن.. وربما هو شَحْنٌ لمصير لم نتوقعه.. أن يصبح هذا الأمر واقعًا أُرمى فيه باكرًا.

كان حمزة في هذه الأثناء قد أتم دورة أخرى داخل المنزل وحديقته مع بعض الشباب، جلس بجوارهم وهو يسمع أحمد يقول بهدوء:

– هل هذا المصير يخص ماضيك الذي ترفض الإفصاح عنه، أم له علاقة بذلك الرجل الأمريكي الذي زارك منذ أشهر وخرج من عندك مكسور الخاطر والهامة؟

رفع رأسه بحدة ناطقًا بصوت قاتم:

– يبدو أنه ليس كابتن عِزرا فقط من يضعني في رأسه.

قال أحمد بخفوت:

– دائمًا ما كنتَ شخصًا محيرًا وصامتًا، فاعذرني إن استغللت الفرصة التي أتحتها بمحض إرادتك لأرضي فضولي.

ابتسم بنوع من العصبية ولم يعلق، وكأنه يأخذ برهة من الزمن حتى يتعاطى مع الأمر ويُظهِر الوجه الهادئ المعتاد، سمع حمزة يقول وهو يفرك يديه ثم يمدهما فوق النار بغرض التدفئة:

– كنان ظاهره كباطنه، ليس لديه أي أسرار يا أبا جراح، اعتدناه منذ أتى، رجل في حاله لا يُقحم نفسه في المشكلات.

صمت لبرهة ثم رفع رأسه فجأة يتأمله بغموض مريب وقال:

– ولكني أتعجب من موقفه الفدائي المفاجئ، جاذب أنظار الكابتن.

حدق كلاهما إلى وجه حمزة لدقيقة قبل أن يقول أحمد بجمود:

– لم يدخلوا القرية ويعيثوا فيها فسادًا بهذا الشكل من قبل، لا يحتاج كنان إلى أن يكون فدائيًّا لتثور حميته.

قال حمزة بخبث:

– ولكن الجميع يعرف مكانة الشهيد أنس عنده، لقد كان أقربهم له.

لم يردّ كنان أيضًا، بل ظل صامتًا وواجمًا، في حين سمع أحد أصدقائهم، يُدعى (إيليا حنا) يقول بغضب مكبوت:

– حمزة، نُقدِّر وقوفك الدائم، ولا أحد فينا يُقلل من دورك وشهامتك، ولكن اترك كنان ودوافعه وماضيه وغموضه لحال سبيله، ما الذي يعنيك معه ويجعلك تطارده متخفيًا إلى هذا الحد؟

رفع حمزة يديه في دفاع، ثم قال ضاحكًا بتوتر:

– مهلًا.. نحن نتحدث لا أكثر، لِمَ كل هذا الهجوم المفاجئ يا رفاق؟!

قال كنان سريعًا مصححًا:

– نحن لسنا رفاقًا يا حمزة، بل مجرد شباب لديهم نخوة ليدافعوا عن من يستجير.

قال حمزة بصوت حاد:

– لا أعترض على الكلام، إلا أن وجود أنس أمام منزله غارقًا في دمائه قُبيل الفجر، وبعدها مباشرة اتهام السلطات الإسرائيلية له، يثير الشك، دعونا نكُن واضحين، ونعترف أن الحق معهم، يوجد المزيد من الانتحاريين يحومون في المكان.

هتف كنان محذرًا من بين أسنانه:

– حمزة!

سبق السيف العذل، ودخل الشك في قلوبهم ناحيته عندما قال أحمد مهاجمًا:

– منذ متى تتحدث مثلهم؟ هل مَن يدافع عن أرضه أصبح بالنسبة إليك مجرد انتحاري؟ وكأنك لم تعرف المهندس أنس قط!

قال حمزة بسخرية:

– أنا أستخدم كلماتهم حرفيًّا، لسنا في محطة إعلامية، لتصيغ الأمر بكل هذه الدفاعية التي تستخدمها أستاذ أحمد.

قال أحمد بصوت مكتوم:

– إذن.. دعنا نكُن أكثر وضوحًا، أنا حقًّا لا أرتاح لوجودك في أي مكان يجمعنا، وأشكُّ...

قاطعهم كنان وهو ينتفض من مكانه قائلًا:

– كفى جدالًا، هذا لا وقته ولا مكانه.

وافقه إيليا سريعًا وهو ينظر إلى حمزة بقرف، ثم قال:

– المستوطنون وجدوها حجة، وعادوا ليهاجموا دكان العم سليمان من جديد، حتى إنهم اليوم دخلوا إليه وكسروا كل الزجاج، ودعسوا بضائعه على الأرض.

أغلق كنان عينيه وهو يهمس باستغفار متضرع ودعوة داخل القلب بأن يرحمهم الله، متسائلًا: متى وعده الحق بامتلاكهم القوة ليحاربوهم فيقتلوهم من وراء الحجر والشجر؟!

– عم سليمان اعتاد الأمر منذ أعوام، وما زال عند رأيه، لن يبيعه لهم ولو وزنوا كل جدار فيه من الذهب.

قال الجراح بعصبية:

– إلا أن جاره قد باع وفرّ هاربًا لأمريكا.

ضحك كنان بسخرية سوداء وقال:

– نحن بشر، فينا الصالح والطالح، شعب كأي شعب.. هناك من يتمسك ويكون من الرابحين، وهناك من يبيع نفسه وأرضه وعرضه والقضية كلها، ويصبح من الخاسرين لا محالة.

صمت قاطعًا كلامه قبل أن ينظر إلى حمزة قاصدًا وهو يقول:

– أليس كذلك يا دكتور؟

ارتبك حمزة قليلًا واهتز فنجان القهوة بيده:

– آه طبعًا مؤكد، هل أخبرتَ أحمد عن قريبته التي أنقذتها صباحًا؟

قطّب كنان متوترًا للحظة، عرف من الصفحات الاجتماعية، الأمر ليس بشيء عظيم للنقاش فيه.

عقد أحمد حاجبيه وهو ينقل نظراته بينهما، ثم يخص نظرته لكنان الذي بدا وكأنه يكره فتح الأمر أو البوح بما جرى بينهما.

وكم كان محقًّا، فهناك أمر جلل وشعور أغرب كان يموج داخل صدره رافضًا أن يصرح بكل كلمة ونظرة دارت بينه وبين تلك الظبية الصبيانية.

- هل تحدثت مع جفرا؟

ردد حمزة بقرف:

- جفرا؟ اسمها جفرا؟ بئس من منحها اسمًا كهذا.

هتف صوتان محذران:

- حمزة، الزم حدودك.

أحدهما كان طبيعي أن تثور حميته، أما الصوت الآخر كان غامضًا ومحيرًا.

عمّ صمت جزئي بين الأربعة رجال الملتفين حول النار، قبل أن يقف كنان من مكانه يوليهم ظهره، وقال بهدوء:

- إنها مجرد شابة ضُلِّلت، كما العديد من الأجيال، لن أنكر طبعًا أن بعضهم نجا من مجزرة الانتماء التي تعرضوا لها، إلا أن جزءًا لا بأس به وقع تحت التنويم المغناطيسي لإعلامهم وتاريخهم الزائف.

قال أحمد بعصبية:

- تتحدث وكأنك تعرفها.

إلا أن كنان لم يهتم، وقال دون أن ينظر إليه:

- ليس عليَّ أن أعرفها، يكفي أن أخبرك بأني فقدت ثلاثًا مثلها، ضِعْن بين فكي رحى التهجير والغربة، بين ثقافة حاولوا زرعها فيهنَّ واختطافٍ شرعيٍّ!

تعلقت الأعين على ظهره المتصلب، إلا أن أحدهم لم يجرؤ على أن يحثه على المزيد، وكما عادته المريبة.. كان يتنقل في الحديث، وإن لم يَحِد عن الدائرة وهو يقول شاردًا:

- أخشى أن الله قد أخرج هذا البلد من رحمته منذ زمن، أرتعب من فكرة أن تكون طالتنا لعنة الله الأبدية التي أنزلها على الأمم الغابرة مع كل نبي أُرسل إليهم.

****

كما توقع تمامًا، أو كما اعتادوا وتكررت الصورة النمطية، أناس يعانون داخل أراضيهم دون أن يجدوا يدًا واحدة تقدم لهم العون وتنجدهم، بعضهم مكتفٍ بالتنديد والآخر بالتغافل، أو تزوير الحقائق، لَكَمْ هو مؤلم أن تأتيك طعنة الغدر مِمَن تعشمتَ فيهم سنين أن يستيقظوا يومًا تدب فيهم الحمية العربية ليحملوا السلاح ويأتوا مُغيثين، ولكن كيف لنخوة وُئدت في وحل استلذت المكوث فيه أن تثور وقد رفعوا شعار (نعم للتطبيع، وليهلك هذا الشعب وأرضه)؟!

إطارات سيارات تحترق ويخرج منها دخان يغيم الرؤية، تراصت على الأرض كجدار عازل، بين فرقتين متناحرتين، أحدهما يضرب بدباباته وأسلحته المتطورة وكلابه البوليسية المدربة للمهاجمة، وعلى الناحية

الأخرى مقاتلون لا يملكون للمجابهة إلا زجاجات منزلية الصنع (مولوتوف) تعمل قنابلَ محدودة الضرر، إلا أنها تشعل الجنون والفوضى بالطرف الآخر، وبالطبع مع سلاح فعال كُتِب بأسمائهم وارتبط، بعزيمتهم منذ زمن طويل (الحجر).

وبالرغم من أنها مجرد حجارة صغيرة تدهسها أقدام الغادي والقادم دون أن ينتبهوا لها.. فإنهم جعلوا منها شعارًا ربما لا يحول إلا أنه أبدًا لن يزول.

عندما قدمت إلى هنا لم تتخيل مطلقًا في أعنف أحلامها أن تعيش الحدث الذي سمعت أنه مجرد ذكريات بعيدة ما عادت تحدث، وبأن الجميع يعيش في وئام معهم بل ويساعدونهم لدحر هؤلاء الانتحاريين، فما بالها اليوم ترى بأم عينها ما يدحر كل ادعائهم وينسف كل معتقد صدقته يومًا؟

ربما المشهد الذي تصوره بكاميرتها الشخصية الاحتياطية ليس بجديد، بل شعرت أنه من زمن آخر، ووقت مطعون لم تجرؤ على التطرق إليه، زمن ربما انتهى إلا أنه بالتأكيد هنا لا ينفك ويعود، ويتكرر بزيادة ودون نقصان، ها هي الأدخنة تتصاعد لتحجب الرؤية، شباب أشداء ومراهقون وشيوخ يمثلون خط دفاع متين يقذفونهم بأسلحتهم المتواضعة، فيُردّ عليهم بوابل من الرصاص الذي يهز الأبدان حتى الأعماق، فتيات ورجال يرتدون الزي الأبيض الطبي، يتوحد هتافهم وسعيهم وشجاعتهم فلا تفرقة بين المسلم والمسيحي بين أهل هذه المنطقة أو مَن أتى من قرى أو مناطق أخرى لفداء أرض واحدة والوقوف بجانب قضية الشرفاء بحق، لا يهم من يسقط فيهم فداء لهتافهم باسم فلسطين ليبقى عاليًا يرفرف في الأفق، ولا ينكس علمها ولا ينسى.

كم استمر هذا القتال بتلك الثورة في بؤرة انتفاضة أخرى تلوح في الأفق، إنها لا تذكر، ربما دقائق، ساعات أو أيام، حقًّا من فرط لهاثها وصدمتها فيما يتمثل أمامها، لا تعي وتستوعب إلا تدهور الأحوال بالاعتداء المتصاعد لاجتياح جنود الاحتلال للقرية المسالمة، فاعتقلوا البعض وأحرقوا وأزالوا منازل البعض الآخر، ناهيك بهجوم المستوطنين مستغلين فرصة تنجيس جنودهم حارات المكان، تارةً يطمعون في منزل أحدهم وتارة أخرى في محل بقالة، وحلمهم الأبدي هو أراضي الزيتون التي أصبح حلم وضع أيديهم عليها هوسًا.

حتى كانت نقطة النهاية بالنسبة إلى الجانب الفلسطيني عندما أحرقوا منزل تلك العائلة التي كانت تصور أحداثه منذ يومين، فقتلوا أحد عشر فردًا راحوا ضحية عبث مستوطن قرر ببساطة أن ساعة أجلهم قد حانت، وضاق ذرعًا من تمسكهم ببيت وأرض ليست من حقهم كما وعدتهم توراتهم وقيادتهم، فكيف يمنعهم منها مجرد شخص امتلكها بالتوارث منذ الأزل تقريبًا؟!

لا، هو مؤكد له كل الحق في حرقه حيًا داخل المنزل وكل أسرته التي لم يبقَ منها إلا الطفلة الرضيعة التي كانوا قد اختطفوها قبلًا!

صرخة رُفيدة الراكضة وهي تحمل بين يديها طفلًا لم يكمل أعوامه العشرة أفاقتها من تجمدها وذهولها الراصد للأحداث:

– جفرا.. تحركي، نحن نفقد الكثيرين، ونحتاج إلى كل يد تعرض المساعدة.

حررت كاميرتها منسدلة على صدرها، تبعت رُفيدة حتى تلة عالية أقيم فيها عدة خيام طبية، ولجت داخلها وهي ترصد الأسرة المتواضعة والموضوعة بجانب بعضها، والممتلئة بالجرحى.

وبهذه اللحظة بالذات عقلها رغمًا عنها عقد مقارنة مؤلمة حد النزف بين هذا الفتى الذي يربط عينه ورأسه المصابين بآخَر يماثله عمرًا يرتدي قميصًا خاليًا من الدماء، ويعتمر خوذة وهو يمارس رياضته المفضلة، أما تلك الطفلة المراهقة التي ربما ستفقد ذراعها التي يحاول الأطباء إخراج شظايا الرصاص منها دون نجاح يذكر، على الأرجح هناك في هذه اللحظة وببقاع عدة من الأرض، من تشابهها إلا أن ذراعها معلقة في حرير حتى لا تتسخ ملابسها بسبب استخدام ألوان الرسم.

– جفرا، عقمي يديكِ هنا، وناوليني ذلك المشرط.

اندفعت نحو ما أشارت إليه رُفيدة ببدن مسلوب وعقل مشوش وعينين تذرفان الدموع عاجزة عن كبحها، اقتربت أخيرًا برهبة تمنحها ما قالت، ورغمًا عنها أطلقت صرخة مكتومة وهي تبصر الفتى الصغير الذي غربلت صدره عدة شظايا من الرصاص.

همست بريق جاف:

– أنا.. لا أستطيع رؤية الدماء.

التفتت إليها رُفيدة بحدة قبل أن تقول بشراسة:

– إذن.. اخرجي من هنا ولا تعودي، سبق وأخبرتكِ.. هذه ليست أرضكِ ولا قضيتكِ.

تأوه الصغير، وبكاؤه جعلها تتصلب غير مبالية بالاتهام الذي ماثل سكينًا متلمة غرست بقلبها، جلست على ركبتيها وأمسكت يد الفتى بأنامل مرتعشة وهي تقول بنبرة وجع:

– لا بأس يا صغير، ستكون بخير.

كانت يدا رُفيدة تعملان سريعًا وبمهارة في محاولة لإنقاذه، وعيناها المظلمتان لم تنفكا عن رمق وجه جفرا بغموض، حتى سمعت الفتى يقول بتقطع ضعيف:

– لقد أتيت لأخذ حق أخي، هو طلب مني الثأر له من قاتليه.

رفعت جفرا كتفها بقلة حيلة وهمست بتحشرج:

– أي ثأر يا صغير؟ وكيف لك أن تقف في وجوههم؟

الإجابة بصوته الواهن كانت دامية، تكسر القلب المشتت:

– مجرد وقوفي في وجوههم يرعبهم، يجعلهم يدركون أننا باقون ولن نترك أرضنا، أما إن خفت وذعرت وبقيت جانب أمي، وقتها سيطمئنون أنهم ببلدنا ظافرون وقد مات رجاله.

مدت جفرا ساعدها تمسح غلالات دموعها وأنفها بحدة قبل أن تفلت شهقة أخرى من بين شفتيها، وقالت بصوت أجش:

– الحياة ليست عادلة يا صغيري، أبناؤهم ينامون قريري العين ليلًا، وصدرك أنتَ يغربله رصاصهم فينزف دمك فوق حقيبتك وكراسة رسمك.

كانت عينا الفتى تغيبان لينعزل عن عالم الأحياء، وقد وصل ألمه إلى مداه وسكنت روحه التي تحارب للخروج؛ علها عندما تسلم لبارئها وتشكو له تخاذل العالم أجمع ووحشية الرعاع قد تنال راحتها أخيرًا.

اهتز جسد جفرا أكثر وحركت يديه وكتفيه وهي تطلق صرخات أشبه بمن تلقى فاجعة لتوه، ولكن هيهات.

انحنى رأس رُفيدة على صدرها وكأنه كُسر، وفمها ينطق الشهادتين مطلقة لدموعها حق الرثاء مختلطًا باعتذار موجع، لقد خسرت روحًا أخرى للتو وارتقت لمنزلة الشهداء.

شعرت بعد برهة بامرأة غريبة أشرفت عليهم تغطي وجه الصغير بغطاء أبيض تلوّن بالدم الطاهر، وصوتها المجروح وإن اختلط فيه برودة تجمد الأوصال يقول:

– الحياة معركة لا نتوقف فيها عن القتال والأمل، هو وكل من سبقوه ومن سيلحقون به يدركون درسهم جيدًا منذ أول صرخة لهم في معتركها.

****

كان الوقت قبيل الفجر بقليل عندما ركنت جلستها على الجدار القماشي للخيمة الطبية تسمع أنّات المصابين، وتنظر متعجبة لصلابة بعض ذوي الجروح الغائرة، الذين يصرون على أنهم بخير وسيعودون بجانب الثوار عند جدار الإطارات المحترقة.

البعض مِمَن كانت حالتهم حرجة نُقلوا بسيارات إسعاف -بالكاد فيها بعض أجهزة الإنعاش- إلى المشافي، أما عن الشهداء فقد شُيِّعوا بعد أن كُفِّنوا بملابسهم وأعلام فلسطين إلى مقابرهم وسط بكاء أمهاتهم وزوجاتهم، وهتاف الرجال بالإيمان والصبر، والأمل في النصر.

– ما الذي تفعلينه هنا؟ أنتِ صحفية كما فهمت، لماذا لم تلتحقي برفقائكِ؟ ستحظين بأمان أكبر.

رفعت جفرا عينيها القاتمتين نحو الهيئة الأنثوية الغريبة، وإن كان بها شيء مألوف.. روحها ملموسة، تشعر وكأنها تعرفها منذ زمن ما، قالت أخيرًا بهدوء:

– لستُ هنا بصفة مهنية.

جلست المرأة فارعة الطول ووحشية الجمال جانبها بشكل لا يمكن التغاضي عنه، وقالت بلهجة باردة:

– قالوا إنكِ أمريكية، وهذا ما أستطيع لمسه بسهولة، إذن ما

حجتكِ للحضور في المكان إن لم يكن بدافع المهنة؟

لم تكن جفرا بالخصم السهل، لذا قالت في صقيع مماثل:

– وأنتِ غريبة أيضًا، لا تنتمين لهذه الأرض، وهذا ما استشفه الجميع وليس أنا فقط، فما الذي تفعلينه هنا؟

بدلًا من الغضب الذي توقعته، كانت المرأة تنظر إليها بهدوء وسخرية مغيظة ذكَّرتها بأحدهم! حدقت إليها عند هذا الخاطر ببعض التعجب ثم انحدرت عيناها على معطفها الطبي الأبيض تقرأ الاسم الذي علقته هناك في بطاقة بلاستيكية، فنفضت رأسها بقوة ناكرة خاطرها السابق وهي تسمع المرأة تقول:

– ضربة موفقة، إلا أنها غير صحيحة، أنا فلسطينية، لم أنسَ أو أنكر أصلي يومًا، وإن ملكت إجابة أخرى أكثر سهولة.

أشارت نحو البطاقة:

– أنا هنا بدافع ضميري الطبي، كما أني أملك التصريح بحسب تطوعي منذ زمن في الصليب الأحمر، أي وجودي قانوني ومبرَّر.

أمالت جفرا رأسها قليلًا تتأملها ثم قالت بوقاحة:

–ربما كلامكِ صحيح، وربما تكذبين، بالنهاية أنا أستطيع القول بكل ثقة إني فلسطينية، أحمل اسمًا عربيًّا خالصًا، أما أنتِ فأعتقد أنكِ مجرد كاذبة دكتورة لوسيرو أنخيل.

جمدت المرأة مكانها تنظر إليها بقهر، حتى قالت بصوت أجش:

– في هذا الزمن وهذا الوضع تحديدًا، لا أملك إلا إخبارك ألا تحكمي من المظاهر أو حتى بالأسماء.

تنهدت جفرا بتعب ثم قالت بشرود:

– مزيد من القصص المأساوية الغامضة في هذا البلد إذن.

انضمت رُفيدة إليهما تمنح كل واحدة منهما كوب قهوة وشطيرة وجلست جانبهما وقالت:

– أخبرتكِ أن بحثكِ عن إجاباتكِ سوف يُشتتكِ ويدفعكِ إلى طريق ليس منه عودة يا جفرا.

اعتدلت جفرا قليلًا تقلب بصرها بينهما ثم قالت بتشكك:

– هل تعرفان بعضكما؟

هتفتا بصوت واحد:

– لا، وإنما شظايا القلوب عند بعضها.

قالت جفرا بتذمر:

– يا ويلي، أشعر أن كل نساء هذا البلد نسخة واحدة من الجبروت.

ضحكت لوسيرو بكدر وقالت ببساطة:

– كثرة المآسي وتشابهها تُعلِّم فهم الوجع دون الشكوى.

أشارت جفرا بكوب قهوتها نحو رُفيدة:

– هي لم تتعرض للمأساة حقًّا، على الأقل لم تُهجَّر من موطنها، ولم يسلب مستوطن بيتها بعد أن أحرق كل عشيرتها.

اضطربت لوسيرو اضطرابًا ملحوظًا، ولاحت طعنة موجعة بالترافق مع غلالات دموع دمرت دفاعاتها وترقرقت في مقلتيها.

هتفت رُفيدة بغضب:

– هذا صحيح، إلا أني ومنذ مولدي، مجبرة أن أراهم يتجولون بقذاراتهم داخل قريتي، أشاهد وأسمع نعي ابن الجيران، أو رفيقة الطفولة أو حتى طفلًا فصيح اللسان حلو المعشر كالذي فقدته اليوم.

ارتبكت جفرا:

– لِمَ كل هذا الغضب؟ لمْ أقصد يا عزيزتي.

قالت رُفيدة بصوت خشن، وكأن سكينًا مسننة تجرح حنجرتها فتجعل الكلام يخرج بجهد خرافيّ:

– لا تُقللي مطلقًا من معاناة إنسان، أنتِ لم ترَي بأم عينكِ الجرافات وهي تهدم منزلكِ أو منزل أقاربكِ، ثم تعيدين بناءه بكل ألم ومرارة، فيعودون لهدمه، وتعيدين أنتِ تجديده، وتدورين في حلقة مفرغة ليس لها نهاية، لا تحكمي إن لم تجرِّبي كل ليلة الاستيقاظ فزعة في إثر سماع هدير طائراتهم المشؤومة، متوقعة قصفكِ وموتكِ أنتِ وكل أسرتكِ في لحظة، ثم ينجلي الليل أخيرًا ليس بأمل وإنما بعويل يصم الآذان ويقشعر له بدنكِ لمعرفتكِ أنه قد أُفرِغ رصاصهم في صدر تلك الصبية الحلوة التي استيقظت فجرًا لتحضر الحليب لطفلها الأول الذي لم يمر على ولادته إلا شهور، ولماذا؟ فقط لأن أحد جنودهم كان ضجرًا ويريد التسلي.

صمتت رُفيدة وهي ترتجف، تحني كتفيها وتخفض رأسها وكأنها ما عادت قادرة على التظاهر بقوة الاحتمال والجلد، محاولة بكل فشل مداراة دموع رثائها.

أكملت لوسيرو وكأنها تفهم حقًا، وكأنها مرّت بأشياء أكثر فظاعة مما تسرده رفيقتها:

– وبالطبع لن يرى الإعلام ذلك، ولن يدفع أحدهم عواقب جريمته، بالعكس تمامًا.. سيروج أنها مجرد انتحارية مجرمة، في حين أنها كانت تحاول إغلاق نافذتها حتى لا تصل إلى طفلها المسكين الغازات السامة التي يلقونها.

قالت رُفيدة بجمود رغم نهنهة البكاء في صوتها:

– نحن كائنات أدنى من البشر، مجرد شعب عربي من العالم الثالث، لا يُحتسب، ولن يغضبوا لسحقه.

ردت لوسيرو بنبرة ميتة رغم لون الحداد الذي يبرق في عينيها بتعبير مرعب:

– العزاء الوحيد أننا لسنا أول ضحاياهم، فإن نظرتِ إلى تاريخهم الدامي ستجدين أن أمريكا أكبر داعم لهم أبادت الهنود الحمر فقط لأن الأرض أعجبتهم، فقرروا أن شعبًا وعِرقًا كاملًا لا يستحقها، وأنهم أولى بها.

قالت جفرا مصححة بهدوء:

– تقصدين الرجل الإنجليزي عزيزتي.

قالت لوسيرو بهدوء:

– الإنجليزي أو الفرنسي أو الإيطالي، لن تفرق كثيرًا، جميعهم مجرد مجرمين نفتهم أوروبا لنُبتلى بهم.

أخذت رُفيدة نفسًا ناريًّا ثم قالت:

– الفعل مألوف، ومن هنا أتت فكرة وعد بلفور المشؤوم، فقد كانوا يضيقون ذرعًا باليهود وكل بلد لا تريدهم على أرضها، ففكروا بتلك الحيلة الجهنمية، وهي جمعهم بما يسمى أرض الميعاد، الخطة في أولها قضت بالتخلص منهم، ثم أنارت عقولهم المترابطة مع غرضهم الأساسي ألا وهو زرعهم شوكة في حلق العرب.

ضيّقت جفرا بين عينيها، وظلت تتنقل بينهما بجهل تام، ودون أن تبوح بحرف، كانت كلتا الشابتين تدرك بكل أسف أنها تجهل تاريخ النزاع الطويل غير ملمة بكل الأحداث، ومَن يلومها وقد أصبح العديد من الشباب وحتى كبار السن مثلها؟ لقد نجحوا في مخططهم المحنك، وها هو يأتي ببشائره أخيرًا، ألا وهو محو الحقائق شيئًا فشيئًا، فيبدلون بها تاريخًا مزيفًا.

لِتهزم شعبًا وتنشئ آخر عليك محو كل ثقافته، وأصوله، وبصمته، وحتى لغته وأبسط شعائره كليًّا.

قالت جفرا بتشتت للحظة:

– ألم يكن المخطط من البداية مصر؟

فأجابتها رُفيدة سريعًا:

– من النيل للفرات حلمهم الذي يصعب تحقيقه، إلا أنهم بالفعل حققوه بالتطبيع.

أكملت لوسيرو عند توقف رُفيدة:

– هذه الأرض منذ بداية الخليقة وهي في نزاع وحروب لم تهدأ، دائمًا كانت بلدًا محترقًا يناضل أهله لإثبات أحقيتهم فيه، منذ أن سكنها قوم كنعان الجبابرة مرورًا بحروبهم مع المصريين، التي استغلها قوم من خلف البحار ثم دخلها اليهود ليحتلوا جزءًا منها.

حدقت إليها جفرا بعينين فضوليتين ومذهولتين وقالت:

– ولكن ما تقولينه يدحر القصة التاريخية التي يتداولونها في كل المحافل الدولية!

قالت رُفيدة بجمود حاد:

– هل تقصدين القصة الخيالية البحتة التي تحكي الصراع بين جالوت العربي المتجبر، وداود اليهودي المضطَهَد؟

قالت جفرا بهدوء:

– نعم، داود هو رمز لدولة إسرائيل الذكية المسكينة التي شُتِّت شعبها وسُرقت أرضها لوقت طويل.

سخرت لوسيرو:

– طبعًا وجالوت هو العربي الغبي المدجج بالسلاح، الظالم والمعتدي الذي مُنِيَ بالهزيمة في النهاية، هل أنتِ متأكدة من عروبتكِ التي تتبجحين بها في وجهي؟

اشتعلت جفرا بالغضب وهي تقول بفظاظة:

– ولِمَ لا تكون قصتكِ أنتِ الخيالية؟ إذ إن هذا التاريخ موثق في عدة مراجع تاريخية، وفي كتب تحيي التاريخ والحقائق بها كما نحن نحيا فيها.

بجهد جبار سيطرت لوسيرو على نوبة غضب إن حررتها لدفنت تلك الجاهلة مكانها، فقالت من بين أسنانها:

– وضعتِ يدكِ لتوِّكِ على كبد الحقيقة، لقد ضعنا عندما زُوِّر التاريخ ونُسِّق ليناسب مطامع دولية وصراعات خفية، ضعنا عندما رضخ العرب ووافقوا على تلك الأكاذيب التي وثقوها لتناسب إنجازات وهمية وبطولات عنترية.

تدخلت رُفيدة وهي تنظر لتلك الطبيبة الغريبة التي سقطت عليهم اليوم مقتحمة المخيم الطبي تقدم مساعدتها دون توضيح، دون استئذان، إلا أنها لم تغفل طبعًا السؤال عنها بعد أن رأتها بأم عينها تتجادل مع شخص يحاول إخراجها من هنا، شخص مكروه كليًّا في بلدتهم، إلا أن من أوقفها وطمأنها وملأها بالثقة مَلْأً يدعو إلى الغرابة كان الجراح، وبالطبع لم يحتَج للطلب مرتين لتثق في قراره.

– هل يمكنكما أن تهدآ قليلًا وتدركا أين نحن وفي أي وضع؟ هذا ليس وقت التباري.

قالت جفرا ببرود:

– رفيقتكِ تبدو ليست كارهة للمحتل فقط، وإنما للعرب أيضًا.

كلل النفور والقرف وجهها وهي تقول ببغض:

– نعم، نعم أكرههم جميعهم، أكره ضعفهم، استسلامهم، خذلانهم لنا، بيعهم قضيتنا، تناسيهم أن القدس ليست قضيتنا نحن الفلسطينيين فحسب، بل هي مسعى لكل مسلم، ومحراب، هي حرب استعادة كرامة ودين وقومية مسلوبة، نعم يا جفرا.. أنا أكره كل رئيس وملك وقيادي يملك القرار الحاسم لتوحيد صفوفنا، إلا أني لا أبغض الشعوب مطلقًا؛ فهم مجرد بشر مسلوبي الإرادة مثلنا، قد أنهكهم البحث المضني عن لقمة العيش، عن التحرر من الفقر المدقع والبحث عن مستقبل مشرق، ألم أخبركِ عزيزتي؟ لقد نجح حصارهم بجدارة، مخططهم الذي جعلهم يختارون فلسطين بالذات لاحتلالها، ليس للخلاص من اليهود فقط وكل الهراء بادعائهم، بل لأسباب ومطامع سياسية بحتة، ألا وهي الحفاظ على تشقق العرب وعدم تطورهم أبدًا، وأيضًا إلهاؤهم عن أرضنا المسلوبة واكتفاء كل واحد فيهم بالحفاظ على بلده بكل أنانية تاركًا البشر هنا تعاني، نعم لقد أفلحوا في جعلهم يذعرون مصدقين كذبة فزاعة إسرائيل العظمى.

أرادت رُفيدة الكلام، إلا أن إحدى الطبيبات استدعتها سريعًا للانضمام إليها مبهورة بما تقوله تلك الطبيبة الغامضة.

تلكأت غير مطمئنة لوجود هذا الثنائي معًا، إلا أن فضول جفرا، وتلهفها لسماع المزيد جعلها تطمئن قليلًا لتتركهما.

أومأت جفرا برأسها إلا أنها قالت باستفزاز:

– الآن أنتِ تقولين إنها غلطة العرب.

رفعت ركبتيها تضمهما إلى صدرها تحيطهما بذراعيها ثم قالت بصوت أجش:

– أقول إنها غلطة من سمح بالتلاعب بهم، ليس منذ أن باع ذلك خونة السلطان التركي فلسطين لبريطانيا، وليس حتى منذ بدؤوا في احتلال الأرض والاستيطان يكونون عصابات صغيرة تقتل وتسرق وتنهب فينا بحماية الإنجليز منذ عام 1938، ولن أخبركِ أنهم سمحوا لهم منذ أن أدركتهم الهزيمة في 1، وإنما الفرقة الحقيقية وبدايات سقوطنا وتفرقنا، منذ أن ذهب ياسر عرفات للأمم المتحدة وطرح القضية بكل شجاعة مطالبًا باعترافهم بدولتنا، إلا أن كل أحلامه ومحاولاته ضاعت سدًى عندما تحرك الغرب يزرعون الفرقة بين الزعماء العرب كلٌّ على حِدَة بحجة مختلفة، محاولة إيجاد سلام ونقطة مشتركة، وقد كانت فخًا وضيعًا قَلَب كل الدول العربية على بعضها، وخسرت المقاومة الفلسطينية الداعمين لها بالسلاح والمال، وحتى الأرض التي كانت في الأردن عندما اعتبروها نقطة انطلاق للمقاومة.

قالت جفرا ببطء:

– هل تقصدين أيلول الأسود؟

تملكتها الدهشة محدقة إليها ثم قالت بتفكُّه:

– إذن.. أنتِ لست جاهلة للنهاية؟

ضيّقت جفرا عينيها تحدق إليها بفضول وتشكك وقالت بخفوت:

– طريقتكِ، كلامكِ وحتى الدماء الصارخة في وجهكِ الذي تفصح عن انتمائكِ رغم تضاد اسمك، تذكرني بأحدهم.

نظرت إليها بهدوء حزين قبل أن تقول بوجع:

– ليتني أُذكِّركِ بأحد فعلًا، رغم علمي جيدًا أن كل أسرتي أُبيدت، إبادة تامة ولم يبقَ منها أحد إلا أخواتي وقد فقدتهن أيضًا في اختطاف شرعي بأرض الكابوس.

حبست أنفاسها والدماء تنسحب من وجهها مدركة معنى حروفها، شاعرة بكل ذرة بداخلها تنجذب لها وتتعاطف معها:

– هل يمكنني أن أسألكِ؟

قبل أن تكمل استفسارها قاطعتها بجمود:

– لا يمكنكِ.

تأملتها جفرا بتشكيك أكبر، إلا أن الاسم واللكنة الأمريكية المميزة جعلتها تستبعد ذلك الخاطر الذي أصبح يلح عليها بإزعاج، تبًّا كيف لعقلها المتطرف أن يربط شخصين على النقيض تمامًا؟! فهذه الطبيبة الأنيقة التي يبدو أنها سقطت من إحدى مجلات الأزياء العالمية على حين غرة، وذلك النجار البسيط مجهول الهوية كيف يمكن أصلًا؟! يبدو أن الصحافة واعتقاد أن كل الأشياء يجب أن يكون وراءها مؤامرة خفية ولغز يجب حله بالفعل ذهبت بعقل جفرا لا محالة.

سمعتها أخيرًا تقول متجنبة حديثهما الجانبي:

– أيلول الأسود مؤكد أحد الجوانب التي أقصدها، فذاك الصراع الذي نشب بين الملك حسين والمقاومة لم يكن هيِّنًا، وجعل الفدائيين يخسرون الكثير وقتها من أرواح ومال ودعم، ولم يتوقفوا عندها عزيزتي، فمنذ قديم الأزل الحكمة معروفة وبسيطة (فرِّق تسُد)، ورغم وضوحها وحفظنا لها وقعنا فيها بكل غباء، فعلى سبيل المثال: في الوقت الحالي كل المنظمات والأحزاب الفلسطينية بالداخل تتنازع متناحرة على السلطة والسيادة، متناسين بكل تعنتٍ وبغضٍ الشعب الذي يعاني الويلات بينهم، غاضّين البصر عن عدوهم الأوحد الذي يزداد كل لحظة تجبرًا وتوحشًا.

أسبلت جفرا جفنيها وهي تضع الشطيرة أمامها وقد ذهبت كل شهية لها مع الرياح، ثم اتخذت جلسة مماثلة وقالت بخفوت:

– أنا أتابع الأخبار منذ أن بلغت المرحلة الثانوية، وكل ما استطعت فهمه وتحليله أن الصراع على السلطة أعماهم.

قالت لوسيرو واجمة:

– السلطة دائمًا ما جعلت الرجال تجن، حد أن يصل بعضهم إلى قتل أبيه أو أخيه، فما بالكِ بأحزاب وتيارات سياسية منقسمة بالفعل؟ بدل أن تتوحد يدًا بيد، للأسف نجح الكيان بجدارة في جعل كل الجبهات بالداخل تتفرق، حتى وصل الحال إلى قتال بعضهم بدل أن يوجهوا أسلحتهم وجهدهم نحو المحتل.

تمتمت جفرا بجفاء:

– المشكلة ليست في هذا فقط، بل أن هناك جزءًا كاملًا داخل الأرض محاصر ومغلق، الناس تعاني ويلات الحروب وغارات الصهاينة، بجانب قلة الموارد وانعدام الماء والكهرباء.

عاد الحداد داخل عينيها يطفو للسطح في حين بدت نظراتها بعيدة متحفزة بقوة:

– ربما يحتاجون إلى شعلة أخرى جازمة حتى يثوروا منتفضين للمرة الثالثة، علّها تكون الأخيرة، فيخرجون من ذلك العار المقيت الذي يُدعى (سلمية).

شحب وجه جفرا للحظة إلا أنها قالت رافضة ما تسمع:

– إلا أنهم يسعون لذلك، لماذا لا ينصاع الشعب لرغبة قيادته بسحب وتسليم كل سلاح مخبأ يملكونه.. فالجانب الآخر يرغب حقًّا في نهاية لهذا النزاع والعيش أخيرًا جنبًا إلى جنب في هدوء؟

التفَّت لوسيرو بجسدها كله نحو جفرا وهي تنظر إليها بذهول خالطه الاستنكار، ثم قالت بقرف:

– هل أنتِ مجذوبة؟! سلام، وهدوء! ألم تري في الأيام الماضية ما يكفي من دماء أبرياء أراقوها دون ذنب، ألم تُكَفِّنِي بيديكِ ذلك الطفل صباحًا؟ بالله عليكِ أي عهد أو سلام مع قتلة الأنبياء؟ بحق الله هذا المحتل عبر تاريخه دائمًا يحتل الأرض ثم يُغرِّب أهلها عنها بعد أن يحل دمارهم وخيانتهم عليها، ألم تسمعي عن يهود خيبر قط؟ ألم تقرئي تاريخ يهود مصر الذين عاشوا فيها سنين وأكلوا وشربوا من خيرها ثم ببساطة خانوها لصالح الاحتلال؟!

اهتز شيء داخل عيني جفرا، قبل أن تقول مبتلعة غصة تكاد تخنقها:

– أنا لا أعرف ما الذي يحدث معي، لم أمرّ بهذا التشوش قط.

قالت لوسيرو وهي تقف جوارها مُنهية وقت الراحة القليل، الذي ضاع هباءً مع هذه المستفزة:

– لا عليكِ، يبدو أنكِ قضيتِ عمركِ كله تقرئين وتسمعين، وتصدقين جانبًا واحدًا من الحكايات، للأسف هذه طبيعة البشر دائمًا.. نتحمس فنكره وننفر أو حتى نحب دون البحث عن أصول الحكايات والسماع لكل الجوانب.

أخذت جفرا نفسًا عميقًا قبل أن تهمس صادمة إياها:

– هل أنتِ أمريكية مثلي؟

لم تفهم مغزى السؤال إلا أنها قالت بجمود:

– نعم، لا أحمل غير هذه الجنسية، لأنه بموجب قوانين المحتل لا يسمح لي أو لمن مثلي من النازحين بالحصول على هويتنا الخضراء.

أجابتها جفرا:

– أعرف.. لأني عانيت وأمي بسبب الركض وراء هذا الحلم المستحيل.

قالت لوسيرو بسخرية:

– منذ أن وجدنا والدي ونحن نطارد هذا الحلم لأربعة أعوام كاملة، نصرخ بكل جراحنا من الطرف الآخر لنهر الأردن علّنا نجد لصوتنا صدى.

عاد الفضول ينخر مداركها بمخالبه وهي ترمش بعينيها بشيء لم تفهمه عينا لوسيرو التي تراقبها بفضول مماثل، وقالت:

– قلتِ اختطاف شرعي، ووالدكِ وجدكِ، هل يمكنكِ إخباري بالقصة؟ يمكنني كتابتها وفضحهم بها و...

قاطعتها مزمجرة بصوت شرس:

– نحن لسنا قصصًا لتحقيق أحلامكِ، مآسينا غير متاحة للمتاجرة.

انطفأ الحماس بداخلها وقالت بإحباط:

– اهدئي.. لم أقصد استغلالك، على الأقل هل يمكنني التخمين بأنكِ تعيشين في الأردن لأبحث عنكِ عند عودتي؟

ما زالت تنظر إليها بانفعال بلغ أشده.. تحديق غريب وجحود أغرب، إلا أنها قالت بالنهاية:

– هل تريدين أن تعلمي لماذا رُفيدة وغيرها يعاملونكِ بجفاء، وعصبية دائمًا؟

قالت بتشوش:

– يا ليت.

مالت لوسيرو تجلس موازنة جسدها بأناقة على ساقيها لتساوي جلسة جفرا العشوائية، ثم قالت باهتزاز:

– الناس هنا يا جفرا، تعرضوا جميعًا لأشياء بشعة، بشعة للغاية، ورغم هذا بقي شيءٌ بداخلهم يحب الحياة، يقاوم ويتمسك بوعد الله الحق، بالنصر يومًا ما، يتعلمون، يدرسون ويتفوقون أيضًا، يحبون ويكرهون، يتزوجون وينجبون أطفالًا يحاولون بجهد جهيد منحهم بعض الحقوق والعدالة المشروطة، الحياة تستمر بهم، كما الجميع، إلا أن العيش -يا عزيزتي- على خط النار ليس بأمر هين، الخذلان الذي تعرضوا له، والخيانة من الجميع أمر يفتك بأحشائهم وإنسانيتهم، لذا هم بحق لا ينقصهم شابة مدللة تأتي بجهلها لتقيمهم وتحكم عليهم.

عبست بشدة ووجهها يشبع بالغضب الطفيف:

– أنا لست مدللة، فليس ذنبي أني وُلِدتُ في أرض غريبة وتعلمت كل ما يناقض ما رأيته هنا.

اشتعلت عيناها الداكنتان بانتصار وقالت بقتامة:

– لقد كبرت مثلكِ في تلك البلاد، ولكني عانيت عناءً أبشع من أن تتخيليه أنتِ، اسمي الذي تسخرين منه.. ليس اسمي فعلًا، إذ سلب مني حقي في هويتي وأصلي ولقبي الذي ولدت به داخل فلسطين قبل أن تحرق نارهم جدي، وتدعس دباباتهم أهلي.

صمتت وكل جزء فيها كان يتصلب بقهر، عيناها تلمعان من جديد بدموع أبية، صدرها يعلو ويهبط بتسارع مَن يكتم صرخة ألم تريد لف الدنيا بمرارتها، ثم مدت يدها مكملة ببؤس:

– هل ترين هذه اليد؟ لقد لملمت أشلاء الرفاق وهي لم تكمل كما صاحبتها أعوامها السبعة.

وضعت جفرا يديها الاثنتين على فمها تكتم شهقة عذاب وهي تنظر إليها بوجه مصدوم، أكملت بمرارة:

– لا داعي لكل هذا عزيزتي، فلم يكُن شيء مطلقًا بجانب ما عانيته لاحقًا في المخيمات الحيوانية التي أُلقينا فيها، ثم الضياع الذي قابلناه في أرض الحلم (أمريكا).

ارتجفت جفرا وهي تمسك بساعدها باندفاع غير محسوب العواقب، وقالت:

– أنا آسفة، آسفة حقًّا لتذكيركِ.

نظرت لوسيرو إلى يدها بدهشة للحظة قبل أن تبعدها عنها بهدوء دامٍ، ثم قالت بغصة تكورت بحلقها:

– أنا لا أنسى أصلًا، وأسفكِ لا يكفي، وأسف العالم كله لن يداوي، إلا أني بالنهاية أردت إخباركِ أن من يرغب في الحقيقة لن يتخبط، من يرفض تشتيت دمائه لن يُفرِّط، أنا اخترت التذكر دائمًا، في حين أنكِ اخترتِ التشبه بهم.

ضاعت جفرا كليًّا أمام المرأة الغريبة والغامضة، إلا أنها قالت:

– لم يتركوا لي فرصة، لقد حاولت إلا أنه كان صعب عليّ الاستيعاب دون أن أرى بنفسي، أنتِ تعلمين جيدًا مدى حقيقة ما يذكره الإعلام والناس والسياسة، ماذا أعرف أنا عن ما يحدث هنا غير أنهم أناس دائمًا يحاربون راغبين في الموت؟

نظرت إليها الطبيبة طويلًا دون أن تجيبها، وقد بدت بالفعل أنها انتهت من كل شيء، ثم وقفت مرة أخرى تنصب جسدها بشموخ صارخ، حتى قالت أخيرًا:

– كنتُ أعيش على ضفة نهر الأردن، ولكن الآن إن أردتِني فعلًا في يوم من الأيام، ستجدينني في مصر مع زوجي وطفلتي.

شعرت جفرا بالأمل يتجدد قليلًا وهي تقف على عقبيها ثم سألت بلهفة:

– واسمكِ المسلوب؟

أولتها ظهرها لبرهة قبل أن تسمعها تأخذ نفسًا حادًّا ومؤلمًا، قالت أخيرًا بنبرة جنائزية يشيع فيها الأمل بلا عودة:

– لورين، ابحثي عن لورين أيوب الخليل.

غادرت تاركة جفرا تشعر بطعنة هائلة تقتحم وتين قلبها اقتحامًا موجعًا، تاركة أفكارها المشتعلة تعصف به داخل رياح عاتية دون هوادة:

«لورين، ألم يكن هو الاسم نفسه الذي ناداها به ذاك النجار الغريب؟ أيعقل أن تكون حبًّا قديمًا تكلل بالافتراق؟ وما بالي أهتم أصلًا!»، إلا أن الشحوب الطفيف الذي كلل محياها مع الطرق الموجع لذلك الخافق بين جوانبها جعلها تدرك أنه بطريقة أو أخرى هناك شيء بداخلها يتغير ويسير بطريق له بداية وليس له إلا نهاية موجعة، وأن حياتها ستنقلب رأسًا على عقب وأبدًا لن يبقى عالمها كما كان.

*****

كانت ساعات هي ما اقتنصوها في هدنة مشحونة، حتى عاد الرصاص يضرب من جديد من جانب المحتل الغاشم، في حين أن الناس في هذه الناحية لم يتوقفوا عن الدفاع، مُصرين على دحرهم بعيدًا.. لقد خسروا حتى الآن في هذا الجانب مئتي شهيد وألفًا وما يزيد من الجرحى، حتى الهدنة المفترضة ليستطيع

المتطوعون من الأطباء والممرضين تسلّم الجرحى لإسعافهم باتت معدومة تمامًا؛ فالجنود بدؤوا في توجيه أسلحتهم نحو الكادر الطبي نفسه والصحفيون الفلسطينيون أيضًا غير مبالين بالحماية والقوانين التي تمنحها لهم المنظمات الدولية والصليب الأحمر.

لقد تبرع لها أحد في وقت ما بسترة واقية، لقد تذكرته.. ذلك الشاب المراسل الذي قابلته منذ أيام وسألته وقتها عن ما يجري، إلا أن هذا لم يكن كافيًا، فقد أصيبت بالفعل رغم محاولة البعض أن يحموها بدفعها بعيدًا، ولكن الجيد في الأمر أن إصابتها التي طبتها لها لورين لم تكن خطِرة، بل مجرد شظية أصابت جانب رأسها، وها هي الآن تعود لخط النار تلتقط مزيدًا من المقاطع والصور التي عزمت على نشرها في أكبر الصحف عند عودتها مهما كلفها الثمن، مرفقة طبعًا بقصة كل شهيد وجريح طفلًا كان أو كبيرًا، علّ الجهلة الغافلين مثلها، يعلمون بالحقائق ومن الجانب الحقيقي المضطهد.

على هذه الأرض ما يستحق الجهاد، لقد صدقوا وآمنت، رغم أنها ما زالت تحتاج إلى المزيد لتصحيح كل زيف وخداع عاشت فيه، رافضة تصديق قصص أبويها.

الدخان الكثيف كان يحجب الرؤية الآن لدرجة أن القناع الذي استخدمته للحماية بسبب النيران الكثيفة لم يساعد على الإطلاق، كما شوش الصورة على الجميع، البعض كان يتخبط، والبعض الآخر كان يتحرك بأريحية تامة، ولِمَ لا وقد اعتادوا ما يحدث؟

ما لم تكن تتخيله في حياتها قط أو يأتي لتفكيرها إطلاقًا أن تجد نفسها تُسحَب جَبْرًا ويُكتم فمها، لتختفي في لحظة من الحدث وتجد نفسها داخل مكان بدا كأرض أخرى، وأناس آخرين، وموقع مختلف وإن كان الدخان ما زال يملأ المكان، إلا أن الصورة تغيرت تمامًا، الوجوه المألوفة التي تشبهها تبدلت لتحيطها وجوه كالحة وأنوف معقوفة، يرتدون زيًّا موحدًا، الحجارة بُدِّلت بها مدافع تحاوطها من كل جانب، الزجاجات المصنوعة يدويًّا تبدلت بها قنابل فائقة التقنية تقتل بصمم دون إحداث الفوضى موجهة بدقة لطريقها نحو أجساد البشر العارية.

الذعر التام هو ما تمكن من جفرا، الرعب الصافي الذي يتخلل عظام الإنسان شاعرًا بروحه تتهاوى بأنه يوشك على مواجهة أشياء أبشع من الموت.

هل اختطفت؟! لماذا؟ ولصالح من؟ ولِمَ هي؟! لماذا قد يتكبدون المخاطرة لأخذها عنوة وهي التي لا تفقه أمرًا من صراعهم الأبدي؟!

هتاف بالعبرية، وضحكات سمجة جعلتها تشمئز للأعماق وإن لم تفهم شيئًا منها، إلا أنها وسط رعبها وصدمتها التي جمدتها في أرضها.. شعرت أنها باتت قطعة واحدة متصلبة مزروعة في الأرض التي تقف فوقها.

– الطريدة هنا كابتن عِزرا، كما أمرت.

لم تكن تستوعب ما يحدث، هي بحق لا تفهم. وإن كان الصوت المقيت الساخر قد نطق بعربية ركيكة فعرفت أنه قصد لتسمع، كلها كان يرتجف برهبة وخوف، شجاعتها وسلاطتها المشهورة بها تبخرت في الهواء، رفعت وجهها الباهت كما الأموات تحاول أن تسترق نظرة نحو هذا العِزرا.. هل هو الجندي الذي أهانته بالسابق ووجد فرصته للانتقام منها؟!

صوت هادئ كان يقترب منها كما جسد هذا الجندي الذي لاح أنه أكبرهم.. كان يخاطبها أخيرًا مصيبًا إياها بذهول أكبر مما هي فيه:

– مرحبًا جفرا الحبيبة، لم أتخيل أن يجمعنا الزمن في بلدي وبظل هذه الظروف العصيبة.

أسنانها كانت تصطك في بعضها، شفتاها ترتجفان محاولة النطق بصعوبة:

– بلد مَن؟ من أنتَ؟ وكيف تعرف اسمي؟

ظهر حزن عظيم على وجهه، لم تفهمه، قال:

– هل يعقل أنكِ نسيتني حقًا؟

هل هي في أحد كوابيسها المفزعة.. تلك التي لا تستطيع الخلاص منها؟ قالت:

– أنا لم أرَك في حياتي لأنساك أو أذكرك، بالأصل لم يمر على وجودي هنا عشرة أيام!

أطل تعبير غريب من عينيه الزرقاوين وقال:

– ومن قال إن صداقتنا الطويلة وطفولتنا كما مراهقتنا كانت هنا، جفرا الجميلة؟

قفزت جفرا من مكانها عندما مر بجانبها بعض الحجارة، وقد رُدَّ عليها بطلقة مدفعية عديمة الرحمة.

مد ذلك المدعو عِزرا يديه ضاحكًا بارتياح شديد وكأنه يشاهد أحد أفلام الحركة المفضلة، وقبل أن تصل يديه إليها كانت تفزع متحركة بقوة بعيدًا عن مرماه وهي تصرخ بجنون، تحررت من عقاله أخيرًا، وقالت:

– تبًا لك، إن لمستني سأقتلك.

عم صمت مشحون بينهما لدقيقة ملاحظًا استعداد جنده وراءه، لتلقي أمره والفتك بها، قال ببرود:

– لم يكن هذا شعورك نحوي في السابق.

أحست جفرا بحمم بركانية تهبط فوق رأسها قطرة قطرة تصهر عظامها محدقة إليه بقهر وبغض واعية لما يرمي إليه، قالت بمقت:

– هل تفعل هذا عادة مع نسائهم؟ بالطبع أنتَ تعلم عصبيتهم ونقطة ضعفهم، فتلعب عليها بمنتهى الحقارة، كم سيخيب ظنك إذن، أنا لا أنتمي لأيٍّ من رجالهم ليهتموا بهرائك.

رده على كلامها كان ضحكة صاخبة زادتها جنونًا ورغبة شديدة في القتل، سمعته يقول بمرح:

– ما زلتِ كما أنتِ، لم تتغيري، جريئة ومندفعة، وصادقة يا جفرا الجميلة.

– اللعنة، تتكلم وكأنك تعرفني.

افترت شفتاه عن ابتسامة تندُّر مريعة وهو يقول:

– جفرا، ابنة المعلمة رندة الطيبة التي كانت تهتم بكل الصغار بمنتهى الحنان، إلا أنها خصّت طفلًا واحدًا بالذات مهتمة بشأنه حد أنها خاطرت بعلاقة شخصية مع ذويه ليستقبله منزلها في أثناء انشغالهما.

الآن فقط حصل على رد فعل قويّ منها عندما انتفضت مبتعدة للوراء خطوات بذعر أكبر من ذي قبل، خوف لا يقارن بأي حقائق قد تقال وتكشف، وجهها استحال كلون الجثة، قالت بصوت باهت:

– عِزرا؟!

حرك جانب وجهه وهو يقول بسخرية:

– عرفتني.

كررت بذهول:

– عِزرا الإيرلندي المسيحي؟!

ادّعى المفاجأة وهو يقول ساخرًا:

– أوبس، ألم نصحح لكم الحقيقة قبل عودتنا لوطننا الحبيب؟ حتى أنضم لشعبي مدافعًا عنه ضد الهمج الذين ألفتيهم.

كل جزء فيها كان ينتفض متراجعة أكثر، مذهولة، خائفة وغير مستوعبة لما يحدث وكأنها على حين غرة سقطت داخل دوامة سوداء تخلط الأحداث ببعضها، تعيد الحقائق ببشاعة، تنسجها بخيال غير متوازن إطلاقًا.

كانت تلهث لهاثًا موجعًا وهي تقول بتشوش مستنكر:

– عدتَ إلى هنا بكل سهولة، في حين بقينا أنا وأمي أعوامًا نحارب للعودة.

– أنا عدت لوطني.

رفعت رأسها كالطلقة صارخة:

– هذا ليس وطنك.

سخِر سريعًا:

–ها أنتِ تكررين أكاذيبهم المحفوظة، وأحلامهم التي لن تتحقق أبدًا، الأحلام تبقى أحلامًا في طي كتمان العقل الذي يوهم الإنسان البائس بها، أنتِ تعلمين هذا جيدًا عزيزتي.. أليس كذلك؟

تراجعت خطوة أخرى برهبة وعدم توازن تريد الهرب، ولكن أين المفر؟ وكيف النجاة؟ قالت:

– الأحلام تتحقق، عندما يكون وراءها صوت حق مطالب.

تقوّس فمه بقسوة عندما قال مستنكرًا:

– لم تكن هذه آراءكِ حين كنا ندرس معًا.

– كنتُ مضللة عمياء وما زلت، إلا أني لن أستسلم حتى أستعيد بصري وبصيرتي ليستنير قلبي بالحقيقة.

اقترب منها ودون تردد كان يمسك ذراعها يجذبها منه بقسوة وهو يهزها دون رادع هاتفًا بصوت شرس:

– وهل مَن أعاد عقلكِ وبصيرتكِ في هذه المدة البسيطة، ذلك النجار الفاشل والهمجي؟

شحب وجهها أكثر، وقد ظن أن هذا مستحيل الحدوث في حين أن يديها تقاومه باستماتة محاولة التحرر صارخة فيه برهبة:

– تتحدث وكأنك تملك الحق فعلًا، تبًّا.. هل أنتم إلى جانب نجاستكم وكذبكم أغبياء أيضًا، أفق.. أنا لم تربطني بك أي علاقة من أي نوع، أذكر جيدًا أني كنت أتهرب منك وأنفرك.

اشتعلت عيناه بنيران زرقاء مخيفة وهو يقول بقسوة باردة:

– أنا لم أفعل، كنتِ وما زلتِ فاكهة حلوة رغم تحريمها.

ما هذا الحظ البائس والعاثر الذي يلاحقها؟! هل كان يجب عليها وضميرها الفظيع أن تبحث عن الحقائق؟ حسنًا فلتحترق المعرفة وهي شخصيًّا وفضول القطط الذي أودى بها للتهلكة كما يبدو.

تمالكت أعصابها محاولة أن تتكلم بصرامة مخيفة؛ ربما تجد صدى لديه:

– إن لم تتركني لأعود حالًا، سأبلغ عنك، أنا لست من هؤلاء الذين تستضعفهم، أنت تعلم أن غضب أمريكا على رؤسائك ليس بشيء هين.

قهقه مرة أخرى قهقرة منفرة.

ما بال هذا الأبله؟ هل يجدها مهرجًا يتراقص أمامه؟! سمعته يقول أخيرًا:

– هل تعتقدين بأنهم يهتمون حقًّا؟ أفيقي عزيزتي، أنتِ من أصول دون المستوى، هل تعلمين كم طفل هنا يحمل جنسيتكِ وقد أُسِر أو أُعدِم؟

تمزقت كل آمالها كما كل خلية فيها، وخفق قلبها بعنف ناظرة إليه بظلمة كبلت روحها وشعور مرير ينخرها خوفًا وجزعًا، تُرى ما المصير الذي ينتظرها؟

– اتركني حالًا لأعود.

مال نحوها يهمس أمام أذنها قائلًا بمكر:

– مؤكد أن أحدًا رآكِ وجنودي يأخذونكِ، هل تدركين ما الذي قد يحدث لمن مثلكِ إن عدتِ على قدميكِ ودون خدش واحد بعد معرفتهم بوجودكِ معي؟

قالت دون تفكير:

– لن أخبر أحدًا من الأساس أني أعرف حقيرًا مثلك.

اعتدل يمرر لسانه على شفتيه وهو يتأملها بوقاحة، ثم قال مسندًا كلتا كفيه على سلاحه المعلق بصدره:

– ولكن أنا سأخبرهم بصداقتنا.

شعور بالكره كان يتعاظم بداخلها وقد ظنت أن هذا مستحيل، فكيف للإنسان أن يكره بكل هذا الإخلاص واليقين شخصًا رآه لتوه؟! هل هو فعلًا نفور وراثي بينهما قبل التاريخ بتاريخ؟! إلا أن أمها لم تنفر منه، كشيء طبيعي، ولكنها لم تعرف، رباه أي صدمة قاسية ستتعرض لها والدتها إن علمت بما اكتشفته للتو؟

– دعني أعُد، أو اسجنِّي حالًا، المهم أن أبتعد عن وجهك القبيح.

قال باستخفاف:

– ومن سيجبرني؟ أنتِ؟!

قالت بهدوء عجيب:

– أنتَ ستعيدني، أليس كذلك؟ لقد قصدت أخذي من بينهم لتثبت شيئًا ما.

قال بنبرة توهمت فيها الصدق:

– لا، توقعكِ خاطئ، لقد أردت أن أراكِ وأتحدث معكِ، بعد أن منعتُ عنكِ جنودي حين توهم ذلك الهمجي أنه نجح في حمايتك.

ابتلعت ريقها بعنف وهي تبتعد عنه بتوتر جلل دون أن تفارق عيناها عينيه التي تحاوطها بأحاسيس مخيفة.

«هذا الجنون بعينه»، همست لنفسها، وما زالت تحدق إليه بامتقاع ونَفَس مسلوب.

– سأجعلكِ تعودين، لكن لقاءنا الآخر قريب جدًا، جفرا العربية.

****

فرقة من عشرة رجال، يرتدون ملابس سوداء، ويلفون حول رؤوسهم (الكوفية) بإحكام، في حين أنهم يُلثمون بطرفها وجوههم ليصعب التعرف عليهم.

كانوا يتسترون وراء تلة من الرمال يموهون وجودهم، يراقبون ما يحدث منذ ليالٍ، واشتركوا بالطبع في تلك الأحداث الساخنة التي أجبرت الجند على التراجع أخيرًا من البلدة، وبقوا خلف الحواجز والأراضي التي يستعمرونها منذ سنين، حسب قوانين تقسيم جاحدة أولها وعد بلفور المشؤوم، وفي الحقيقة هي وعود كثيرة ظالمة، وعود ممن لا يملك لمن لا يستحق، وعود وعهود وإعلانات تشذبهم هم أصحاب الوطن، واصفين إياهم بالإرهابيين، في حين أن المستوطن المحتل هو صاحب الحق الذي يجب أن يسانده العالم أجمع، ويعلن سيادته كل حين على بقعة من أراضيهم حتى وصلوا إلى المنتهى، والسبب الفعلي للصراع الآن هو توسيع استيلائهم على الضفة لتحويلها إلى جزر صغيرة معزولة من خلال الاستيطان وشبكة الطرق بهدف قطع الطريق على إقامة دولة فلسطينية.

– يا ظريف، يجب أن نتدخل، لقد تساقط من الأبرياء الكثير.

عيناه من فوق لثامه كانتا تبرقان ببركان مخيف وغضب عاصف، إن تحولت إلى قدرة خيالية لبطل خارق لكانت أحرقت كل من على الجانب الآخر في برهة مفحمهم.

نطق بعاصفة خلت الروح الهوجاء منها:

– سنتدخل، ونخلي المكان من الجميع، وكالعادة يا شباب لن نترك شهيدًا خلفنا يقع بين أيديهم.

انبطحت المجموعة على ظهرها منشغلين في تعبئة أسلحتهم بالرصاص والتأكد من الذخيرة الإضافية.

أسلحة تجدد كل حين، رغم انصياعهم للسلطة الجديدة التي أمرتهم وكل الشعب بتسليم أسلحتهم بحجة أنهم يريدون مباحثات سلمية مع الطرف الدموي، إلا أن قائدهم الشعبي الذي ارتضوه، يغيب أيامًا، يختفي ليالي، ثم يأتي إليهم بأسلحة جديدة، هم يجهلون مصدرها أو ربما يعلمون، إلا أن أحدهم لا يجرؤ مطلقًا على السؤال، ليس جبنًا ولا طغيانًا من ظريف الطول الذي تجددت روحه وأسطورته، ولكن خوفًا من جواسيس خونة مدسوسين بينهم أو حولهم، هم حتى عندما يتفرقون ينسون تمامًا أنهم فدائيون للقدس والعلم، لا يجرؤ أحد منهم على ذكره بينه وبين نفسه، وقد بات العدو منهم وفيهم.

وقف أخيرًا الطويل الملثم يرفع سلاحه بذراع واحدة، ثم صرخ وهو يبدأ في الهرولة ناحية أرض النار والحدث:

– أخبرتك سابقًا يا جراح، لا تنادِني مطلقًا بظريف الطول.

ابتسم في أثره ساخرًا، وقال:

– الأحمق، وماذا يفعل إن كان كل من لمس روحه وسمع عن العمليات التي يخططها وإقدامه، قد لقبه بالاسم فعلًا حتى إن بعض كبار السن يعتقدون أنه الشخص نفسه الذي ظهر في الماضي عاد من جديد ليدافع عن (فلسطين الجفرا)

****

وهناك على الأرض عند الإطارات المحترقة كما احتراق هؤلاء البشر، منذ سنوات طوال، بداخل الأحداث التي تشتعل كالبركان كان هجوم المعتدي يزداد شراسة وبشاعة، لقد كانوا يقصفون مخيمات الجرحى والأطباء المتطوعين المحمية أصلًا باتفاقيات دولية، بميثاق شرف يدعى إنسانية، ولكن منذ متى حمل أي مستعمر شرفًا لتذكره.

في الأرض المنزلقة تحت التلة المرتفعة قليلًا عن أرض تمتلئ بسحر الجبال والهضاب كما طبيعة معظم المدن العريقة، التي ورثها كنعان وقومه الجبابرة للتاريخ من بعده، دوّى الرصاص والقنابل، والمدفعيات حتى خلفت الجرحى وتساقطت الجثث كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار العالية بفعل الكائن البشري الأحمق الذي يستنزف الخيرات دون حساب يردعه، وأخيرًا كان هناك توازن في الدفاع، ربما ليس بقوة أسلحتهم نفسها إلا أن شيئًا جدد الأمل في قلوب تتمسك بالحياة وتحلم بغد قريب يمحو الوجع.

اندفع أحمد الجراح نحو التي أصيبت بشظية رصاص، إلا أنها رفضت
-كما تبين- الانسحاب.. حاول زملاؤها إقناعها بالتراجع، إلا أنها تشبثت صارخة باكية، هو يعلم يقينًا أنه مهما كان عِظَم ما أصابها، فإنها لا تذرف دموع الكبرياء.

إلا أن ما جعلها تفقد كل ركائزها الآن صراخها المجروح بشهقات مكبوتة مجنونة، مفطورة لفقد الصديقة والزميلة التي سقطت شهيدة بين ذراعيها.

كانت هناك امرأة رغم ألفة ملامحها إلا أنه لا يعرفها، ترتدي المعطف الطبي، تمسك رُفيدة بتشدد صارم تحاول سحبها وهي تأمرها:

- تمسكي بها لن يُحييها، يجب أن تنسحبي.

رفعت رُفيدة عينيها تنظر إليها بذهول لا تستوعب ما يجري، أو ترفض تصديق ما بات واقعًا مُرًّا كالعلقم ينخر حنجرتها بحنظله ويكوي الصدر العليل بقسوته، لقد كانت منذ دقيقة واحدة هنا تساعدها بنقل الجرحى، تفران راكضتين لإنقاذ روح أخرى، بلمح البصر ارتفع دخان غشي الأبصار وسمّم الأنفس، ثم انطلق صوت مدوٍّ قبل أن تستوعب انفجاره كان يدمر قلب رفيقتها، صرخت لورين مدركة ألم الصدمة التي تعيشها علها تفيق:

- ليس لدينا وقت، نحن معرضتان للرصاص.

إلا أن رُفيدة صرخت هي الأخرى متحررة بلوعته من حالتها المتجمدة:

- لن أترك رزان لهم.

والصدر الذي وُجِد خلفها ينشق بلوعته، ينفخ نارًا، هادرًا أنفاسه، زرع فيها شيئًا من الجَلَدْ والتحمل بمجرد وجوده، لم تحتَج إلى التفاف لتعرف أنه من يحيطها بدفئه، لم تحتَج ليتكلم أو يرفع عنه ذلك اللثام لتستمد من وجهه الحبيب القوة للتحمل، إلا أنها عندما انحنت بخشوع شديد تمسد على رأس رفيقتها، دمعها يسابقها للتساقط مغرقًا الوجه الملائكي الذي سلم أمانته لبارئه، كانت تنطق بنعي جنائزي:

- رزان ماتت، رفيقة الدراسة وصديقة الصبا استشهدت.

هتفت لورين بإيجاز عملي:

- ليس وقت انهيار الآن، يجب أن تنهضي لنساعد من وصل إلى المخيمات يا رُفيدة.

رفع أحمد عينيه من تحت لثامه ثم أمر بسيطرة حادة الطبيبة:

- اذهبي أنتِ وساعدي من يحتاج إليكِ، وأنا سأهتم بكلتيهما.

قالت بتردد وهي تنظر إليه بتأمل عجيب وغامض، وكأنها تبحث بداخل عينيه وتنقب في نبرة صوته عن مسعى وهدف، أتت هنا خصيصًا لأجله:

- هل أنت متأكد؟

لم يمنحها اهتمامًا، فكل انتباهه كان مع رفقائه الذين قسموا أنفسهم بين مدافع وحامٍ للمنتفضين من جهة، ومن يقدم يد العون بنقل الجرحى والشهداء لداخل حدودهم من جهة أخرى، وبالطبع كان قلبه كليًّا مع تلك التي تكاد تموت بلوعتها أمام عينيه:

– نعم، اذهبي من هنا.

لم تتردد لورين مرتين بعدها، حيث ركضت نحو مجموعة من الشباب ينقلون أحد كبار السن، الذي كانت إصابته بالغة، ركضت معهم نحو أعلى التلة، إذ إن خيامهم الطبية أصبحت بؤرة من نار غاشمة تحرق القماش الساتر، والأدوات المنقذة والجرحى!

عاد أحمد نحو رُفيدة يمسك كتفيها بحذر وأنفاسه تلفحها بنار مستعرة، الغضب يشوش عقله، الحمم البركانية تحرق جوفه متخيلًا لبرهة إذا فقدها هي، ما كان يجب أن يسمح لها بالمشاركة حتى وإن كان يؤمن بأنه واجبها نحو كل ذرة تراب من تراب الوطن:

– قفي.. دعينا ننقلها، لنكرم مأواها.

استدارت تنظر إلى عمق عينيه الملونتين وقلبها يخفق بقوة ألمًا، تشربت تلك الرسائل التي يمنحها إياها صامتًا كاشفًا عمق مأساته، همست رُفيدة بضياع ولوعة:

– أحمد.

تمتم محترقًا صريحًا وهو ينظر إلى الرايات السود داخل جفنيها:

– تخيلتكِ أنتِ، وهذا وحده كفيل بموتي في أرضي دون الحاجة إلى رصاصهم يا رُفيدة، لا قدرة لي على خسارتكِ.

صمت وصمتت وجمد الزمن بينهما، اختفى الرصاص واختفت أرض المعركة، سكن البشر وانمحى المعتدي، وكأنهما بطريقة سحرية انتقلا إلى عالم آخر، أرض خيالية ووطن لا يحمل إلا الحب، ووعد بالازدهار وبحور الغرام.

نظرت بعمق عينيه تتشرب منه بجشع، معيدًا لداخلها الخشوع والرضا، لطالما كان أحمد منذ أول مرة وقعت عيناها عليه يجيد سحبها لعالم آخر، لباطن ما هي عليه، جعلها تنتفض بأنوثتها الصلبة وتكون معه لا عليه، حائط صلب تتكئ عليه في المصائب، همست بصوت مرتجف من بين بقايا البكاء:

– جيد إذن، شعوركَ هذا يسعدني، لتعلم ما أعيشه أنا كل دقيقة رهبة عليك.

للحظة يده الخشنة المعفرة ببقايا البارود والتراب كانت تلمس جرح ذراعها، يطبع بألم تمكن من أوردته دماءها داخل كفه، أنّت أخيرًا بوجع وهي تناظره بذهول وكأنها للتو تستوعب جرحها، اندفع بعدها في لهفة يخلع قميصه ويمزق طرفه ثم لفه كاتمًا جرحها موقفًا نزيفها.

وقبل أن ينسحبا كانت أنامله تحيط بفكها ثم همس من خلف لثامه:

– أتعلمين ما الأكثر وجعًا مما نعيشه؟ أننا اعتدنا فعلًا الدماء والرصاص وتساقط الشهداء، حتى اختلطت مشاعر الموت والحياة داخل أفئدتنا.

أوقفها بعدها خالعًا من بين ذراعيها رفيقتها بالقوة، لم يتردد بعدها مرتين أن يحمل الجثمان الطاهر بين ذراعيه ويندفع راكضًا معلقًا سلاحه خلف ظهره نحو منطقة آمنة حريصًا أن يراقب حبيبته التي تلاحقه في مدن الأحزان، وقلاع ثكلى ستحتل بلدتهم اليوم، بأعلامها المطلية بدماء أبنائها.

وهناك وفي تلك اللحظات الغاشمة نفسها، كانت لورين أو لوسيرو كما عرفوها، وكم فرض عليها الزمن الظالم هوية لا تنتمي إليها لا روح ولا جسد ولا قومية، تساعد بكل طاقتها، تتنقل هنا وهناك ما بين الموتى والجرحى، العين تذرف الدمع دون توقف، والقلب المجروح المشتاق بلوعة الحرمان دون وصال بعد طول سنين الفرقة، ينتفض غائرًا بجراح لم ترممها الأعوام، شاعرة مع كل جسد شاب تقترب منه تضمده أو توقف نزيفه بنزيف روحها.

«تُرى هل هو هنا، هل يكون بينهم، هل لمسته الآن، أنقذت روحه، أم أنها فقدته كمن فقدوا دون أن تدرك؟».

زادت همجية العدوان، وأبواب الجحيم فُتِحت على مصراعيها، طيور الموت تغرد بقصفها محلقة بحمم تلقيها على رؤوسهم، إلا أنها رفضت التحرك، لم تنصَع للحظة واحدة لصراخ ذلك الرفيق الذي أدخلها بلادها الحبيبة التي كانت محرمة عليها، بوسائله الخاصة، عند قال:

– كفى، لقد قمتِ بما يمليه عليكِ ضميركِ.

كانت يداها تعملان سريعًا، تخترق الجموع التي تراصت حولها، مشرفين على الضحايا الذين لم يجدوا مكانًا لهم إلا وضعهم على الأرض العارية، منجزين ما يمليه عليهم دور الطبيب، بما استطاعوا إنقاذه من تلك المجزرة.

اندفعت لورين نحو إحدى الطاولات المتواضعة التي تراصت عليها الأدوية والإسعافات الأولية، واختطفت شاشًا نظيفًا ومقصًّا، ثم عادت وانحنت على الأرض لتمنع نزيف رأس أحدهم، شعرت بيد الرجل تجذب مرفقها وهو يقول بصرامة:

– أنتِ يجب أن تخرجي من هنا والآن، بإرادتكِ أو رغمًا عنكِ.

شدّت يدها منه بقوة تنظر إليه نظرة سوداء متَّهمة كأنها ستحرقه:

– لن أتركهم، لأن سيادتك تخاف على منصبك وصورتك.

صرخ الرجل فيها:

– أي منصب وأي جنون؟ لقد أدخلتكِ بصفتكِ زائر سلام فقط، إن عرفوا بأنكِ تقدمين العون لهم، لن تمر على خير.

تمتمت بحنق دون أن تنظر إليه منهمكة في إنقاذ مريضها:

– لن يستطيعوا المساس بي، اطمئن.

قال الرجل بقسوة:

– حمقاء كما توقعت، أنتِ دخلتِ عن طريق الحدود المصرية، متخلية عن حماية جنسيتكِ الأصلية، أي إنكِ لا تملكين ما ترمين إليه.

وقفت لورين سريعًا مساوية جسدها بشموخ، ثم نظرت إليه بجمود ساخر وقالت:

– ومن قال إني أعتمد عليها أصلًا يا تميم؟ هدفي من القدوم إلى هنا أنت تعرفه يقينًا، ولن أتحرك إلا عندما أعثر على مرادي، حتى وإن أجبرت أنت على العودة بي جثة هامدة، كما أبناء جلدتي.

«تبًّا».. هذا كل ما استطاع قوله، مغلقًا سترته الحامية من الرصاص، تبعها:

– إن من الغباء أن أصطحبك إلى هنا، ألم أكن أعلم بالفعل مدى تطرف مشاعر العائلة؟

عادت لورين مرة أخرى وهي تشير لذلك الملثم إلى المكان الذي يضعون فيه أجساد الشهداء، منتظرين قدوم سيارات الإسعاف ونقلهم، في حين أجلست رُفيدة أرضًا ثم جثت على ركبتيها تحل ذلك الرباط عن ذراعها، تتفحص الجرح بعناية وعملية:

– ما سأفعله الآن تعلمين بأنه سيؤلمكِ.

أجابتها بنبرة شاردة كما وجُع قلبها المفطور عندما قالت بصوت أجش:

– مهما كان ألمه، سيزول بمسكن، إلا أن ألم رحيل رفيقتي لن أجد له ما أعزي به نفسي أو يسكن ألم فراقها.

صوتها الخشن المتحشرج خرج برثاء:

– أنا آسفة من أجلكِ يا رُفيدة.

هتفت من بين أسنانها بخشونة علّها تداري انهيارًا لا قدرة لها على التحكم فيه:

– أسفكِ لن يعيدها، أسف العالم لن يعيدها، تعاطفهم وتنديدهم الذي مؤكد يغرق الإعلام والصفحات الاجتماعية، وهم يبكون ويرثون ويكتبون مقالات من فوق أرائكهم متنعمين في منازلهم، لن يفيدنا في شيء، ولن يعيد رزان لنا.

قصّت لورين كُمّ سترتها، ثم شرعت في تطهير الجرح من بقايا (الخرطوش)؛ ما جعل رُفيدة تطلق صرخة مكتومة محملة بأنين ليس لإصابتها فقط، ولكن نعيًا لاكتوائها بنار رؤية الأجساد المسجاة هناك، والأعداد التي تتساقط دون أمل في نجدتهم، سمعت لورين تقول بجمود:

– أنتِ محقة، مهما فعلوا، ومهما فعلنا نحن لن نعيد الأحبة، ولن يطفئ نار تهجيرنا ونكستنا إلا الانتصار والعودة.

الصمت ما قابلها، إضافة إلى اهتزاز أعلام سود تضيء في قلب العتمة:

– من أنتِ؟ لا أرى في روحكِ غربة، ولا أشتم في هويتكِ فرقة.

اهتزت بالكامل، حتى يداها الثباتتان اللتان لا تنكر أنها كانتا تصيباها على مدار الأيام الماضية بالغبطة والرهبة في مهارتها كانتا تهتزان، عيناها اللتان ذكرتاها بألوان الحداد كانتا تكتمان دموعًا أخرى أبت أن تهبط، وكأن سؤالها المفعم، أحدث جراحًا غائرة صهرتها، قالت أخيرًا:

– أنا الصرخة التي عبرت الحدود، وقفزت على خط النار، أنا الروح التي تعرضت لحرب إبادة لم يبقَ منها إلا شظية حادة تجرح ولا تداوي، أنا قضية كل نازح يحلم بالعودة دون أمل، أنا من اعتقدت بأن قدميها اللتين أُحرقتا في الصحاري عند نزوحها ستُداوى سريعًا بماء بحر يافا، إلا أني لم أعد، والحرق لم يُطبَّب أو يُداوَى، أنا الصوت الذي يكرر بثورته وصراخ وجعه وندمه: ليتنا ما خرجنا، ليتنا ما غادرنا ولا تركنا. إلا أن صدى جروحنا، لا يتردد إلا داخل صدورنا وصدور من يشبهنا.

****

كان الوقت قد تعدى الصباح، ووصل إلى ذروة الظهيرة، حرٌّ لا يُطاق، شخوص تهوي دون حصر.

الانهزام كان يلوح ببشاعة، والمعاهدات من السلطة وقوات السلام الدولي، تضع بنود هدنة مكروهة للطرفين، يحاولون لملمة جراحهم بنفسهم، ونعي شهدائهم، وإحباط أمل انتفاضة أخرى بكل رعونة، فيصيبونهم بالخذلان والحرقة، أين الحرية؟ أين الهتافات التي كانت تزلزل بقاع الأرض: «على فلسطين رايحين شهداء بالملايين»؟!

لقد اندثرت الشعارات الحماسية، ولم يبقَ إلا شعبها المطحون المكبل في وجه الطاغي.

– أين جفرا؟

كانت رُفيدة تتلفت حولها برهبة تشق طريقها في الزحام محاولة لمح من غابت عن عينيها وتفكيرها وسط كل هذه الأحداث الدموية.

كان التدافع في تلك البقعة الآمنة بلغ أشده، وقد توقف الرصاص منذ برهة، إلا أن رجال المقاومة ما زالوا على خط النار، يحمون ظهورهم ويجلون آخر من وُجِد هناك، لورين وبعض من الأطباء والممرضين أيضًا كانوا يتناولون منهم الناس.

لم تدرك رُفيدة ولم ترَ تجمد وذهول لورين هناك في موقع فاصل بين الأشجار الكثيفة وستر الحواجز الخراسانية التي تفصلهم عن المعتدي الذي يحيطهم فيما يشبه نصف دائرة، لم يرَ أحد ما جعل لورين تدق في أرضها كالمسمار تنظر بذهول بلغ أشده من الصدمة، عندما لمحت بأم عينيها اندفاع جفرا ناحيتهم، يحرسها جنود العدو!

– أنتِ خائنة، جاسوسة زرعت بيننا؟!

همست لورين بنبرة آتية من عمق الجحيم، والتقطتها جفرا التي اندفعت نحوها مرتعبة، منتفضة وكأنها تلقت ضربة على رأسها أفقدتها كل ركيزتها:

– لا، لا، أرجوكِ اسمعي.

ولكن لورين لم تلحق أصلًا أن تصرخ منبهة بكل شيء يخرجها من فكي الرحى الذي وقعت فيه، عندما أدارت عينيها نحو الصوت العميق العنيف والعينين اللتين شابهت عينيها وحملت بصمتها الجينية، يحدقان إليها من خلف لثام يأمرها بمساعدة الجريح الذي بين يديه، لم تنتبه للجريح أصلًا، ولم يعد في عقلها لا قضية ولا خط نيران تقف فوقه، حتى الخائنة لم تعنِها، عندما اندفعت بانفعال ودون تفكير، منجذبة بمشاعرها وحرمانها، بلوعة فراق نال منها وقسَّى فؤادها لأعوام طالت حد اليأس، يداها كانتا ترتفعان ودون لحظة تمعن تجذب ذلك اللثام عن وجهه!

فغرت فاها بذهول، وتوقف تنفسها وتأزم الهواء في رئتيها، تساءلت:

– كيف للإنسان أن يتنفس أصلًا؟ كيف كانت تقوم بهذه العملية الحيوية لتبقى على قيد الحياة؟ لماذا قد تفكر في هذا الأمر الآن وقد وصلت إلى المنتهى؟

ها هي تتأمل الوجه الحبيب، التقاسيم التي كانت تقضُّ مضجعها فتصيبها بسهد الليالي الطويلة، في حين أن الشاب الطويل وسيم الملامح عميق العينين، ينظر إليها كبقعة ضوء تنير عتمة قد طالت ما يقارب العشرين سنة، عمر فوق العمر أصابها بالشيخوخة والهرم قبل أوانها، أما هو فشحب شحوبًا مهولًا، ينظر إليها ببرود تخلل أعصابه، قلبه كما أضلعه أصبح شيئًا هُلاميًّا يصعب مسكه ويستحيل إعادته لحالته الصلبة، قال:

– لورين!

شهقت لورين بصوت مسموع غلب ألف فوهة مدفع، شهقة عاتية أتت من أعلى قمة جبل تلف بصداها الجراح الساكنة فتشعلها ثم تضمدها ببلسم أُرسِل كمنحة من رب العالمين على جناح ملاك هبط من الجنة:

– عيسى، حبيبي عيسى!

الأرض التي مادت تحت قدميه لم يشعر بها وحده، لم ينتبه لحمزة الذي اقترب من إيليا ينظران لكليهما بتعجب وبعضٍ من التخوف، لم يحس بأيديهم الحازمة التي أخذت الحمل عن كتفه ثم فروا به راكضين، لتصبح ذراعاه الآن خاليتين إلا من اندفاع تلك المقهورة لترتمي بينهما، تلف نفسها حوله، ذراعاها تنهشان صدره وكأنها تستكشفه، فمها لا يستنكر أو يخجل من إغراق وجهه بدموعها كما قبلاتها، في حين أنه كان في حالة من عدم الاتزان، من الرهبة وبرودة الموقف، الذي سرعان ما تحول لكتلة من المشاعر تصهر، ساعداه القويين يحيطان ظهرها، سنون مسننة من شظايا الوجع تدفع فؤاده كي يضمها ليسكن لوعته ولوعتها بسماعه نبض شريانها:

– لورين، هل أنتِ هنا؟ كيف؟ يا الله...

شهقاتها الناعية كانت تصم أذنيه، كما آذان من جذبوا انتباههم، أنفاسها تلهث حرفيًا، وكأنها تتسلق أعلى قمم جبال خلا سطحها من الهواء، وعيها لا يصدق أن كل خيالاتها التي أحرقتها لسنين استحالت

حقيقة.. ها هي تراه، تلمسه، تحتضنه، وكأن الأعوام لم تفرقهما، وكأن حزن النزوح لم ينل منهم، ولم ينل المهجر من أرواحهم بفرقتهم.

قالت:

– عيسى، حبيبي.. هل عَثرتُ عليك فعلًا؟ رباه.. حلم لقائك بات حقيقيًّا بين ذراعي، أم أني أصبت ومت وأنا الآن في جنة الخلد أتنعم بلقائك؟

لم يُجب شاعرًا بعجزه عن التعاطي، في حين أن الحقائق التي جعلته يتمسك بإبعادهن بعد معرفته بتجمعهن تتوالى من طيات النسيان تصفعه دون رحمة، للحظات أخرى سمح كنان لنفسه أن ينعم بها، بأن يتواصل مع نبضها، أن يمنحها دفئه وحضن توأم روحه، سكن ومأوى للروح التي اشتاقت حد الجنون، للقلب الذي جرب مرارات الفقد والحرمان بتوحش أهلكه.

ظلت ساكنة في حضنه جسدها يرتعش برهبة اللقاء، تمرغ أنفها بكتفه، عيناها مغمضتان لتخزن هذه اللحظة في ذاكرتها للأبد.

همستها جفرا التي تراقب المشهد باحتراق وضياع:

– عيسى من؟ أليس هذا كنان المسكين نجار القرية؟

الصدر الملهوف تبدل، والملامح المنهكة بعنف اللقاء انمحت، والذراعان اللتان ضمتاها حد قسْمِها ارتختا وتوحشتا، أبعدها عنه بجبروت اغتال كل دفاعاتها، تركها مجرد ريشة في مهب ريح عاتية، عيناها الأثيرتان تنظران إليه بتوسل قتله دون جنازة.. دون صلاة تصحبه إلى عالمه وتؤنس وحدته:

– عيسى؟!

هدر غاضبًا خائفًا، وهو الذي لم يكن في موقف ضعف قط، وقد حرص على إبعاد من قد يستغلونه ضده بعيدًا، فحرم نفسه من لذة اللقاء، وفرض عليها قسوة الفرقة:

– ما الجنون والتطرف الذي دفعكِ إلى أن تأتي هنا؟

ارتعشت وهي تضع أناملها على فمها تنظر إليه من بين رموشها الكثيفة التي حملت دموعًا عاتية:

– لقد أوقفت عمري وحياتي، جمدت قلبي ومشاعري، من أجل لقياك أنتَ، عيسى كيف تفعل هذا بي؟ لقد ظننت أنك...

اندفع عيسى يحيط وجنتها بيد واحدة، ينظر لعينيها بصلابة، ثم تمتم بصوت جامد:

– ظننتِ ماذا؟ أن وعد الصبا قد يعود بلقائنا، بأن شتاتنا قد يلتئم أخيرًا؟ بائسة أنتِ إذن، عمياء إن ظننتِ هذا، غادري حالًا ولا تعودي حتى تري كلمة الله بأعلامها ترفرف بسمائها يومًا.

هزت رأسها رافضة بشدة وهي تصرخ من بين شهقات قلبها المفطور:

– لا، لا، أنتَ لن تبعدني يا عيسى.

عاد صوت جفرا يصدح بجنون وذهول، تهتف كمن أصابه مس شيطاني:

– من عيسى؟ ومن ذلك المجنون الذي اختطفني؟ وأنتِ أليس لديكِ زوج وابنة؟ وها أنتِ تتوسلين النجار ليقبلكِ؟ أين أنا؟ في أرض الكوابيس، أم في جهنم؟! كنان ليس بكنان، ومؤكد هذا الحمزة ليس بحمزة، حتى الجراح هنا!

راقبتها الأعين ما بين قلق وترقب، وقد كشفت الغريبة بمنتهى الوضوح قناعهم وربطت الأحاجي في بعضها.

التفت كنان نحو لورين وقد علم أن لا وقت أمامه للملمة هذه الكارثة، أعاد سؤاله المحترق:

– من أدخلكِ هنا وجاء بكِ لأتون الجحيم؟

– أنا يا كنان.

صوت بارد كبرودة جثة تطفو على سطح الماء كان صاحبه ينظر إليه بعينين صلبتين ومخيفتين.

شعر بتوتر الأجواء من حوله أكثر مما هي بالفعل، وبدأ اشتباك لا محالة قد يخلف قتيلًا دون تردد، سيتمثل في الذي أمامه.

سأل كنان بصوت غريب بطيء:

– كنت تعرف إذن؟

ساد صمت مهيب في حين أن الأعين تتنقل بينهما بترقب، حتى قال تميم أخيرًا بصوت ماثل نبرته غرابة:

– السؤال يعد أضحوكة خاصة أنه صدر عنك.

اندفع أحمد نحوه ببوادر اشتباك عنيفة يضربه بمؤخرة سلاحه في صدره حتى تسبب في تعثره خطوات للخلف:

– ما الذي تفعله هنا يا عميل؟

كان صوته باردًا كالزجاج وهو يرفع كفيه باستسلام مغيظ، قال ببساطة:

– أتيت بها لغايتها، عذرًا يا رجل، لم أقدر على مقاومة إغراء صفقتها.

– نجس.

تمتم بها أحمد بقرف، قبل أن يشعر بجنون التي كشفت هويته تمامًا أمام العديدين، ومنهم المستفزة ابنة عمته.

شد كنان على يديها وجرها خلفه، ودون تفكير كان يدفعها نحو تميم، وهو يشير بيد محذرة صارمة:

– خذها من هنا، لا أريدها أن تبيت ليلة واحدة داخل هذه الحدود.

صرخت لورين بعنف مقاومة يدي تميم، حيث تمسكت في ساعدهما ككماشة، محاولة أن تميل بجسدها نحوه علها تطاله وتنعم بحنانه لبرهة أخرى تسرقها من زمن معاناتهم:

– لا، عيسى، لا تفعل بي هذا، ليس بعد كل هذا تحرمني من الأمل.

الجرح في صوته كان واضحًا، بلمعة دموع رجولية لا يخطئها ناظر:

– ارحلي، ولا تعودي، ابحثي عني داخل طفلتكِ، عوضي فقدي بحنان والدكِ وأمان زوجكِ.

كان تميم يجرها معه متراجعًا للوراء، وهي تقاوم باندفاع وصلابة وقد غاب عنها عقلها، تنحني بقدِّها للأمام رافضة المسافة التي ماثلت دروبًا من الأشواك.. تستطيل لتقترب منه:

– أريدك أنت، أرجوك، أنت لا تعرف ما فعلته، لن تفهم ما قدمته ثمنًا لرؤياك، عيسى أنا أتعذب، ولا أجد سلامي.

أنامله كانت تنغرس في شعره بقوة، يجذبه باضطراب وقسوة عله يمنع أنين قلبه ودموع المرارة:

– لماذا أتيتِ؟ لمَ سعيت لنكرر مشهد الفراق؟

– عيسى، حضن أخير، مرة أخرى ضمني إليك وأعدك ألا أقاوم، أن أنسحب وأنفذ كل أوامرك، أرجوك من أجل نسرين.

تصلب عيسى وهو يراقبها تبتعد وتبتعد، واسم أمه المفقودة يذيب عظامه حد التبعثر، لم يفكر مرتين والفؤاد ينصاع لتوسلها، وبماذا يفيد الرفض والروح تهوي تلبية لندائها، وماذا يفعل الحرص وقد كشف الستر وسر سنين طويلة تَنكّر فيها لاسمه ومحا هويته وإرث جده عله يحميهم قبل نفسه.

بعض البشر يهبطون إلى الدنيا كالتاريخ، لا يعاد ولا ينسى، وهو أراد تجديد تاريخ الأمل، ويلبي نداء أمة لا تنفك تستجير ببطلها الذي اغترب.

عندما حضنها هذه المرة بين ذراعيه، لم تخفَّ حدته عن سابقتها، بل زادت بلوعة معرفة التغرب من جديد، فضاعت وتاهت كل المعاني في أسر الشوق، وتحررت أسمى معاني الحب في حبهما.

همس جانب أذنها بصوت أجش مودعًا:

– أَتركُ حملي أمانة فوق كتفيكِ، لا تفرطي فيهم.

تمتمت لورين من بين شهقاتها المفطورة:

– أتركك كلك أمانة لديك، احمِها بروحك يا بضع روحي، احفظها لي على أمل لقاء آخر.

عندما انفصل عنها هذه المرة باذلًا جهدًا خرافيًّا، شعر بأنفاسه تُختطف منه بقسوة الحرمان، مجددًا كان يقول بنبرة استطاع اقتناص بعض التوازن فيها:

– أَعِدها إلى الأرض التي أتت منها، ولا تجعلها تعود.

أمسكت لورين مرة أخرى بذراعه وهمست بارتجاف في أذنه:

– تلك الفتاة، احترس منها.. فقد رأيتها معهم، أمَّنُوها وقت ضرب النار علينا ثم أعادوها بعد أن هدأ كل شيء.

ابتعد تميم أخيرًا عنها ينزعها من أمامه، راقبها بعينين كالزجاج تندفع داخل سيارة مصفحة تحمل أرقامًا مؤمنة يعرف جيدًا أن لا أحد من الأوغاد يستطيع لمسها، وقد حملت عبارة «حماية عبرية».

ثم استدار ببطء ميت وملامح مغلقة خالية من كل المشاعر، وكأنه لم يكَد ينهار من فرط أثر لقاء الحبيبة لتوه، قال أخيرًا دون تعبير وهو يعيد لثامه فوق وجهه:

- جفرا سترافقنا إلى مكاننا.

توسعت عينا جفرا وقد بات الذعر الآن جزءًا يتأصل فيها شيئًا فشيئًا ولن يرحل عنها، تساءلت بارتجاف:

- أرافقك إلى أين؟ ولماذا؟

اقترب كنان منها ببطء خطوة خطوة كأسد يحاصر فريسته عديمة المنطق والتدبر حتى انقضَّ عليها أخيرًا فارضًا حصاره، يمسك ساعدها ويُكمم فمها بحطته ثم دون انتظار.. كان يندفع إليها يجرها وراءه قبل أن ينتبه أحد لهم، فليحمد الله أن هذه البقعة لا يوجد فيها كثير من المتلصصين، وبالطبع انشغل الجميع وسط تلك المذبحة كلٌّ في مصابه، أما كل ما يشغل عقله الآن أنه إن خاطر هو بنفسه فلا يملك حق المخاطرة برفاقه.

تبًا للظبية الشاردة، من أين أتت؟ ولماذا وُضِعت في طريقه؟ هل لورين محقة؟ ولماذا قد تكذب؟ يبدو أن حلمك أصبح واقعًا يا عيسى، وها هي الظبية تظهر لتخط بيديها نهايتك.

«تُرى هل أنا مكشوفٌ فعلًا لهم وهي وسيلتهم للوصول إليَّ واغتيالي؟»

****

الفصل الثالث

كان يقف على سفح الجبل أمام مغارة صنعتها الطبيعة، وصقلها الأجداد فتركوها إرثًا للحماية، وكأن تاريخ الصراع الطويل منذ أن وجدت القبائل العربية فلسطين وسكنتها وعمرتها، كانت تعرف بحاجة نسْلهم إلى هذا الستر بعيدًا عن عين أي جبان قد يصعد هنا ويدنس قدسيتها، كما دنس بيت المقدس بأقدامه الهمجية.

شفتاه كانتا تنفثان دخانًا غير مرئي، بطيئًا ومخيفًا، في حين يراقب السماء التي شوهت صفاءها غيوم حالكة تستر وراءها نور الشمس الذي يجلي عذاب البشر البائسين، وكأنها بلونها الممزوج بين الأصفر والأسود أعين تبكي وتنوح، ترثي قلوب الأمهات الثكالى اللاتي تسلَّمن جثامين أطفالهن وشبابهن.

هذه الأرض المقدسة تشبعت بدماء أبنائها، ارتوت من أجسادهم الراقدة تحت التراب، ألم يحن الوقت لقطف ثمار حرثهم؟ أم أنها ما زالت جائعة للمزيد من ورد شُبانها؟

– كنان، أنا أرفض ما يحدث، ابنة عمتي لن تظل هنا دقيقة واحدة بعد الآن.

استدار كنان نحو الصوت المنتفض بغضبه، ينظر إليه بهدوء شديد ثم إلى الوجوه التي تراقب قراره بترقب وقلق، قال أخيرًا:

– أنا أيضًا أكره ما حدث يا جراح، ولم يطرق على عقلي أو يداعب خيالي يومًا أن نكون نحن من نمد يدنا ونختطف امرأة.

قال أحمد من بين أسنانه:

– لم أجادلك هناك، ولكن الآن أُصِر على أن آخذها وأرحل، ولن أستمع لأي حجج.

فتح كنان ذراعيه علامة على قلة الحيلة متمتمًا:

– إن كان الأمر يخصني وحدي وأنتَ فلن أمنعك، إلا أني لست مستعدًّا للمخاطرة بهم، لقد كشفتنا جميعًا.

أشار بيده بتلكؤ نحو وجوه الرجال المحلقين حولهما في دائرة.

اقترب أحمد خطوة ثم مال بجذعه قليلًا وهو يهمس بخطورة:

– أتعلم ما سيكلفك بل ويكلفنا إن وصل هذا الخبر إلى المجلس العشائري؟

– نعم.

صاح أحمد:

– لمَ يبدو لي أنك نسيت؟

تدخل أحدهم محاولًا أن يهدئ من عصبية الجراح؛ حتى يستطيعوا جميعًا إيجاد حل لا يوقعهم في خطأ، ولا يضعهم في خطر كشف هوياتهم:

– كنان يعرف –يا أحمد– الحكم العشائري في أمور النساء بالذات.

التفت إليه أحمد بحدة ثم قال صارخًا:

– جيد أنك تذكر، سنتعرض جميعنا مع أُسَرِنا للطرد من البلد، ودفع أموال تفوق الخيال.

وضع إيليا سلاحه على الأرض ثم جلس ينظر إليهم بملامح مغلقة، وقال مصدقًا على كلام أحمد:

– كما كل واحد فينا سيكون مجبرًا أن يلف منزلها والمنازل المجاورة بحرير ناصع البياض يقر بذنبه، ويعلن طهر شرفها وعائلتها.

ضحك حمزة بتهكم مشعلًا الجحيم في عيني أحمد عندما قال:

– تتحدثون وكأننا اختطفناها من أجل أمر شائن.. ألم تضعوا في الاعتبار أنها غريبة؟ لا نعرف سبب وجودها ورغم ذلك كشفت هوياتنا، وعرفت ما لم نعرفه نحن لسنين عن كنان.

اقترب منه أحمد بِشَرٍّ، إلا أن إيليا وكنان أسرعا للفصل بينهما قبل أن يلمسه هاتفًا بجنون:

– اتركني أدفنه هنا، من هي الغريبة؟ إنها ابنة عمتي، ابنة البلد، وهي تحت حمايتنا.

قال حمزة بصوت مقيت:

– أنت نفسك مهجر نازح، سيد أحمد، ولست من مدينتنا.

شحب وجه أحمد بقوة، في حين تسمّر الرجال مكانهم من صدمة التلويح علنًا بأمر لم يتطرقوا إليه يومًا منذ أن تلاقت طرقهم التي جعلتهم فدائيين رافضين الانتماء تحت علم أي حزب أو جبهة معينة، لا يوحد بين جهادهم إلا الرغبة في الدفاع عن أرضهم الحرة، رافضين مزاعم الرضا ومعاهدات السلام مع العدو.

– أتعايرني؟!

قال حمزة مصححًا سريعًا:

– بل أذكرك، ليس معنى رضا بعض الأُسَر بوجود اللاجئين بينهم، أن الجميع يتقبلهم، أنت تعلم هذا جيدًا.. كما تعلم أن ما يؤخرك حتى الآن عن زواجك هو رفضهم مصاهرتك، فهناك جزء معارض لمنحك ابنتهم، وأنتَ لست من أبناء القرية.

في الواقع الضربة التي تلقاها حمزة على وجهه لم تكن من أحمد الذي ثار جنونه، إذ كانت يد إيليا أسبق إلى وجهه.. تقهقر حمزة للوراء خطوات وترنح جسده، إلا أنه اعتدل سريعًا ينظر إليه بحقد بلغ مداه، فتدخل كنان قائلًا بصرامة لا تقبل النقاش:

– هذا يكفي، دكتور حمزة يمكنك ترك سلاحك والانصراف من هنا.. أما عن هذا الأمر فسنجد له أنا والجراح حلًا يرضي جميع الأطراف.

للحظات ظل كل واحد منهم على تحفزه، حتى ألقى حمزة بسلاحه أرضًا وانصرف يحفر الأرض مخلفًا غبارًا وراءه.

استدار كنان نحو أحمد المتصلب:

– هل يمكننا النقاش بنوع من العقلانية؟

– أي عقلانية، كيف لي أن أرضى باحتجازها مع الشباب؟ إنها عرضي.

ابتسمت ملامح كنان وهو يمسكه من ذراعه يجره معه نحو باب المغارة، ثم قال في ثقة:

– تعرف أني لن أمس عرضك.. ولكننا نحتاج إلى الهدوء، ومعرفة حقيقة ما قالته الطبيبة.

هدأت انفعالات أحمد قليلًا عندما زفر نفسًا مكبوتًا وقال:

– على الأقل من حقي معرفة مَن الطبيبة، وطبيعة الهستيريا التي رأيتها.

انتفض عرق بجانب فم كنان الصارم ثم قال بجمود:

– هذا ما لن أبوح به، وإن كان الثمن موتي.

قال أحمد بحيرة تتخللها المداعبة:

– حب قديم؟!

نظر إليه بعاطفة تخنقه مجيبًا دون مواربة:

– حب الصبا، عشق سامٍ وفطري استوطن قلبي من قبل مولدي ومولدها.

رفع أحمد حاجبيه محدقًا إليه بدهشة عاجزًا عن الفهم أو الإجابة لتلك القصة المعتمة.

– أخرجوني من هنا، يا همج سأقلب عليكم العالم أجمع، سأفضح أفعالكم، هذا إن لم أقتلكم قبلها.. أيها الـ...

الصوت الصارخ الذي أتى كبحر هائج من داخل الحاجز المسيج الذي يضعونه، جعلهما ينتفضان من أفكارهما.

نفض كنان وجهه وهو يرفع إصبعه ليدخله في أذنه وكأنه يحاول تنظيفه من سيل السباب الإنجليزي والعربي الذي انساب من فم المستفزة.

امتقع وجه أحمد شاعرًا بحرج بالغ وهو يتمتم:

– لا أعرف ما الذي كانت تفعله ابنة عم والدي في أثناء تنشئة تلك المتهورة!

توسعت عينا كنان واحتل وجهه المرح ثم قال:

– كنت سأطرح عليك لتوي السؤال نفسه.

– إذن ما خطوتك القادمة؟

حك كنان رأسه بحيرة بالغة، كما استوطنه حرج مرح وهو يقول بجهل مضحك:

– لا أعرف، ما الذي قد يلجم تلك المصيبة التي أوقعت نفسي بها، رغم أني أملك خطة أولية.

عقد أحمد حاجبيه وهو يستفسر بتجهم:

- ما هي؟

قال بتلاعب:

- غسل فمها بالماء والصابون كبداية، وبعدها خياطته إلى الأبد.

****

عندما دخل إليها بعد أن استأذن أحمد ليسمح له بالحديث معها منفردًا، كان يبصر التصاقها بأحد أحضان جدران المغارة، ترتعش لا إراديًّا رهبةً وغضبًا مقترنًا بالكثير من الذهول مما يحدث، وقف كنان على بعد خطوتين منها يعلق سلاحه خلف ظهره، يضع يديه في جيبي بنطاله والكوفية التي كانت تغطي رأسه استرسلت على كتفيه.

- ماذا؟ هل قررت قتلي، أم ستأخذني ورجالك سبية؟

ارتفع حاجباه بدهشة والتوى طرف فمه بتسلٍّ، فقال مجاريًا إياها:

- أمر قتلكِ لم يُطرح بعد، أما عن موضوع السبية فهناك مشكلة تكمن في أن لا أحد من الشباب يرغب بكِ زوجة ولو لليلة.. تفريغ سلاحه بالكامل في رأسه أهون عليه من الاقتراب منكِ.

اشتعلت عيناها القويتان في محجريها بوهج متطرف رادة بحرقة:

- إذن.. ربما قائد هذه العصابة الهمام قد يضحي بنفسه ويفدي رجاله، أليس هكذا تسير الأمور دائمًا في عصاباتكم الإرهابية.

ارتفع حاجباه أكثر حتى لامسا مقدمة رأسه ثم قال بحيرة:

- بالله عليكِ هل أنتِ مقتنعة بأننا ننتمي للمتطرفين الذين تشيرين إليهم؟

تمتمت وهي تشيح بوجهها بعيدًا وكفاها يتقبضان بتصلب وراءها:

- لا أعرف من أنتم، وبتّ لا أعرف من أنا، ولماذا قدمت إلى هنا!

صمتت لبرهة قبل أن تبتلع ريقها الجاف وهي تقول بتهكم مرتعش:

- منذ أن لامست قدماي هذه الأرض وأنا أشعر وكأني في بلاد العجائب.

لم يتحرك من مكانه، إلا أن السخرية ازدادت على ملامحه وهو يقول:

- إذن لقد وقعت أليس في جحر الأرنب، وحتى تخرج منه عليها أن تكتشف الدور الذي خلقت لأجله.

نظرت إليه بخيبة هامسة بانهزام:

- لم أعد أريد اكتشاف شيء، فقط كل ما بتّ أرنو إليه الذهاب لوالدتي ثم المغادرة دون عودة.

لم تفهم حقًّا سر توحش نبرته ولا غضبه، اللذان عبر عنهما بتكوير قبضته ثم ضربها في الحجر بجانبه وهو يقول من بين أسنانه:

- عجبًا تريدين بيع نصيبكِ من المسؤولية فترحلين تاركة خلفكِ فرصة يدفع غيركِ عمره لينالها؟

قصفته سريعًا:

– أو تنالها.. ثم تركلها أنتَ معيدًا إياها مكان ما أتت، أليس هذا ما تشير إليه بتشبيهك؟

همس بقنوط:

– أنتِ لا تفهمين شيئًا.

اندفعت متخلية عن جدارها الحامي صارخة:

– وأنت لا تعرفني، لم تعِش ما عشته أنا لتحكم عليَّ.

مال كنان نحوها بجذعه، وجهه قريبٌ من وجهها المرفوع بتحدٍ أمامه، وقال بخفوت:

– وما الذي عشتِه أنتِ؟ والدة تعمل معلمة براتب محترم، والد افتتح بقالة حتى يوفر للأميرة جفرا كل ما تريده، بيت راقٍ مجهز بكل سبل الأمان، سقف يسترها ليلًا بين أحضان أبوين محبين، ومدارس وثقافة ضللت المتبقي من قوميتها.

توسعت عيناها بصدمة، يبدو أن المسكين ليس مسكينًا بل ثعلبًا داهية وضعها تحت المجهر، يعرف عنها كل ما لم تبُح به.

رباه.. هل هي مطاردة الآن من خبيثين تجهل تمامًا ما قد يريدانه منها؟ تراجعت مرة أخرى بحذر متضارب مع قولها الحاد:

– وبما أنكَ تجيد اللكنة الإنجليزية، وتعلم كل هذا، دعني أخمن أنك عشت ما عشتُه أنا تمامًا سيد كنان، أم أقول عيسى حبيب الطبيبة لورين؟

مطّ شفته السفلى دون معنى، وظل يحدق إليها بوجه غامض خالٍ من التعبير؛ ما استفزها فدفعها إلى أن تقول من بين أسنانها:

– لا إجابة، إذن ما توصلتُ إليه صحيح، نتيجة جمع واحد مع واحد، اثنان لا ثالث لهما.. أنت كبرت هناك مثلي وأتيت هنا لتعيش دور البطل الغامض.

عم صمت مهيب بينهما لا يتخلله إلا صفير حاد ومرعب يرتد بفعل الرياح داخل المغارة.

قال أخيرًا لتزيد صدمتها من الإجابة:

– جفرا المستفزة أذكى البنات بالنهاية، لذا ربما أحتاج إليكِ، وقد لا نلجأ لدفنكِ هنا.

عندما توقف يرمقها بغضب، انكمشت أكثر حول نفسها، كفها تُمسِّد ذراعها المكدوم برهبة حتى أردف أخيرًا بنبرته ذاتها:

– نعم كما توقعتِ، أنا أحمل الجنسية الأمريكية مثلكِ، أو كنت كذلك.. ولكني لا أشبهكِ، لم أكبر في رغد العيش ودفء الأسرة، بل أنتِ كنتِ من فئة الحلم المغوي، أما أنا فكنتُ مجرد ضحية لحلم واهٍ رُسِم ببراعة وتشويق مثير لأناس في الأصل هم حفاة عراة طُرِدوا وتشردوا على حدود البلدان، قُتلت أرواحهم وفارقوا جزءًا من إنسانيتهم مهجرين من أراضيهم، لاجئين إلى خِرَق بالية تستر ما تبقى من جيفهم في شيء

يُدعى خيام، نعم أنا كنت وأسرتي وآلاف مثلنا نقف بين الخراب متلهفين بانكسار لأي وعد وُئِد عقب انتهاء الخُطب العصماء، حتى حلقنا أخيرًا متعشمين في عهد آخر واهٍ سلب آخر عزة نملكها، محولًا الشظايا التي بقيت منا إلى رماد.

أغلقت جفرا جفنيها بقوة، متنفسة بصعوبة، تحاول ترجمة معاني كلامه لمادة مفهومة حتى همست أخيرًا بذهول:

– مخيمات.. تهجير، وهي ماذا قالت؟ آه اختطاف شرعي.. يا إلهي، هل أنتم...

صوته تجمد، عيناه انطفأت، قلبه المشطور تهشم لألف قطعة نُثرت تحت الأقدام عندما قال:

– نعم، نحن مَن مُنِحنا لجوءًا في ظاهره كل معاني الإنسانية، وفي باطنه حرب إبادة لكل ما ولدنا عليه، تفرقة أربعة أطفال بين الملاجئ ومنازل الغرباء، سجن والد بعد كسر كبريائه وأنفه، أما عن الأم فرميت في منزل مشردين حتى أصابتها الأمراض ثم ماتت بقلب شطره الحزن والقهر دون أن تحقق رغبتها الأخيرة والوحيدة بضم أحد أطفالها إليها.

فتحت جفرا عينيها ببطء تحدق إلى عينيه الفارغتين، قلبها يخفق بعنف متشربة تلك الرسائل المطوية التي يمنحها لها صامتًا ومباشرًا، تمتمت بضياع:

– عيسى.. أنا...

قاطعها بنبرة قاربت الهستيرية:

– إياكِ أن ترددي هذا الاسم حتى في خيالكِ.

ردت تلقائيًّا بعنف:

– من حقي أن أفهم النهاية.. على الأقل إكرامًا لهذا الاضطراب الذي ألقيتني فيه دون ذنب.

ضحك بتهكم قبل أن يقول:

– أو ربما لتكتبي تقريركِ الكامل وتمنحيه لهم.. وقد أوقعتِ أخيرًا الرجل الخفي الذي يطاردونه منذ سنين عاجزين عن كشف هويته.

بانت الحيرة جلية بوجهها سائلة بغباء:

– من هم؟ ولماذا قد يلاحقونك أنتَ بالذات؟

قال مستنكرًا:

– هل تمزحين؟!

أطلقت نفسًا مرتعشًا وهمست بتعب:

– لا، لقد كنت صادقة عندما أخبرتك بأني وقعت في أحداث غريبة لا أفقه منها شيئًا، كل ما رغبت فيه هو المعرفة، وربما النضال إن اقتنعت بموروثات أبي، أو لآخذ صورًا حصرية أعود بها لأمريكا وأندد

بالبشاعة التي تحدث لأكتسب شهرة سريعة ومدوية على أعناق هؤلاء الشهداء.

الآن.. بسبب ذهوله وحيرته، هل يرديها قتيلة حقًّا لما تقوله؟ ألا يكفيهم مدَّعو تعاطفٍ وأصوات فارغة تدَّعي قلقها عليهم وهم يتاجرون بقضيتهم وأرواحهم، أم ينقلب ضاحكًا محترمًا صراحتها؟!

– لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

– محتار في رد الفعل السليم معكِ!

صمت مرة أخرى، ثم سأل بفضول:

– حقًّا جفرا.. من أول مرة رأيتكِ فيها يحرقني سؤال: هل تفكرين لبرهة بحق الله قبل أن تفتحي جالب المصائب هذا؟

الهدوء الذي يتحدث به الآن استطاع أن يبدد أجواء التوتر والخوف لديها، لذا وجدت نفسها تسترخي مجيبة ببساطة:

– لقد قال والدي مرة بأني لا أنفع صحفيةً مطلقًا، أنا انفعالية أكثر من المطلوب، مندفعة بصفة مقيتة و.. و.. عاطفية بصفة خطِرة.

صوتها كان يتدرج بخفوت شديد في آخر جملتها وكأنها تتردد في إخباره بذلك الجزء عنها إلا أنها الآن وبعد ما باحت به قبلًا وأخبرها به منذ دقائق لا تعتقد أن هناك حواجز تفصلهما.

ظل كنان ينظر إليها بشعور مغلق حتى قال أخيرًا بصوت جمّد الدماء بعروقها:

– ما الذي كنتِ تفعلينه خلف حواجزهم؟ أجيبي دون كذب لأني سأعلم بالحقيقة عاجلًا أو آجلًا.

همست:

– لا أستطيع إخبارك.. بل لا قدرة لي على البوح، وإن بحت من سيصدقني؟!

– أنا سأفعل.

قالت بدهشة:

– ماذا؟

حرّك جسده المتيبس من وقوفه في خطوتين وقال بجمود:

– كما سمعتِ، تحتاجين إلى من يصدقكِ، وأنا هنا من أجل أن أسمع، لذا ابدئي وسنُقيِّم مدى صدقكِ من عدمه.

أطلقت زفرة نافدة الصبر وقالت بعصبية:

– عندما أعلم ما الذي أفعله هنا، ومن أنتم، ولماذا اختطفتموني بالأصل؟ عيسى أنا مللت من هذه الألعاب.. من ترديد الشعارات، هل تستعجب من تخبطي؟ حسنًا أنا مقتنعة الآن بأنكم الجانب المخرب، رغم كل ما رأيته.

إن كانت تتوقع صدمته أو ثورته قبلًا، فهي الآن حقًّا مصابة بالحيرة من تعبيره الفارغ، يحدق إليها وكأنه يرى مجرد هواء لا تأثير له أو عبق يطبع في عقله.

وعندما تكلم أخيرًا كان يصيبها بفاجعة أخرى، ليس رعبًا وإنما ذلك النوع من الأسئلة التي تُلقى على عقل غارق في ظلامه لوقت طويل جدًّا، حتى اعتاده وأَلِف التعامل معه، فبات تشغيل قبس الضوء وإغراقهم في النور ألم غير محتمل فيدفعك إلى التخبط:

– أين مفتاح بيت جدكِ، أين خيطكِ الأخضر، هل تملكين الطابو العثماني لبيت عائلتكِ؟!

شحبت بقوة حتى ماثل لون بشرتها لون الحجر الذي خلفها، وببطء كانت تهبط نحو الأرض حتى جلست تضم ساقيها لصدرها، رد فعلها كان غريبًا؛ لم يفهمها، تبعها يخلع بندقيته ليسندها إلى أحد الصخور ثم وازى جسده على ساقيه وهو يقول:

– بالطبع تجهلين ما أتحدث عنه، ومن أين لكِ بالمعرفة؟ يبدو أن السيد صالح لم يكمل رسالته معكِ للنهاية، واكتفى بذكر أطلال عنترية للتفاخر وليس ليزرع فيكِ البقاء على العهد.

همست بخفوت وهي ترفع رأسها من فوق ذراعيها:

– لا تذكر أبي بسوء.

قال بجفاء:

– أنا لا ألومكِ يا جفرا، ولا ألومه في الحقيقة، إذ إنه وَهَنَ مثل الكثيرين ببساطة، وارتضى بحياته الجديدة، وهذا أمر لا أملك محاسبتكِ عليه، إلا أني بالنهاية بشر وأحترق كمدًا عندما أرى العدو ينشئ أبناءه على الكذبة التي ابتدعوها، في حين أن بعض أجيالنا نحن يتخبطون لا يعلمون ما يريدون أو إلى أي جبهة ينتمون.

ترقرقت الدموع في عينيها، دموع ألم، وربما ندم، تَعَبٌ شديد تشعر به يشل أوصالها، قالت أخيرًا باستسلام:

– أريد الرحيل، من فضلك.

وقف كنان من مكانه ينظر إليها بطريقة غير مفهومة، حتى قال أخيرًا بخفوت:

– آسف يا جفرا، لا أملك حق المخاطرة بأسماء ووجوه كل من عرفتِهم.

قالت بنبرة غريبة:

– إن أبقيتني هنا سيثبت ضدكم أنكم بالفعل متطرفون مختطِفون.

قال بهدوء:

– إن حدث.. سأتحمل الأمر كله متهمًا نفسي أني اختطفتكِ لهوى في قلبي.

نظراتهما تشابكت لوقت طويل، عيناه تأسر عينيها في شعور مخيف، إحساس متوعد ومظلم وظالم يبث رهبة عجيبة داخل صدر كل منهما، همست بنَفَس صعب:

– هناك شيء يتوهج.

عبس بعينيه وكأنه يدفعها دون كلمات إلى التفسير.

منحته إياه بكرم دون استفاضة:

– حياتي كلها تلمع بين عينيّ منذ أول لحظة رأيتك فيها يا ظريف الطول.

رقت نظرة عينيه كما تبسمت شفتاه ببؤس وهو يهمس:

– لستِ وحدكِ في هذا، أنتِ لمحة نور تنبعث من الظلام الحالك، كالأمل الصحيح في الوقت الخاطئ يا ظبية.

لم ينتظر منها ردًا وهو يستدير على عقبيه يلتقط سلاحه، ثم غادر تاركًا إياها وراءه تُردِّد بِرِيق جاف:

– ظبية؟!

****

هل سمعت يومًا عن سماء حزينة تبكي وطنًا خسر أبناءه؟ أم أنك تحاشيت النظر لواقع مؤلم؟ أصبح كل العرب مكبلين مقيدين بعد أن كان الجاه والعزة يسكنان تحت أقدام خيولهم المغيرات صبحًا، تحوّلنا إلى أمم غارقة في غيابات الظلام والجهل، ربما جميعنا رأينا وسمعنا.. إلا أننا أصبحنا كغثاء السيل لا نفع منه ولا أمل، في نيران تقدح وتنفر ناهضة من الانكسارات التي توالت، وكيف نفعل إن كان المسؤولون أنفسهم باعوا قضية الشرف وروجوا لشعار أصبح المعظم يندد به حتى يواري خذلانه وسوء نفسه في مرآته:

«هم من باعوا أراضيهم، لماذا نكلف نفسنا الدفاع عنهم؟!»

انتهى وقت الكلام والإقناع وتوضيح الحقائق.. يكفينا الآن الصورة البشعة لسماء حزينة محملة بغيوم تمطر دمعًا على قلوب الثكالى.

استترت الشمس من كبد السماء، وأصبح اللون الضبابي يملأ الأجواء، تغيم بحزنها كما تغيم الأعين الحزينة الملتاعة إنما دون انكسار.

تودع شهداءها الأحرار، ترثي ذاك الشاب العشريني حلو الروح عظيم الأمل فترثي أمه نفسها والضنا بكلمات تشق الحجر الجامد حزنًا وتعاطفًا:

«مع السلامة يما، في الجنة ستنال مرادك، مع الملائكة ستهبط يومًا وتحرر أوطانك».

تبكي القلوب الحزينة، وها هو أب تَعِبَ وكبر، حارب وضعًا مقيتًا بكل ما حمل من قوة ليكبر وليده فيجعله سندًا يحمي شيبته، يرفع كوفيته ويلوح كالمنتصر نحو نعش ابنه الذي تُرِك وراءه طفلًا لم يكمل عامه الرابع، ورضيعة لم يمهلها الزمن ولا النذل الذي حكم أن يشبع من ملامحها، أن تعرفه وتطبع صورته في قلبها لتقتات بها من العمر الغادر.

«لن أنعيك يا ولدي، وكيف لي أن أفعل وها أنا أزفك على نعشك ووجهك مبتسم كالقِدِّيسين.»

جميع أولاد المكان كانوا هناك.. كل فرد سواء كان كبيرًا أو صغيرًا خرج دون تخاذل ليزف الشهداء لمأواهم، بعضهم ينهار على تراب الأرض المقدسة، غير قادر على تحمل الوجع الكامن في هذه الجنازة العظيمة، وآخرون يقفون احترامًا وإجلالًا لأناس تمسكوا بالأمل دفاعًا عن أعراضهم، عن أقداسهم وعن بيوتهم رافضين أن تدنسها القدم الهمجية، راجين يومًا أن يخرج منهم عمر آخر يحررهم من الغي، وتصحو النخوة في قلوب قد قتلت فيها الكرامة.

كانت رُفيدة تقف أيضًا وجسدها ساكن سكونًا مريعًا يثير العجب، في تناقض بين وجهها المرفوع بكبرياء تثير الغبطة، وعينيها الغزاليتين بدموعها المستفيضة دون توقف، تراقب بقلب موجوع نعشي رفيقة عمرها والطفل الذي فقد أنفاسه بين يديها، ربما الصورة ليست جديدة وقد اعتادوها! إلا أن الألم الحي سيظل ينبض في القلوب، لن يُمحى يومًا، بل يزيد مع كل فرد يسقط منهم.

جميع الشبان كانوا هناك أيضًا، ها هو حمزة يندفع ليسند أحد الآباء؛ يمنعه مع بعض الرجال من أن ينهار فيسقط على جثمان ولده الذي يودعه بشهقاته التي تقطع نياط القلب، وبدموعه الحارة التي روت الأرض، أما أحمد وإيليا فكانا يستجيبان لوجع قلب الأم فيمنحاها طفلها لتضمه لصدرها تودعه قبل أن يُدفن جسده الطاهر جانب أخيه.

وهكذا توالت المشاهد للكثيرين والمعزين، في المصاب جميعهم على قلب واحد، وإن اختلفت أديانهم ما بين مسلم ومسيحي.

أما جفرا فكانت تراقب من خلف تلة عالية مع نجار القرية الذي أصر أن ترى بنفسها هذا المشهد، ولكم كان وحشيًّا أن يعرض عليها لقطة ظنت أنها درب من خيال، أو مشهد سينمائي مصور في فيلم، أبصرت من بعيد بقلب يخفق بأعجوبة من شدة كمده تلك الجنازة الأسطورية، ترصد جميع الأحزاب المتناحرة يتوحدون الآن كلٌّ منهم ينعى شهداءه، وتشارك أيضًا فرقة موحدة في رداء أسود أشبه بعرض عسكري مهيب رغم الفقر الشديد بأسلحته التي تكاد تكون معدومة، إلا أنه يثير الرهبة والانبهار في ترابطه ودقة عرضه، بجانب تلك الحركات المبهرة التي يقوم بها الشبان المتقدمون، النعوش المتراصة.

ابتلعت جفرا ريقها الجاف، همست بتحشرج:

- لماذا أتيت بي هنا؟

حرك يده على وجهه حتى وصل لأعلى رأسه دافنًا أصابعه في شعره الكثيف وقال بخفوت متجنبًا النظر إليها:

- أتيتِ للمعرفة، راغبة في الإيمان أو الحصول على سبق صحفي تقسمين فيه أنكِ عايشتِ ما يحدث، لذا يجب أن تري الصورة كاملة بأحزانها وأفراحها.

اهتز كتفاها في نشيج مكتوم وهي تردد بتعجب:

- أفراحها!

صمتت قبل أن تضيف:

– وأين مظاهر البهجة هذه يا ترى؟ فمنذ أن داست قدماي هذه الأرض لم أشاهد أي مظاهر سعادة.

ابتسم بتلك الطريقة الساخرة والمتحسرة قبل أن يزفر نفسًا ساخنًا ثم قال بهدوء:

– سيدهشكِ لاحقًا مدى خروج هؤلاء الناس من الحزن الغاشم الذي يخيم على رؤوسهم، فيتعايشون مع ألم اعتادوه منذ زمن، يتزوجون، وينجبون، ويرسلون أطفالهم لأفضل تعليم قد يتاح لهم الحصول عليه حالمين بالمستقبل الأفضل.

صمت مرة أخرى قبل أن يلتفت إليها يتأملها بتلك الطريقة الغامضة الغريبة وأردف ببساطة:

– الحياة تستمر، يجب أن نكمل فيها، وجراح الفقد تبقى حية في القلب كغصة جارحة لا فكاك منها أبدًا، لا يلمسها إلا صاحبها عبر كل ابتسامة تخرج مشوبة بمرارة الماضي، وفقدان الراحلين.

همست معتدلة مبعدة عينيها عن المشهد الحزين:

– كل ما استطعت فهمه حتى الآن أن هؤلاء الناس مطلبهم بسيط وآدمي، فقط الرغبة في حياة كريمة وآمنة لا يجتاحها مستوطن.

أسند كنان ساعده إلى إحدى الصخور مُريحًا فوقه وجهه المظلم بغموضه، وقال بنبرة خالية من مشاعر تتلمسها:

– ما يعزي أننا أصبحنا جميعًا بطريقة ما أسرى داخل أوطاننا، من قال أن الفلسطيني فقط من يعاني؟ لقد نجحوا في زرع بذرتهم العفنة كشوكة تنخز ظهورنا، فأصبح كل العرب مسلوبي الإرادة.

ضحكت باستياء قائلة بعصبية:

– أحيانًا لا أفهم مقصدك.

التوى جانب فكه قائلًا ببرود:

– ليس مهمًّا أن تستوعبي كل ما أقوله.

صمتا تلفهما الأجواء الكئيبة، يصم آذانهما العويل، وتهز قلبيهما عبارات التكبير وجمل النصر، فقطعت هذا الصمت همسة مهتزة:

– هل من الطبيعي أن أَشتمَّ رائحة مسك قوية في الأجواء؟

افترَّ فمه عن ابتسامة بائسة ثم قال:

– حتى أنتِ التقطتِها؟ في العادة عندما يلوح أحدنا بهذا يسخرون منا.

عقدت حاجبيها بتفكر وأنفها يتحرك يمينًا ويسارًا بطريقة جذبت عينيه للغرق فيها مستعجبًا نفسه لرغبته في الضحك عليها، هذه الفتاة تثير بداخله شيئًا غير مفهوم، منذ متى اهتم هو بجانب النساء، أو كانت لديه رغبة في عيش العاطفة مع إحداهن ثم يتركها خلفه لمصير مجهول وموجع؟!

- لا إنها حقيقية، هناك رائحة مسك قوية إلى حد أني أشعر إن مددت أناملي قد ألمس عبقها السخي.

نزع عينيه عنها وجسده كله ينتفض متوترًا كما لم يحدث معه قط، ثم قال باختصار عله يشتت نفسه التي يكاد يفقدها فيها:

- هذا صحيح بالعادة نشتمُّ هذه الرائحة مع كل شهيد، وكأن رب العباد يواسي أفئدة ذويهم.

انكمشت مرة أخرى على نفسها ترفع عينَي القهوة خاصتها متأملة جانب وجهه ثم همست بِريق جاف:

- ألا تخاف؟!

التفت إليها برأسه سائلًا بحيرة:

- من ماذا؟!

ترقرقت الدموع في عينيها.. دموع لا تفهم حقًّا أسبابها، وقد أصبحت في منطقة ملغومة كلما جمع القدر بطريقته العجيبة مصائرهما:

- من الموت.

سأل بتعجب:

- أخاف من الموت؟!

- نعم.. ألا ترهب ذهابك إليه بقدميك راغبًا؟

قال بهدوء:

- للمرة المليون، أنتِ تفهميننا خطأ، نحن نحب الحياة بكل ما فيها، لا نرغب مطلقًا في الموت، ولكن إن أتى يا مرحبًا به، فنحن نثق بطاعتنا الخالصة لله، بالجهاد في سبيله، بقوتنا بجانب الحق، إن الله لا يحب المستضعفين، ونحن لم نكن يومًا هكذا، لذا ماذا قد أخشى وقد أصلحت ما بيني وبينه؟! ماذا قد أخشى وأنا سأموت في أرض الرباط التي ستشفع لي عند ربي؟!

سقطت دمعتان خائنتان منها تجريان على طول خديها المحمرين لم تفسر معانيهما عندما هتفت بحرقة:

- إذن أنتَ أناني، لا تفكر إلا بنفسك، انظر إلى هؤلاء المفجوعين وقيِّم الأمر، هل تريد أن تفجع أحباءك فيك، ألا تأخذك رأفة بمعاناة لورين مثلًا؟

عاد ينظر إليها متأملًا كل تفاصيلها، ما الذي يجري معه وما الذي تملكه سليطة اللسان المشكوك في أمرها لينجذب إليها؟!

أخرج نفسًا متعبًا وقال برزانة:

- كل إنسان يولد هنا يعلم يقينًا أنه سيعيش الفقد، لذا نحن أقوياء بقدر أنانيتنا في فداء الوطن.

تحاشى التعليق حول ذكرها لورين قاصدًا إلا أنها سألت مُصرة:

- ولورين؟!

قال بهدوء:

– لورين اعتادت غيابي وستتعايش مع الأمر فجمع شملنا أصبح مستحيلًا.

قالت ساخرة بتهور:

– لأنها تملك ابنة، أليس كذلك؟

حرك رأسه وإحدى كتفيه بلا معنى ولم يعلق، عمَّ الصمت مرة أخرى بينهما، عيناها ترصدان مشهد الجنازة، تنظر إليها في ألم.

قالت فجأة:

– كل ما يعرض علينا هناك لقطات ضئيلة جدًّا لمشاهد كهذه من جانب محطات فضائية معارضة للنظام، وتقلب سريعًا، أما عن المحطات العالمية صاحبة المتابعة الأكبر لم أرصد عبرها كما الصحف إلا مظهر أطفال إسرائيل الذين ينتفضون رعبًا بعد ترويعكم لهم بأصوات الصواريخ أو التفجيرات، ربما أيضًا مشهد عرس يهودي أو حتى اجتماع عائلي تهددون فيه سلام الشعب الآمن.

ابتسم بهزلية:

– وماذا عن أطفالنا الذين يُقْصَفُونَ نهارًا جهارًا بطائراتهم، ماذا عن المراهق ذي الاحتياجات الخاصة الذي قُتل كرهان بين الجنود، من منهم يستطيع قتله بدقة عبر مسافة أبعد.. هل سمعتِ عن محمد الدرة قط؟

أومأت دون أن تعلق وغصة عنيفة وجدت طريقها لتذبحها من الوريد للوريد.

قال بهدوء:

– محمد كان له نصيب أن يعلم العالم أجمع باستشهاده، إلا أن هناك العشرات مثله يقتلون يوميًّا دون ذنب، فقط تصادف وجودهم يلعبون مع مرور إحدى سياراتهم، فاقتنصوه كما العصافير.. ولم يتحرك العالم ولم يندد أحد.. الناس يا جفرا ملّت من صراخنا ومن أوجاعنا فأصبح معظمهم عندما يأتي مشهد إحراقنا أحياء.. يقلب الصورة دون تردد ويحجبها عن ذاكرته وكأنها لم تكن.

صمت لبرهة مبتلعًا ريقه قبل أن يردف:

– نحن لسنا قتلة أطفال بل هم، لم يفكر أحد منا يومًا أن يوجه سلاحه نحو أبنائهم.. نحن لا نحمل عار دماء الأبرياء.

هتفت بخشونة دامعة:

– ليس عدلًا أن يدفن الآباء أبناءهم.

وصلها رده المتحشرج خاليًا من الروح:

– في أوقات السلم يدفن الأبناء آباءهم.. أما في وقت الحروب يدفن الآباء أبناءهم حامدين الله على ابتلائهم، تلك الضريبة المريرة التي ندفعها منذ مئة وثلاثة أعوام وليس اثنين وسبعين كما يقال.

عقدت حاجبيها بتفكر:

– تقصد منذ الاحتلال البريطاني الذي مهّد لإسرائيل الدخول بحرية والتسلح مقابل نزع السلاح من الجيش والأهالي؟

أسبل أهدابه ثم قال:

– نعم.. هذا ما قصدته، لقد غافلت بريطانيا حرفيًّا كل زعماء الأمة منذ أن اجتاحت بيت المقدس ومهدت الدخول وإرساء شرذمة من الشواذ لاغتصاب أرض مقدسة كفلسطين، في حين لم يهُبَّ جيش واحد لإنقاذها.. وها نحن هنا سيدتي نعاني كبوةً تحولت لغفوة ومنها إلى شخير كبير ليس منه إفاقة.

فركت كفيها بعصبية هامسة:

– سمعت لوم العرب كثيرًا، هل فعلًا ما زال الناس هنا يتعشمون فيهم؟

– هدر بخشونة:

– الأمل فيهم دفناه وأخذنا عزاءه، لن يحرر أمتنا غير سواعد أبنائها الذين ولدوا تحت لوائها مقدرين كل ذرة من ترابها.

لوهلة كان الصمت هو ما قابله حتى همست بحنق:

– إلا أن هذا لن ينفي أبدًا العار الذي أصبح يُطوِّق أعناقهم.

تلاعب كنان بقشة هشة وهو ينظر إليها بلا تعبير حتى قال أخيرًا بوضوح:

– الأمر يا جفرا أن ما يحدث يناقض تفاخرهم وعنتريتهم التي تصاحب أشعارهم وخُطَبهم الرنانة، ببساطة التشبيه الصحيح هو أن فلسطين كالابنة لكل البلدان العربية، ابنة شريفة مقدسة تحمل بين جنباتها وتاريخها شيمهم وأديانهم، توحد فرقتهم، ودون مقدمات اقتحم أحد أراذل البشر حصنهم العالي الذي كانوا يحمونها فيه، وأخذوها من بين أيدي إخوتها وأعمامها وآبائها واغتصبوها أمام أعينهم يستفزونهم، تاركين بداخلهم الخضوع والخنوع وإذلالًا كبيرًا كان يجب في إثره أن يهبوا فيأخذوا بثأرها ويقتلوا كل معتدٍ استهان بهم.. إلا أن لا أحد منهم فعل، ولا هي استطاعت وقف الرعاع عن اجتياح كرامتها.

همست بلوعة:

– تشبيه قاسٍ.

فتح ذراعيه:

– ولكنه حقيقي.

صمت لبرهة قبل أن يقسم تلك القشة بكل سهولة ويرميها بعيدًا، ثم قبض على حفنة من التراب ورفعها بين يديه يفردها أمامه، وقال بظلمة:

– انظري للون التراب حولكِ.. التراب الذي تحوّل للون الدم الأحمر، لكثرة نزيف أبناء الوطن فداءً له.

******

بعد أيام قصرت أو طالت، كانت الحياة الروتينية لهذه القرية تعود ببطء، ربما الغصة ما زالت موجودة إلا أنهم مجبرون على استمرار حياتهم، وزرع الأمل.

جلس أحمد الجراح بين رجال (الجاهة) في مقعد يتوسط الصف الطويل من الكراسي التي تراصت داخل المجلس الكبير لعائلة حبيبته، عيناها ترصدان أهلها الذين اجتمعوا من كبيرهم لصغيرهم في مقاعد مقابلة لهم، صف طويل يتبعه صفان آخران، أول صف منهم شغله أكابر العائلتين، تبعه صفان آخران من الشبان، أمل العائلات الذين سيتسلمون راية العادات والتقاليد من بعد ذوي الكلمة المسموعة.. عادتهم معروفة.

رغم ارتباطه عاطفيًّا بها منذ زمن بعيد، ورغم كل المصاعب التي يعرفها، وممانعة البعض من عائلتها زواجه منها، فإنه أخيرًا استطاع الفوز بدعم والدها، وأيضًا احترام إخوتها الذين باركوا زواجه منها حين أرسل والدته تتحدث مع نساء عائلتها أولًا كما تنص التقاليد ثم انتظر بقلق أخذ منه الكثير حتى أتاه الرد أخيرًا بأنهم يرحبون بالمصاهرة فلم ينتظر ليوم آخر، رغم الاضطراب الذي تعيشه عائلته بحثًا عن جفرا التي اختفت ولم يستطع هو البوح طبعًا بمكانها، فليؤجل أمرها ليوم آخر.. وليركز حاليًّا في أسر محارِبته، فهو قد حدّث والده، وذهب لشيخ البلدة ثم جمع الرجال وأتى لأهلها فورًا، فالجاهة في عرفهم لا ترد أبدًا مهما كانت صعوبة مطلبها.

همهمات هادئة موزونة، ورجال مكلفون بضيافتهم على أكمل وجه، داروا بينهم بفناجين القهوة الصغيرة المخصصة لمجالس الجاهة فقط، بيضاء اللون ومنقوش عليها المسجد الأقصى، يقدمونها بانتظام حتى وصل إليه مضيفه، نظر أحمد إلى أخ محبوبته بهدوء مهيب، في حين غمز له إسلام متواريًا، وكأنه يقول دون كلام: أعلم ما يثقل صدرك، لا تقلق من أعمامي وأبنائهم الوحوش، نحن في ظهرك. قابل أحمد غمزته تلك بإيماءة امتنان كبيرة، وتناول فنجانه دون أن يبادر بالارتشاف منه، تخطاه إسلام ثم استمر في تقديم ضيافة باقي الرجال حتى وصل إلى كبير الجاهة الذي يترأس جلستهم، وعندما منحه القهوة وابتعد وصفّ الجميع واقفين ناحية عائلتهم باحترام.. شرع الشيخ الكبير في الانحناء قليلًا نحو الأرض واضعًا فنجانه هناك ثم ابتعد، وفي حركة تسلسلية كان الجميع يحذون حذوه رافضين الضيافة تاركين إياها على الأرض أمامهم.

وكما دأبت العادة، فَهِم الطرف الآخر معنى تلك الحركة، فوقف الشيخ أخيرًا وفسّر بالكلمات بصوته الجهوري المهيب:

– نحن هنا في حاجة لنا عندكم، ولن نقبل ضيافتنا حتى تلبوا مطلبنا.

بهدوء كان والد رُفيدة يتأكد من اعتدال عقاله ثم وقف ملبيًا حديث الشيخ وهو يرد:

– اشربوا قهوتكم وأيًّا كانت حاجتكم فهي إن شاء الله مقضية.

كانت الكلمات التي بدأ هدرها بين الرجلين تطوف داخل عقله وقلبه مسببة له جنون الترقب، ومَن في حياته أهم منها، ومن التي بضمة قد تمنحه الحياة وتغسل كل أحزانه وهمومه غيرها عندما تصبح زوجته وحلاله بارتباطهم المعلن والموثق مُوْفيًا بوعده معها؟!

– لقد أتينا يا شيوخ العرب في طلب ابنتكم رُفيدة محمد نجيب السعدي لولدنا أحمد إسماعيل صالح الجراح.

كان الصوت جازمًا وصارمًا كما يجب، وكما يليق بنطق اسم المعنية صراحة وكاملًا وبنطق اسمه أيضًا كنوع من الاعتزاز بأصل كل واحد منهما ومدى ثقته ومعرفته باسمه وأصوله حتى المئة جد.

بعدها تبعه كالعادة الشروع في خطبة عصماء عن تفاخر كل واحد فيهم بعائلته وعن العريس وأبيه.. جلس الشيخ أخيرًا منهيًا خطبته، فوقف أحد أعمامها، ورغم تجهم ملامحه فقد شرع في ذكر تراث عائلته ومدى عراقتها ومحاسن والد العروس ومدى رفعة مكانة رُفيدة نفسها.

ساعة من الترقب والتباري بأي العائلتين يجيد الخطب وجمال القول أكثر.

شعر أحمد بيد تتسلل على كتفه، وبخبطة مساندة رجولية تربت عليه، التفت سريعًا نحو الجالس خلفه فصدمه لبرهة الوجه الضاحك بمناغشة، همس أحمد:

– أنتَ هنا! والأمانة؟

ابتسم كنان بتكلف ناظرًا إليه من تحت جفونه بهدوء وأجاب:

– لا تقلق عليها، إنها تجيد الاعتناء بنفسها.

رفع أحمد حاجبيه بتعجب ثم زفر بحدة:

– الأمر لا يكمن في قدرتها على حماية نفسها، إلا أن...

قاطعه كنان وهو يخبط على كتفه:

– فقط لا تقلق واطمئن، والآن ركز في يوم حياتك.

صمت قبل أن يبتسم ابتسامة حقيقية وهو يكمل:

– لم أستطع ألا أكون بجانبك في هذه اللحظة.

ابتسم أحمد بتوتر سامحًا له وحده أن يقرأ عدم الطمأنينة في عينيه؛ ما دفع كنان إلى أن يقول مشجعًا:

– لقد مر الأصعب وذللت كل العقبات، لِمَ الخوف؟ ها أنت على مشارف أخذ الموافقة.

بعثر أحمد شعره قبل أن يقول بحيرة وترقب:

– أنا لست قلقًا من الموافقة، كلانا يعلم أن اجتماع الجاهة لا يُرَد، حتى وإن كان الطرف الآخر لا يرحب بالأمر.

قال كنان:

– ممَ خوفك إذن؟

أشار برأسه نحو آخر صف إلى الرجل الذي يجلس هناك، في توضيح صامت، حدق كنان لبرهة إلى الرجل قبل أن يكتم ضحكته ثم همس بتلاعب:

– العشق يفعل الأفاعيل في الرجال، خطوة متهورة إلا أنها أعجبتني.

قال أحمد مناغشًا:

– العقبى لك، ليتني أرى اليوم الذي يأتي فيه تهورك.

جمد كنان في مكانه صامتًا لبرهة وقال بنبرة مظلمة:

– لا أعتقد أنك قد تراه قط.

حدق إليه صديقه متأملًا ومتألمًا لأجله، قبل أن يجذبه غمز والده له متواريًا.

اعتدل سريعًا واقفًا باحترام موازيًا وقفة والد رفيدة الذي كان يخاطب الكبير وهو يقول في هيبة تثير الاحترام:

– ونحن منحناك كريمتنا، فلن نجد أفضل من الأستاذ أحمد لنتخذه صهرًا.

توقف الهواء من محيط أحمد، وتهليلات عاتية من الرفاق خلفه تصدح بالمباركات والمجاملات، في حين كان هو في عالم آخر خاص، عيناه تنحدران لا إراديًّا نحو باب خشبي ضخم موارب يعلم أنه يصل للمنزل الذي يحوي المحبوبة مالكة قلبه وكيانه، تُرى هل تشعر به الآن؟ هل يتقافز قلبها بين أضلعها كما يكاد فؤاده أن ينفجر من فرط الانفعال؟ يا الله! بل هل يوجد في الكون الفسيح مقدار من السعادة والانتصار قد يستطيع احتواء ما يجول في صدره من فرط المشاعر، هل تتوفر على الأرض كلمات قد تصوغ ما يريد الصراخ به من انتصار؟!

شعر بغمزة كنان مرة أخرى خلف ظهره ثم بهمسه:

– هيّا، فرصتك يا زلمة.. اقتنصها، إن تأخرت دقيقة لن تحصل عليها قريبًا.

تنحنح أحمد خارجًا من تلك الحالة التي كم تمنى أن يبقى داخلها يطوف في فقاعتها إلى الأبد، ثم قال بصوت جهوري ممتن ومعتز:

– الشرف لي عماه، أنت وكريمتك ستبقيان فوق رأسي إلى آخر يوم في عمري.

هز الحاج محمد رأسه باسمًا بثقل، ثم قال:

– الآن تفضلوا بشرب قهوتكم الجديدة بدل التي بردت، فالضيافة من مقامكم، ولا تؤخذ أبدًا باردة.

شرعوا بعدها في الاتفاق على المهر والذهب، إلى أن أوقفهم أحمد بإصرار وهو يقول بصوت جهوري صارم:

– كل المطالب ستلبى، لن نختلف أبدًا ولا نحتاج لنقاش، ما تطلبه سيف على رقبتي يُنفّذ في الحال.

قال محمد بهدوء:

– أنعم بك من رجل يا بني، ما يهمني هو سعادة ابنتي.

تهللت أسارير الجراح بسعادة واستطاع أن يلتقط أنفاسه المتقطعة ينظمها كما أفكاره قبل أن يقول:

– أريد أن أعقد عليها والآن قبل أن ينفض هذا المجلس، فقد أتيت بالمأذون معي تحسبًا.

حركة غير متوقعة.. همهم الرجال من طرفها في نزق، في حين ابتسم الرجال من ناحيته في بِشر، وقال الحاج محمد أخيرًا:

– طلبك مجاب.. إسلام اطلب أختك حتى يسمع الأكابر والشيوخ موافقتها.

*****

بعد ساعات كان أحمد يقف مسندًا ظهره على الباب المغلق الذي استطاع اقتناص بعض الدقائق معها خلفه، عندما توسل تقريبًا لوالدها وإخوتها أن يسمحوا له أن ينفرد بزوجته.. يا الله رُفيدة أخيرًا زوجته، بعد كل التعب، بعد كل الحروب التي خاضها، وبعد الصعاب التي تحملها لسبع سنوات كاملة من قصة عشقه وهيامه بها منذ أن رآها أول مرة وتورط فيها. كان قلبه يدق كالطبول شاعرًا به سيقفز بأي لحظة من بين أضلعه ليستقر بجوار قلبها عائدًا لمكانه الصحيح في جسد محبوبته المحاربة الصامدة، عيناه تلمعان بالعشق في حين يراقب وقفتها الخجول المرتبكة، وهي تتجلى في ثوب تقليدي باللون الأسود مطرز يدويًّا بخيوط حمراء مبهرة، شعرها الغجري يتراقص حول كتفيها وأعلى خصرها بقليل في حالة من القدسية، لَكَم يحبها.

تنحنح أخيرًا وابتسامة حنان مخلوطة بالكثير من الإثارة تتلاعب على فمه:

– مبارك عليَّ فوزي بكِ، وعظيم انتصاري بعد كل الحروب التي خضتها لأجلكِ.

فركت رُفيدة يديها باضطراب قبل أن ترفع أناملها الطويلة تتلاعب في خصلات من شعرها ثم أزاحتها وراء أذنها بموسيقية، وكأنها أصابع عازف بيانو تداعب نغمة رائعة المعاني فتسرق لبه، همست بتعثر:

– مبارك علينا.

ضحك أحمد بخفوت قبل أن يتحرر من تسمره متوجهًا نحوها، تراجعت رُفيدة خطوات ثم همست بخفوت:

– هذا يكفي، أهلي بالخارج، يمكنك المغادرة.

قال بمداعبة:

– أرحل؟ هل تمزحين؟ لن أتحرك من مكاني قبل أن أشعر بكِ بجوار نبض قلبي.

أخذت في التراجع أكثر وهي تلوح أمامه بإصبع محذر، وقالت باختناق:

– سأصرخ إن تهورت يا جراح، أنا أحذرك.

اصطنع أحمد الضيق والحزن، إلا أن خطواته لم تتوقف عن تتبعها، قال بعبوس:

– تصرخين للتخلص مني! حسنًا لم أتخيل قط أن يكون هذا أول رد فعل لكِ عقب عقد قِراننا.

لم تفكر قبل أن تقول باندفاع:

– وماذا تخيلت، أن أركض لأحضانك مثلًا؟

– نعم.

وقفت رُفيدة مكانها ثم استطاعت أن ترفع عينيها نحوه وهمست:

– أحمد!

كان قد وصل إليها يقف على بعد خطوة منها، ثم همس بصوت وضع فيه كل مشاعره وكل سعادته، وكل نبرة ظفر بها فارس مغوار حمل كل أسلحته ليقتحم حصون قصر يؤوي حبيبة قلبه:

– قلب أحمد، نبض وروح وكيان أحمد.

انتفض جسد رُفيدة من مغازلته الصريحة، وقبل أن تفكر أو تجد من بين تبعثرها الرد المناسب الذي يليق بالموقف.. كانت تجد نفسها تخطف من أرضها، رأسها يزرع تحت عنقه، خصرها تحاوطه ساعداه القويتان، كفاه تستندان إلى ظهرها وكأنه يجرفها من أرضها ليزرعها كلها في أرضه، يمد جذورها لتتوحد مع جذوره فيصبح كلاهما كيانًا واحدًا وشجرة زيتون عتيقة واحدة رويت من منبع شديد العذوبة، عمرها مئات السنين.

قال أحمد:

– أحببتكِ لألف عام قبل أن أخلق، وأحبك لألف نبضة في كل دقيقة أزفر فيها أنفاسي، وسأحبك لألفي عام وإلى الأزل وبعد مماتي.

همسه كان ساخنًا متأوهًا، أنفاسه متحشرجة داخل براكين شرايينه، في حين أن جسده الرجولي الذي ينتفض بهيبة إكرامًا لقدها الهش الذي توحد معه كان معاناة غرام أخرى تخط حكاية ستخلد في تاريخهم.

نفسه يزداد توهجًا، كفاه الخشنتان تزدادان توحشًا في ضمها إليه بينما لم يتوقف فمه للحظة عن إخراج تأوهاته دون حرج أو خوف عالمًا أنها سنده وستره.

بدت المشاعر عنيفة عميقة إلى حد أن رُفيدة لم تستطع مقاومتها، بدَّدَ خجلها وتوترها لتجد نفسها كالمغيبة تبادله عناقه بشيء أشد، بتوحش، بكل ما تملكه فتاة مثلها من حب بداخلها تجاه الرجل الوحيد الذي لم ترَ في دنياها غيره.

قال أحمد:

– حبيبتي، أخيرًا!

حركت رأسها للوراء قليلًا دون أن يفلتها، بل بقيت معلقة بين ذراعيه وأمواج أحضانه الحانية، عيناها المتوهجتان بالغرام تطالعانه بذهول وكأنها لا تستوعب حتى اللحظة أنها أخيرًا تنتمي إليه قولًا وفعلًا،

همست بتحشرج:

– أنا لا أصدق.

ابتسم:

– بل صدقي حبيبتي العنيدة، أصبحتِ زوجتي أمام كل البشر، لن نقلق من مخلوق أن يتجرأ يومًا ويفرقنا.

اغرورقت عيناها بالدموع ثم انتقلت يداها المرتعشتان لتحيط وجهه على استحياء، وهمست من بين دموعها بالشيء الوحيد الذي بدا منطقيًّا في هذه اللحظة:

– أحمد أنا أحبك.

زفر بعمق يطلق نفسًا حارًّا، نَفَسُ رجل تَعِبَ وطاف حتى وصل من رحلته الأبدية لسكنه وسكناه، مال يسند جبهته إلى جبهتها وقال بخفوت:

– كلمة أحبكِ تعد مجحفة إن أخبرتكِ بها، بل كل كلمات الغرام التي عرفها البشر منذ الخليقة لا تفي حقًّا ما أشعر به تجاهكِ.

هزت كتفيها قبل أن تخرج ضحكة مشوبة ببكاء الفرحة وقالت بنبرة أسرت فيها كل مشاعره في سجن أبدي لا يريد هو التحرر منه أبدًا:

– أنا لا أجيد الغزل مثلك، لذا لن أكف يومًا عن ترديد أني أحبك لدرجة أنك أصبحت كل أمنياتي، أحبك جدًّا حد أن قربك وحدك كفيل بأن يمنحني كل شيء، وبُعدك يسلبني حتى روحي التي تفارقني، تغرب معك ولا أتلمس ظلها إلا عندما يعود طيفك يظلني بظله.

يا الله.. لقد وصل معها لدرجة أنه لن يستطيع أن يحبها أكثر، فقد وصل إلى المنتهى لا محالة.

قال أحمد:

– هذا وأنتِ لا تجيدين الغزل، ماذا عني إذن؟

فلتت ضحكة من بين شفتيها مشوبة بالقهر المستتر ثم همست:

– إياكَ وتركي، أنا لا قدرة لي على أن أحيا دون نبضك.

ضمها أحمد إليه مرة أخرى، فمه يهبط كالإعصار مقبلًا قمة رأسها ملامسًا بشفتيه الدافئتين جبهتها يلثمها بإجلال ثم همس أخيرًا بنبرة مرتعشة:

– تعلمين أنكِ لن تفقديني يومًا، فأنا أعيش بداخلكِ يا رُفيدة، كما أخذتِ من ضلوعي وطنًا ومرقدًا.

هزت رأسها بلا معنى، ولم تحاول أن تأخذ بهجتها تلك لمنحنى آخر، بل وجدت كتفيها يتقوسان بتقارب تضم نفسها إليه باستسلام ممتع حتى أوقفها مكانها على مضض، مبتلعًا ريقه بعنف ثم قال بمداعبة:

– على عيني ورغم أنف فؤادي أن أتركَكِ، بل أريد اختطافكِ الآن إلى منزلي لتبقي طوال الليل فوق صدري.

احمر وجهها قبل أن تقول بصرامة مضحكة:

– تأدب.

أغلق جفنيه متنهدًا بحلاوة:

– تأدبنا يا روح الجراح، ولهذا تركتكِ حتى لا أتهور وأقتنص منكِ قبلة أكاد أجن لآخذها منكِ ولو قسرًا.

شهقت رُفيدة بكل ما اعتمل داخل صدرها من ارتباك وخجل، وحاولت الإفلات منه ومغادرته إلا أنه أعادها لتقف مكانها، أمامه يحاوط خصرها بذراعه ليلصقها بجذعه لأطول وقت ممكن متنعمًا بقربها.

– ماذا تريد؟ ابتعد.

دفن أحمد وجهه كله بجانب عنقها مستمتعًا حتى الأعماق بملمس تاجها الأنثوي المنسدل هناك، ثم قال بنبرة حارة:

– لدي هدية لكِ أحتفظ بها منذ أن وقعت عيناي عليكِ أول مرة.

قالت بدهشة:

– هدية عمرها سبع سنوات!

ملأ رئتيه من عبق عطرها المسكي قبل أن يقول بخفوت:

– هديتي عمرها دهر حبيبتي.

نطقه كلمة «حبيبتي» بعفوية وهنا في هذا الوضع الحميمي.. فعل بها الأفاعيل، رباه هي فعلًا حبيبة وزوجة لهذا الرجل الرائع، لهذا الحبيب الأبدي.

– بالغد ستذهبين مع النساء وتبتاعين ما تريدينه من الذهب، إلا أن كل هذا لا يعنيني يا رُفيدة، بل ما سأعدُّه مهرًا لكِ، ما سأمنحكِ إياه الآن، عالم أنكِ الوحيدة القادرة على حمايته.

– لا أفهم.

أومأ قبل أن يضع أحمد يده في جيب بنطاله، ثم أخرج أمام عينيها مفتاحًا حديديًّا معلقًا في خيط أخضر بلون ثمار الزيتون، وبدا أن المفتاح رُمِّم وطُلِي بالذهب حفاظًا عليه، ثم مده أمام ملامحها المندهشة وهو يقول بفخر:

– مفتاح بيت أجدادي وأبي الذي ورّثوه لي، لم أجد أعلى ولا أغلى منه كنزًا أهديه إليكِ.

توسعت عيناها بانبهار غير مصدقة، ثم همست بتقطع:

– أحمد، هل تعني هذا فعلًا، تهديني أنا ميراثك، وأملك؟!

ابتسمت شفتاه ثم قال في تؤدة:

– أنتِ بتِّ مني، أنا أنتِ وأنتِ أنا، جزء من كياني، وهذا المفتاح هو رسالتي ومحاربتي للعودة، لأستعيد بيتي ممن اغتصبوه، وإن لم يُقَدّر لي أن أرى انتصارنا يومًا.. من سيكون أفضل منكِ لتكملي رسالتي مع أطفالنا وتعلميهم ما وُلِدنا فيه؟

غطت رُفيدة فمها بكفها تنظر إليه بعينين دامعتين مرتعبتين من شبح الفقد، نظر إليها بحنان قبل أن يمد يده ويمرر المفتاح حول عنقها، ولدقيقة أخرى ظل الاثنان ينظران إلى بعضهما، بكل ما يحملانه من غرام حتى تحرر هو أخيرًا وعاد يجرفها كلها إليه محتويًا كل إنش فيها، متوحدًا معها، ممتزجًا بكلها، ولوقت لم يدركانه ظل كلاهما على هذا الحال يتشبث أحدهما بالآخر بظفر وانتصار، وحلاوة الغرام.

******

تحت السماء، خارج أبواب المغارة، كانت عيناه قد أجبرته منذ ساعات قليلة على أخذ غفوة أمام النار البسيطة التي يشعلها للتدفئة وإعداد القهوة، تغزوه الأحلام المريعة كمن يتقلب على الجمر، وجهه يتصبب بالعرق، يداه تحاربان لنزع شيء ما، أو إنقاذ شخص عزيز صارخًا:

– لورين، اركضي، اهربي، لا تجعليهم يأخذونكِ مني.

خرجت جفرا بتعثر من أبواب أسرها الاختياري، المرفه في الحقيقة، على عكس ما تصورت؛ فهذه البقعة كانت مُعدة بأحدث وسائل الاتصال، وبأجهزة حاسب آلي معقدة، وبالطبع ما اكتشفته أن بين هؤلاء الرجال مهندس اتصالات داهية، يستطيع تشفير محادثاتهم، وأيضًا تهكير اتصالات جنود العدو، بل وأحيانًا كثيرة اختراق حاجز حمايتهم فوق تل أبيب، هذا يفسر كل شيء إذن، كيف لصواريخهم أن تصل إلى قلب مساكن وشوارع العدو رغم كل الاحتياطات والتقدم العلمي والتسليح الذي يدّعونه، رغم زهد حال الجانب الفلسطيني فإن الإصرار على النصر ورفض المحتلين، يمنحهم القوة والشكيمة اللازمتين.

جلست على ركبتيها تحافظ على الحدود التي وضعها بينهما، رغم وجودها معهم لأيام ليست بقليلة وباختيارها الشخصي في النهاية بكل أنانية، وربما بتهور واندفاع رغبة في المعرفة.

ومن غير عيسى يستطيع منحها بكل صراحة ووضوح ما قد أتت لأجله، لقد حدَّثت والدتها بنفسها وأقنعتها بأن يكفّوا عن البحث عنها بحجة تغيبها داخل الأراضي المحتلة في رحلة عمل وتقصٍّ للحقائق بإرادتها، رغم حبكها للكذبة فإن والدتها اقتنعت على مضض وبقلق بحت، وطالبتها بالعودة سريعًا لرغبتها في الرحيل بها.

مدت كفها بحذر نحو كتفه ثم نفضت أفكارها جانبًا وهمست بتوتر:

– عيسى استيقظ، أنتَ تعاني كابوسًا.

ولكنه لم يستيقظ، بل أخذ في الصراخ مدافعًا عن فتاةٍ ما لقَّبها بالظبية الهاربة.

أليس هذا ما يلقبها به ساخرًا على أرض الواقع؟! هل تأمل حقًا بأن تكون هي بطلةً لأحلامه؟!

- «تبًا جفرا، تبًا لكِ يا مجنونة، بماذا تفكرين؟».

كشرت بأنفها المستقيم في حركة نزقة ثم عادت بأناملها تهزه صارخة تفزعه:

- عيسى أفق.

ما لم تتوقعه مطلقًا أن ينتفض جذعه مستقيمًا بالفعل، وفي لحظة يموه فيها الخط الفاصل بين الواقع والخيال.. وجدت يده تضغط على عنقها بقسوة، عيناه تنفثان النار، وجهه يسود حقدًا وغضبًا، صوته يهدر بتوحش:

- خائنة.

بهتت ملامح جفرا كليًّا، وبدا الفزع جليًّا على وجهها راسمًا خطوطًا من الألم والمرارة المبهمة لشيء يخفق بين أضلعها؛ اعتراضًا على المشرط الحاد الذي زُرع في منتصف قلبها مخالطًا هلعها من اغتياله حياتها، في رد فعل سريع تدفعها رهبة الموت وحب الحياة، كانت يداها الاثنتان تطبقان على ساعده محاولة نزعه بعيدًا عنها، صوتها المتحشرج يتوسله:

- اهدأ إنها أنا، لست تلك الخائنة بطلة أحلامك.

بدت عيناه غائرتين، فمه ينفث لهبًا، يحدق إليها بتوهان عظيم وكأنه يعاني لإرساء سفن تعقله بعد تحشرج صوتها وهي تعيد قولها بتقطع:

- عيسى أرجوك، أنت كنت تعاني كابوسًا، فكان واجب عليَّ إيقاظك.

حرك رأسه يمينًا ويسارًا نافضًا إياه بذهول.. أصابعه ترتخي حول عنقها ببطء، همس بصوت مظلم:

- جفرا!

دمعت عيناها واستغلت ارتخاء يديه مجيبة بتقطع:

- نـ.. عم.

نفضها بعيدًا عنه وقفز من مكانه يقف هناك متصلبًا ينظر إلى جسدها الذي انحنى نحو الأرض وهي تسعل بشدة، دفن عيسى أنامله في شعره بغضب يشده وكأنه سيقتلعه من جذوره، ثم أخيرًا استطاع أن يهتف فيها:

- كم مرة حذرتكِ بأن لا تقتربي مني، أن لا تلمسيني وتلتزمي وجودكِ بالداخل كما اخترتِ؟!

تحركت كل مشاعرها دافعة إلى عقلها انتباهًا قويًّا، ثم اتبعت وقفته وهي تهمس في وجهه بقهر:

- كُفّ عن تلك المسرحية، كل هذه المبادئ، والاحترام، والالتزام أصبحت لا تليق بك، أنت من جلبتني إلى هنا من البداية خوفًا على حياتك، ضاربًا كل شيء بعرض الحائط.

نظر إليها بغيظ هاتفًا من بين أسنانه:

- واخترتِ البقاء طمعًا في معرفة المزيد لتعودي لموطنكِ حاملة معكِ قصتكِ الحصرية.

اقتربت منه خطوة بتهور ثم صرخت في وجهه بانفعال حازم:

– موطني هنا.. مثلك، وما أردته هو محو الفكرة الحقيرة التي أقنعَت العالم بأننا راضون باحتلالهم والتطبيع معهم.

سخر منها بصوت استنكاري بغيض، كان كافيًا عن أي كلمات قد يجيبها بها، ثم استدار يمنحها ظهره وهو يقول بجمود:

– اغربي عن وجهي، سيأتي الجراح غدًا وأتخلص منكِ.

شحب وجهها أكثر وهي تهمس بصدمة:

– تتخلص مني بهذه السهولة؟ وماذا عن خوفك من كوني جاسوسة، بل ماذا عن وعدك لي بتوضيح كل شيء عن قريب؟

لم يحاول أن يستدير إليها وهو يقول بتصلب:

– أنا لم أمنحكِ أي وعود يا جفرا، وهذا الوضع يجلد ضميري وينهشني، فتبًا لكل شيء إذن، وليحدث ما يحدث، أنا لن أبقي امرأة في أسري.

لا تعلم ما الذي جرى معها، في برهة شعرت كأنها مجرد غصن ضعيف مهزوز وُجِد داخل إعصار عاتٍّ مدمر، هذا ليس منطقيًا! كيف استوطن هذا الرجل داخلها بهذه السرعة؟ بل كيف لكلماته الهزيلة تلك أن تهز الأرض من تحت قدميها تفقدها كل ركائزها؟ بل السؤال الصحيح تمامًا في هذه اللحظة: ما الذي أصبح عيسى يمثله بداخلها لتحزن؟ تغضب وتثور لأنه قرر ببساطة إبعادها عن طريقه! قالت:

– أنا لست لعبة في يدك لتحتجزها متى شئت وتتخلى عنها وقتما تريد.

التفت عيسى نحوها سريعًا يحدق إلى عينيها المظلمتين بتعجب ثم قال بوضوح:

– في الواقع أنتِ لا شيء، مجرد فتاة هبطت عليَّ، تُعوِّقين طريقي فتدفعينني إلى أن أحيد عن كل ما بذلت عمري لبنائه.

هل لِتَهَشُّم فؤادها صوت، أم لروحها التي احترقت رائحة تزكم مجرى تنفسها؟ همست ودموع غزيرة تحجب الرؤية أمامها:

– لقد وعدتني.. حتى وإن لم يفعل لسانك، إلا أن عينيك كانتا أبلغ من أي وعود، روحك الثائرة التي أسرت تشتُّتي مثّلت لي أفضل من مليون معاهدة دولية تَعِدُ باسترداد الحقوق.

صدم عيسى للحظة من تعبيرها الذي حمل معنيين واضحين دون إخفاء، ولكنه ببساطة تجنب قولها مدَّعيًا عدم الفهم، ثم قال بحذر شديد:

– هذا الوضع خاطئ، وجودكِ معي خطر عليكِ قبلي، ثم ماذا أُعلمكِ أنا وكل بيت في الوادي.. كل شجرة استوطنت بلادي منذ خمسة آلاف سنة تحمل قصة وتاريخًا صحيحًا واضحًا غير محرف، كل شارع وكل زقاق وكل حجر قد يصادف تعثر خطواتكِ سيمنحكِ ما تحتاجين دون تزوير أو تجميل.

الغيظ البحت، الاستفزاز المقيت الذي تعلم يقينًا أنه جزء لا ينفصل عن شخصيتها دفعها إلى أن تقول بقسوة رامية في وجهه اتهامًا تعلم أن كل العالم يتغنى به:

– بالطبع يجب عليَّ أن أسأل وأتعاطف مع شعب هو من باع أرضه وبيته لليهود أمام حفنة من المال، ثم عاد بعدها يبكي الأطلال متهمًا العالم بالتخاذل وإسرائيل بالاعتداء.

إن كان للغضب كائن أسطوري بكل غله، بكل عصبيته وهوجائه، فقد تمثل الآن في الشخص الذي أمامها، اللعنة ما الذي دفعها إلى أن تنطق بهذا الهراء أمام عيسى بالذات؟

انتفض كله، وكل كلمة تخرج منها شعر بها سيوفًا بتارة تمزقه دون رحمة، نقمة جسده كانت صارخة، وجهه الذي يتلوى باهتياج كان مريعًا في رعبه حد أنها تمنت أن تنشقَّ الأرض وتبتلعها فتختفي من أمامه:

– لماذا أُصدم فيكِ وأنا أعلم يقينًا أنكِ لا تتحدثين إلا بلسان الدعاية الصهيونية؟

ورغم خوفها العظيم تمتمت بحنق:

– حسنًا.. وأنا لن أُصدم بدفاعك أيضًا، ألم يبع القدامى بالفعل الأرض والبيت واشتروها اليهود بمالهم الحلال؟ لذا لا يحق لكم المطالبة بها، هذا هو قانون المتعاقدين منذ بداية البشرية.

التوت شفتاه في سخرية مقيتة يغذيها الكثير من الغضب، ثم قال بنفور:

– أنتِ قضية خاسرة، لماذا عليَّ الدفاع أمامها، لماذا أخبرها أننا نحن من باعنا العالم أجمع، نحن الشعب الذي لم يمنح الوقت اللازم لحرب عادلة ندافع فيها عن نفسنا، ونطرد المحتل قبل أن يرسي فيها قلاعه الزائفة وتاريخه الكاذب على بقايا منازلنا وتاريخنا وآثار المسلمين والمسيحيين العرب التي محوها تمامًا.

كتفت جفرا يديها على صدرها ثم قالت باستفزاز:

– ربما منحت المروجين لدعاية الصهاينة مثلي المبررات التاريخية الصحيحة فتستبدلها بالزائفة كما تدعي وليس مجرد وهم سيد عيسى.

التوت أصابع عيسى في جانبه بعنف رافضًا نبرتها، متمردًا على وجودها في كنفه، كارهًا بعنف الاسم الذي أصبحت لا تناديه إلا به، وكأنها بطريقة ما تحاول التشبث بماضٍ دَفَنَه، بل نسبت نفسها إليه وأعلنت أنها جزء من ذكرياته، وأنها وأشخاص غاليين جدًّا شكلوا كل ما هو عليه الآن، تنازل أخيرًا ثم أجابها بصرامة:

– لتعلمي وتؤمني بالإجابة تحتاجين إلى اللجوء لأروقة التاريخ، تتوهين عبر السطور ثم تجدين الطريق المنير وحدكِ عبر الكتب، منذ الأزل كانت الحكايات التي تسرد في الكتب لا تكذب.

– قرأتُ ولم أجد إلا تاريخًا تدَّعي أنت زيفه، لذا تكرم أنت وأنِر عتمة طريقي بسطر واحد لم يصل عبث أيديهم إليه.

ابتلع عيسى ريقه بعنف وتنفس تنفسًا آليًّا، سائلًا نفسه للمرة المليون: لماذا يطاوع نفسه مع إنسانة متذبذبة ويمنحها ما تريد، قال بجفاء:

-ربما يجب أن تعودي إلى تاريخ التصادم بين الفلاحين ومستوطني اليهود، أو تحتاجين إلى أن تعرفي أن أول من باع القدس هو والي تركيا رشاد باشا، الموالي للصهاينة، قاومه وجهاء القدس من الفلسطينيين الأحرار، ورفعوا عريضة للصدر الأعظم للدولة العثمانية مطالبين فيها بمنع هجرة اليهود الروس لفلسطين وتحريم استملاكهم شبرًا واحدًا فيها تحريمًا قطعيًّا، وترأس الشيخ محمد الطاهر مفتي القدس آنذاك هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية للتدقيق في نقل طلبات الملكية لأي يهودي، فحال دون تملكهم الكثير والكثير.

انهزمت انفعالاتها وخرس استفزازها، إلا أنها أكملت بسؤال يحرقها:

- كيف نالوها إذن؟ ولماذا حتى الآن يخرجون عقودًا مذيلة ومختومة بأسماء فلسطينية تثبت أنهم باعوا بالفعل؟

تخلل ملامحه وصوته القهر من الإقرار بلسعات القدر المحتوم وهو يجيبها:

- تلك العقود أجادوا تزويرها، نحن لم نبع أبدًا بل هُجِّرنا، بعضنا أُبيد أو أُحرق حيًّا، أما عن الحقيقة المرة والمثبتة.. فهي أن أربعة وعشرين ألف دونم من أرض فلسطين اشتروها فعلًا من خلال الفساد الإداري للدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد، إذ إن فساد السلطة آن ذاك قَبِل بالرِّشا والمال الكثير الذي عرضه المحتل، فاستطاعوا شراء كل أرض وضعوا أعينهم عليها من أملاك الإقطاعيين أو حتى من خلال الضرائب الباهظة التي فرضها الأتراك على الفلاحين الفقراء العاجزين عن المجاراة ودفع كل هذا المال الطائل، حتى سقط حكمهم وانتهت الدولة العثمانية، ثم كانت الطامة الكبرى والدور القذر الحقيقي والخطر الداهم الذي نعيش عاقبته.

همست باختصار منهزم

- إنجلترا.

ابتسم عيسى في شعور لم تفهمه قبل أن يقول ساخرًا:

- نعم المشروع الصهيوني ووعد بلفور كان واضحًا، وشعارهم الذي يتغنون ويصدعون به رؤوسنا «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض»، إلا أن صدمة ماركس نودرو كانت عاتية عندما قدم إلى هنا ورأى الأرض عامرة بالحياة، نشطة وحيوية، فعاد بخيبته يخبرهم أن فلسطين عروس جميلة مستوفية جميع الشروط لكنها متزوجة بالفعل.

الآن انتقلت سخريته إليها عندما قالت بوقاحة:

- لا مشكلة، فالزوج مغفل، والعم والخال والأخ نُزِعت منهم النخوة، لذا لا ضير من سبيها واغتصابها والإنجاب منها عنوة.

تغضن وجهه بالرفض التلقائي، واشمأزت ملامحه من التشبيه، إلا أنه لم يعترض، بل أكمل ببساطة:

– وقتها ورغم امتلاكهم كل هذه الأرض، فإن قوتهم كانت هزيلة، وحلمهم مستحيلًا، فكيف للكيان الصهيوني التمكن من أرض مسلمة؟ تاريخ كنعان عبق بها يمتد بجذوره حتى تعدى باطنها العميق، لذا أكمل المستعمر الإنجليزي حلمه، ومكنهم من كل ما خططوا له، فقد قمع شعبنا وسلح شعبهم بالعدة والعتاد مُزيدًا قوة العصابات التي كانت تُغِيرُ على القرى بقصد الإبادة وأخذ الأراضي عنوة، وبالطبع تحت دعم الإرهاب المباشر لقوة الاحتلال الغاشم، ولكن رغم ضخِّهم كل الأموال، ورغم كل الإمكانيات العالية فإنهم لم يقدروا أن يغزوا أي فلسطيني عَلِم بخطرهم ليبيعهم شبرًا من أرضه.

هزت رأسها في حين أن عينيها المتوسعتين تحدقان إليه بنظرة توحي بأنها استوعبت شرحه أخيرًا عندما قالت:

– لا تحتاج لذكاء، لقد سُرِّبت الأراضي لهم عبر الحكومة البريطانية مباشرة، فمن يستطيع أن يمنعهم أو يقف في وجههم؟

قال في هدوء غريب:

– نعم لقد منحوهم خمسمئة دونم آخرين، ثم حوّلوا تلك المناطق فمنعوا أي عربي من دخولها، وبدؤوا في استجلاب كل مشرديهم وشراذم القوم ليعمروا كل أرض الساحل وحيفا وقيسارية وأيضًا النقب والساحل الداخلي.

رفعت وجهها تنظر إليه باضطراب، تفكر كيف استطاع صياغة كل هذه الحقائق؟ بل السؤال الموجع: لماذا أصبحت كل الأجيال الحديثة مثلها تجهل تلك الأحداث؟ لقد نجحوا فعلًا في دثر الأدلة، وقلب العرب على بعضهم، فجعلوهم ينشغلون في إلقاء الاتهامات، وتخلي أبناء القومية الواحدة عن بعضهم، وأخيرًا في التطبيع وتقبل الكيان بكل محبة، لقد حل السلام الآن بين بعض الدويلات والكيان المحتل، والفاتورة لم تكن باهظة، فكل ما دفعوه هو التنازل عن فلسطين العزة فقط، قالت بخفوت:

– ولكن هذا ليس كافيًا أيضًا.

جلس عيسى منحني الكتفين على صخرة مقابلًا لها ينظر إلى الرماد الذي خلفته النار.. كما رماد قلبه المكلوم بين أضلعه، وقال:

– لا، لم يكن كافيًا، فالنكبة الحقيقية والوجع الذي بلغ الذروة، أن من باع أكثر من خمسة وخمسين بالمئة من أراضينا كانوا أُسَرًا إقطاعية من جنسيات عربية أخرى، إلا أني لا أَقدِر على رمي الاتهام الكامل عليهم، فدولة الاحتلال آنذاك أجبرتهم وهددتهم بالقتل والخسارة إن لم يبيعوها لإسرائيل بأسعار زهيدة.

– إذن. الحقيقة الآن أن الفلسطيني لم يكن هو من باع أرضه.

تحير عيسى للحظة إلا أنه لم يجد حلًّا آخر غير الصراحة المطلقة، أسبل جفنيه بألم وبدأ حديثه:

– بل هناك فئة صغيرة، ولكنهم كانوا فلاحين هزيلي الحال، تنازلوا أمام النجاة بحياتهم، فتركوا أراضيهم لهم ونزعوا ملكيتهم، فقد كان هناك مواد من صك الانتداب البريطانية تقر بنزع الملكية العربية

لصالح اليهود.

قالت بإدراك:

- بداية التهجير.

- بل بداية اللعنة، بداية الإبادة، نحن لم نبع إرث أجدادنا، كنا أحرارًا وما زلنا، حتى ضعاف النفوس أمام الإغراءات كانوا فئة قليلة لا تُذْكر، وليس هناك عجب، نحن بالنهاية بشر، لم نقل يومًا أننا أبطال وفرسان بأخلاق نزيهة ملائكية، بل أناس كما كل الشعوب، ألم تسمعي قط بخائن في كل دولة مستعمرة تواطأ مع مُحْتَلِّها؟

هزت رأسها سريعًا توافقه، فهي تؤمن جدًّا أن مقاومة أي استعمار هي غاية وقضية الشرفاء، وبعض البشر انتزعت منهم تلك المزِيَّة حتى ما عاد يعلم شكل حروفها أو يستطعم معانيها.

أشارت جفرا إلى الأسفل نحو البعيد قبل أن تقول بقنوط:

- إذن (تل الربيع) أبيد سكانها، وليس كما يروجون أنها ملكهم؟

قال بلهجة نافدة الصبر:

- ليس هناك ما يُدعى (تل الربيع ولا تل أبيب)، كلاهما وصف عبري، بل تلك العاصمة المحتلة في الحقيقة أقيمت على أطلال حي يافا الذي كان يسكنه اليهود الأصليين في عهد العثمانيين، ثم أخذوا بعدها في توسيع تلك المدينة حتى التهمت قرى مسلمة فلسطينية كاملة هُجِّرَ أهلها ودُمِّرَت، ثم استصلحوها مدعين أنهم وجدوا تحت أنقاضها آثارًا يهودية، والمثير للضحك أنهم وجدوا بالفعل دليلًا لآثار، ولكنها تعود لعقود الفتح الإسلامي، وصك عملات ذهبية طُبِع عليه اسم سيدنا عمر ابن الخطاب، كما وجدوا أواني فخارية تحمل بصمة الكنعانيين.

توقع أن تجيبه، أن تناطحه أو تطلق سؤالًا آخر غبيًّا مستفزًا، إلا أنها لم تفعل، بل في رد فعل أصبح يعتاضه منها وجدها غائبة في حالة ذهنية من الألم غير المفسر، حتى همست ناعيه:

- أعلم عن هذا، بل وأستطيع منحك اسم قرية منها، فقد كانت موطن أبي الذي طُرِد منه قسرًا هو وعائلته، لقد أخبرني كيف هربوا فارِّين إلى مصر وهو طفل تحمله أمه دامية القدمين على كتفها، في حين أن عينيه وإدراكه الصغير يرصد عويل وصراخ الناس الملتاعين وبعض الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن فرمين أنفسهن في بحر غزة، وبعضهن أخرجن خناجر وطعنّ أنفسهن بمنتصف قلوبهن، متخلصات من ذلٍّ وعارٍ ينتظرهن.

أطرق عيسى برأسه نحو الأرض، عيناه تبرقان مثل الجمر الذي أوقده لسنين، ملامحه مسودة مكفهرة، حتى قال أخيرًا بصوت ميت:

- هذا مشهد يتكرر كل عقد من الزمن، فأنا قد رأيت ما قاله والدكِ بحذافيره في ليلة سوداء اختلطت فيها المأساوية ودقات طبول الحرب وأزيز الطائرات من فوق رؤوسنا، لقد كان يوم الحشر لا محالة لطفل لم

يكمل أعوامه الثمانية بعد، راقب جده يُحْرَق أمامه دفاعًا عن شرف أمه، وأبوه العاجز عن مواراة جسد والده الثرى يسحبهم هاربين ناجيًا بكل ما تبقى له، لقد قفزنا فوق خطوط من النار، الناس تساقطوا من حولنا كثمار شجرة قُطِع جذعها واقتلعت ركائزها، لقد صمَّ أذني صراخهم وعويلهم وندب أقدارهم، بعضهم ينادي بنخوة ماتت، والبعض الآخر يئس من حياته وما عاد لديه ما يعيش من أجله، أمّا ما لم يُمحَ من قلبي وعينيَّ قط فهو منظر تلك المرأة التي فزعت فجأة تبحث عن طفلها، تصرخ منادية باسمه ونحن على مشارف الحدود، لتدرك بعد برهة أنها فقدته، ولم يعد لابنها مكان بين الأحياء، ربما اختطف، وربما تعثر في حفرة سحيقة في الصحراء التي مشينا فيها، وربما ببساطة وافته المنية من العطش والجوع فقررت خلال لحظة واحدة ودون تردد إنهاء حياتها بسكين مطبخ كانت تتسلح بها للحماية بعد أن أحرق المستوطنون اليهود زوجها أمام عينيها.

كممت جفرا فمها بكلتا كفيها تتأمله بامتقاع، ثم همست بعجز من بين دموع صدمتها:

– رباه، مَن لورين يا عيسى، ومن أنتَ؟

نظر إليها بضياع للحظة مستعجبًا من كشف نفسه أمامها، ولكن ما الذي بقي حتى يتمسك بالإنكار؟ قال:

– أنا مَن عشت عمرًا أحمل داخل فؤادي الدامي جرحًا لم أجد له دواء، مجرد فتى في الثامنة، كنت أحلم بصباح جديد، أحياه في كنف عائلتي، أجهز للاحتفال بميلاد أختي، أنتظر بكل حماس وشوق وضع والدتي توأمتيها.

كانت تحدق إليه بأنفاس مبهورة وهمست:

– وبعدُ، أين هم؟!

انحنى كتفا عيسى بوجع دامٍ:

– كما أخبرتكِ، اقتحموا قريتنا في ليلة يبحثون عن فدائيين، عن أبي بصفة خاصة، فقد كان يعالج الجرحى سرًّا، وإن كان مخططهم وذريعتهم الكبرى الاستيلاء على قريتنا.

كان قلب جفرا يقفز بين أضلعها والقهر في صوته يصم أذنيها، همست بتشتت:

– قتلوا جدك، كما ذكرت؟

أومأ وأصابعه تضغط على عينيه بقوة عله يمنع دمعة رثاء:

– لأنه دافع عن أمي، ومنعهم من لمسها وأي أحد منا، وهربنا من الموت بأمر ووصية جدي نازحين مع والديَّ.

أطلقت جفرا نفسًا خشنًا وهي تسأل:

– بالطبع ذهبتم للمخيمات؟!

أكد وهو ينظر إليها من جديد بتوتر محاولًا لملمة شتاته:

– رأينا هناك ما لا يتخيله بشر من عذاب، برد، وجوع وأمراض تتفشى، حدَّ أن أموات المخيمات كانوا يُدفنون بجانبنا.

– يا إلهي الرحيم.

ضاعت نبرة في حلق عيسى عندما شرح باختصار مؤلم:

– لقد تحطم أبي، كسرته ويلات الحرب، ووجعه ومرارته على أولاده الذين يعجز عن توفير أبسط سبل الحياة لهم، بجانب ولادة أختيَّ التوءمتين اللتين عانتا منذ اللحظة الأولى، ثم جاءت النجدة في هيئة منظمات إنسانية واعدة، ويا ليتها ما جاءت.

تذكرت جفرا جيدًا ما فسرته لورين عندما همست بوجه شاحب كالأموات:

– لورين ليست حبيبتك، بل شقيقتك وأنت طفل تعرض للاختطاف الشرعي، يا إلهي لماذا؟!

ابتلع عيسى غصته وهو يحدق إليها من جديد غير متفاجئ من ربطها كل الحكايات بعضها ببعض، وقال بجمود:

– كارثة أبي الحقيقية أنه صدق الحلم الواهي أملًا فيما قد يمحو الكسر والمأساة التي رهنت أبناءه.

أبي ظن أنه اختار الحياة عن الموت، الأمل عن اليأس، فذهب بقدميه لحلم أرض الكابوس، وهناك سُلِب منه أيوب المتبقي منه، فأنا وأخواتي الثلاث اختُطفنا شرعيًّا، فوهبونا للتبني لعائلات أمريكية بحجة أن والدي خطر علينا.

إذ إنه عندما وصل أمريكا كان مدمرًا تمامًا، كثير الشجار مع والدتي، الحلم لم يكن حلمًا بل مزيدًا من الفقر المدقع، رفضوا منحه وظيفة تليق به، عمل في المطاعم ونظف المراحيض، في وظائف لا تليق بالطبيب أيوب أبدًا، وكل هذا ومعاناتنا جعلته يفقد نفسه فيقع في مصيبة أكبر، غير واعٍ أنه على وشك فقدنا نحن.

تمزقت جفرا وتحطمت شظايا مما تسمع، لم تحتَج ليشرح أكثر، إذ إنها تعلم عن هذا من خلال رصدها بعض الحالات، لقد تابعت قضية مماثلة، حجة تطلقها هيئة رعاية الطفل بأن الأهل غير صالحين، فيسلبونهم أطفالهم ببساطة، قالت أخيرًا بإقرار:

– بالطبع سُلِبت الهوية، قبل الدين.

تحكم الغضب الفوضوي فيه وهو يقول:

– لا يفرق معهم دين أو عِرق مختلف، فمن وجهة نظرهم لا يهمهم إلا توفير حياة مستقرة، وهذا لم ننَله أيضًا، عشت في ملاجئهم، حتى بلغت الثامنة عشرة، وعندما خرجت لم أجد إلا ضياعًا ينتظرني، حاولت البحث عن أبي وأمي وأخواتي، نبشت كل ولاية أستطيع الوصول إليها وأنا مجرد مراهق مشرد أعمل بالأجرة يومًا بعد يوم حتى انتابني اليأس ولم يبقَ إلا حلم العودة لوطني، حين أوهمت نفسي بأنه استطاع لمَّ شتاتهم بطريقة خيالية وسبقوني إلى هنا، ثم في إحدى محاولات سعيي قابلت رجلًا (مقدسيًّا) أخبرته بقصتي دون أن أفصح عن أسماء، وبرغبتي في العودة بعد أن عرف أصولي.

سألت جفرا بتردد:

– ألم يدافع والدك لاستردادكم؟!

قال بقهر:

– فعل، عامان وهو يحاربهم، يفعل المستحيل لِلَمِ شملنا، إلا أنهم رفضوا ما حاول لأجله، بل وسجنوه لعام، وتفرقنا نحن بلا عودة.

لم تجد جفرا إلا البكاء بقوة لسماعها تلك المأساة، سألته بتحشرج:

– أخبرني –على الأقل– أن لورين وجدتهم كما عثرت عليك.. أرجوك.

تبسمت شفتاه بألم وحسرة وهو يجيبها:

– وجدهم أبي منذ أعوام وأعادهم للأردن، ووجدني أيضًا، لوجعي لم أقدر على التواصل معهم؛ خوفًا من أذى يطالهم، وقد نالوا كفايتهم.. إلا أن لورين عنيدة كالحجر، أبت إلا أن تراني.

همست من جديد بتعثر:

– ووالدتك؟

اغرورقت عينا عيسى بالدموع وهو يشيح عنها بقصد، ثم قال:

– رحمها الله، ارتاحت من عذابها ومرضها الذي نال منها لوقت طويل، عقب أخذ الحكومة الأمريكية لنا.

– ماذا فعلوا بك؟

أغلق عينيه لبرهة أخرى، وهو يقول بقهر الرجال:

– المشكلة كانت أني كبير كفاية لأفهم المخطط، أستوعب المأساة، رفضت ما يحدث، طالبت بأخواتي وأسرتي، فعوقبت بالضرب سرًّا، بالتهديد جهرًا، وبالطبع بالأسر.

البديلة (العنصرية).. لم تتقبلني ليومين حتى أعادتني لأنال من دار الرعاية المزيد من الاضطهاد.

أخفضت رأسها وهي تتمتم بوجع مرير:

– لقد نجحوا في تدميرنا، في تفرقتنا، وليس في سلب الوطن فقط.

حينها رفع رأسه نحوها ينظر لعينيها مباشرة وهو يقول كلمات لن تنساها يومًا:

– لا تجزعي يا جفرا، الوطن المسبيّ، وعدنا الحق، ووعدهم الباطل، رغم كل ما حدث ويحدث فينا لن نكف عن المقاومة، لقد ورثنا حريتنا وسنقاتل نحن وأبناؤنا لآخر رمق فينا حتى نحشرهم يومًا وراء الشجر والحجر الذي سينطق مناديًا فينا لتطهير (أرضنا الجفرا) منهم.

ثم بدأ يثبت يقينه بآيات من قول الله تعالى:

- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

- كيف تستطيع أن تكون بكل هذا القدر من الصبر والإيمان؟ لو كنت مكانك لضعت.

قال بصوت أجش:

- جفرا ما كانت أبدًا لتستسلم لليأس.

تبددت الدموع من عينيها وفغر فمها على متسعه محدقة داخل عينيه اللتين تنظران إليها بمعانٍ أكبر من أن تستطيع فك شيفراتها، ابتلعت ريقها بصعوبة تشعر بأن كل خلية فيها اهتزت بالخطأ تمامًا، ثم همست أخيرًا بخفوت:

- ما معنى اسمي يا عيسى؟!

ابتلع عيسى شيئًا تكور في حلقه رافضًا ذلك الشعور الغريب الذي بدأ يتكون بداخله نحوها، غير مسيطر على صوت نَفَسه الأجش ولا عينيه اللتين أصيبتا بهالة الليل الساحرة من حولها، كان يقول بخشونة تركت في قلبها رجفة ممتعة جعلتها تحلق فوق النجوم رغم كل الأجواء الكئيبة، ورغم كل الظروف العصيبة:

- إنه يتوقف على مَن أنتِ سَمِيَّتُها، جفرا الأسطورة، أم جفرا الشهيدة التي لا أطمح أبدًا في يوم أن أراكِ مثلها، يا جفرا سليطة اللسان ومستفزة الفعل.

وضعت أصابعها في فمها تضغط عليهم بأسنانها خوفًا وشجاعة، ثم قالت أخيرًا باختناق:

- بل جفرا التي تثق فيك حد أنها ستخبرك مَن الكابتن عزرا وعلاقتها به، وما الذي يريده منها.

تنبهت كل خلية في جسد عيسى يشجعها دون كلام أن تستمر في القص عليه دون تردد، وقد أزيلت حواجز عدة بينهما في هذه الليلة التي لن تُمحى من ذاكرتهما يومًا.

****

أغلقت رندة كتاب الله بعد أن أتمت القراءة فيه عقب صلاتها الفجر، ثم جلست مواجهة لباب المنزل لتقع عيناها على وجه أحمد الذي عاد لتوه من الصلاة في المسجد، فسألته بنبرة رجاء ولهفة:

- هل من أخبار عن جفرا يا ولدي؟

نظر إليها أحمد بثبات للحظات مداريًا بجدارة ضميره الذي ينهشه وعصبيته التي تبث في أذنيه كل دقيقة أن يذهب إليها ويَجُرُّها من مكان أرادت البقاء فيه بإرادتها، إلا أنه قال أخيرًا ببساطة:

- سامحيني يا عمة، فابنتكِ لا تمنحني أي أفضلية عنكِ لأعلم بخطواتها.

تغضن وجه رندة بالألم قبل أن تهمس بإحباط:

- لا أعلم ما الخطأ الذي ارتكبته معها، لقد حاولت تربيتها لتصبح مثلي، ومثل فتياتنا...

صمتت مهمومة ورفعت كلتا يديها إشارة إلى الوضع الذي أصبح لا يخفى على أحد من شخصية ابنتها.

تنهد أحمد بتعب وهو يتحرك نحو المقعد المقابل لها في فسحة المنزل الضيقة، ثم مد ساعده قليلًا يخلع حذاءه وهو يقول بهدوء:

– لا أخفي عليكِ يا عمة أني بالفعل لم أتقبلها منذ أول لقاء، إلا أني أتفهم الآن للأسف أن ما آلت إليه جفرا ليس خطأكِ بالنهاية.

دمعت عينا رندة بحسرة، كفكفتها سريعًا بطرف حجابها وقالت بأسى:

– المشكلة أنها عنيدة، ومندفعة، تنجذب كالنحلة التائهة نحو أي زهرة خطِرة ومتوحشة.

التوت شفتا أحمد ورنا بوجهه بعيدًا، ألم يشُكَّ بهذا في نفسه منذ أول لحظة قررت فيها تلك المستفزة البقاء ملوحة باسم عيسى ومتحامية به بكل صلف؟! أعليه بالفعل أن يقلق عليها منه أو يرتعب على المسكين من المجنونة؟!

قال أحمد أخيرًا بثبات وثقة:

– لا تخافي عمتي، مهما وصل تهورها.. ثقي بأنها في المكان الصحيح وتتمتع بحماية عالية.

– أنت تعلم مكانها إذن، وليس كما ادَّعيت الجهل، وكما كذبت هي أنها خلف الجدار العازل لتجميع مادة صحفية؟

قال بهدوء:

– لا أحبذ الكذب عمتي، ولكن أستطيع إخبارك أنها بخير، والمكان الموجودة فيه اختارته بإرادتها الكاملة.

هزت رندة رأسها بقنوط، وعمَّ صمت جزئي بينهما، ونظرت له من بين خطوط الزمن التي تضاعفت على قسماتها، لطالما أبصرها في وجوه العجائز بالذات، تروي تفاصيل حكايتهم مختصرة، تحكي دون كلام معبرة عن حكاية ثائر، حكاية شهيد، وجريح وأسير، حكايات تغلق صمامات القلب وجعًا لمعاناة كل مُهجَّر ونازح سرقوا أحلامه قبل أرضه، وعمَّته بالذات يعلم يقينًا أن مأساتها تزيد العتمة داخل عينيها رغم تشدق الغرباء بأنها ارتضت وتمتعت بل وزرعت بذورها في وطن آخر، خسئوا جميعًا، ألا تبت أيديهم.. فهم المتخاذلون.

– أريد زيارة الأقصى يا أحمد، علَّ روحي الهلعة منذ أعوام طويلة تخشع وتهدأ عندما أصلي هناك.

أُخِذَ على حين غرة من طلبها، رغم توقعه له فإنه جاء مفاجئًا وسط الاضطراب الخاص الذي تعانيه، إلا أنه قال بهدوء وهو يربت بكفه على عنقه:

– على رقبتي، سآخذكِ ولو اقتضى الأمر بالتهريب، فهم يمنعون ذهاب الشبان والرجال الأشداء مثلي إلى هناك، وأنتِ أيضًا الأمر صعب قليلًا ويحتاج إلى الكثير من التصاريح.

هزت رأسها بشحوب متفهمة ما يقوله:

– أطال الله عمرك وحفظك لأبيك يا غالٍ، وأعمى أعينهم عنك.

نظر إليها مبتسمًا ثم قال:

– مع طلوع الشمس سأسعى لكِ في الأمر، وبخاصةً أن الأمور هدأت قليلًا الآن، بعد إعلانهم أنهم لن يجتاحوا قريتنا الهادئة قريبًا.

تنهدت وهي تقول بطريقة مَن يُقِرّ واقعًا لا مفر منه:

– لن يفعلوا، سريعًا سيجدون مسمار جحا، ليعيدوا تفتيش المنازل باحثين عن البطل المدعو ظريف الطول الذي يثير غضبهم وجنونهم منذ أعوام.

طاف بعينيه لهيب مستعر:

– فليبحثوا قدر ما يشاؤون، إن كانوا وجدوا ظريف الطول الأول فقد يعثرون على الأمل الذي تجدد.

ظلل وجه رندة تعبير من الهم والحزن، إلا أنه استطاع فهم معانيه، هل تشك في أمره هو بالذات؟! ولمَ لا وقد جرت العادة أن يلقبه البعض بالمحنك، الداهية، بارع التخطيط حتى في أقل الأمور الحياتية البسيطة؟ لقد أُسِر من قبل عامًا كاملًا، ثم أفرجوا عنه بعد أن عانى أهله الأمرّين، بالنهاية لم يستطيعوا إثبات أي تهم صريحة، لأن العمليات التي قبضوا عليه بحجتها استمرت بعد أسره وكلفتهم الكثير من الخسائر، وبخاصة إحداها التي تسلل فيها رفاقه وقتلوا فيها عشرين جنديًّا من جنود الكيان وحاخامًا.

قبل أن تنطق رندة بشيء كان والده يدخل الدار شاحب الوجه، مضطرب الأنفاس، ومنكسر الروح، جلبابه الأبيض ملطخ بالتراب، كوفيته التي دائمًا تحيط رأسه كانت مهدلة على أحد كتفيه، فزع أحمد من مكانه متوجهًا إليه يسنده وهو يسأل:

– ماذا بك يا أبي؟

ظل إسماعيل ينظر لرندة وحدها بعينين متضعضعتين بالفاجعة التي وقعت فوق رؤوسهم، هبت رندة من مكانها مهتزة حتى الأعماق تشير بيدها بلا معنى وشفتاها المرتجفتان تسألان بخوف:

– ماذا هناك يا ابن عمي؟ أهناك مكروه أصاب طفلتي وتخشى إخباري به؟

هز إسماعيل رأسه نافيًا بعنف قبل أن يقول:

– لقد عرفت مكان الغائب، وعلمت أسباب عدم عثورنا عليه.

أحست رندة بالخطر وبسطور من الوجع ستضاف لكتاب حياتها المؤلم من جديد وهي تهمس بترقب مرتعب:

– أخي.. أين؟

****

كانا يهبطان من أعلى التل أخيرًا بعد إصراره أن يصطحبها معه كما فعل مرتين من قبل، حين أخذها بنفسه لتصور بعض الضحايا الذين يُطلَق عليهم البدو، ويعيشون في منازل معدومة الآدمية أو مخيمات

حقيقية بين الوديان، وقد جار عليهم ذاك الجدار العازل الذي أكل المدن الفلسطينية، كما زارت أيضًا عدة منازل لشهداء من الأطفال، فقد أراد عيسى أن يرد عليها دون دفاع عندما اتهمتهم بترويع أطفال الصهاينة بعد عملياتهم أو إطلاق الصواريخ التي تخترق كل حمايتهم، فمنحها ببساطة ودون تزوير إعلامي مُعدٍّ في المسبق بإخراج تلفزيوني مبهر، ما يدحر حججها.

إن كنا سببًا في إخافة أطفالهم بأصوات القنابل، فماذا عن أطفالنا الذين قتلوا ببنادق العدو؟ ماذا عن أطفالنا الذين دهستهم عجلات المستوطنين؟ ماذا عن الرجل والشيخ اللذَين أنقذا امرأة يهودية واصطحباها لأهلها فكافؤهما بسحلهما أحياء ثم تقطيع أوصالهما ورميها بين الوديان بعد أن سرقوا كل متعلقاتهما.

– أترين بقايا ذلك المبنى هناك؟

أقرن قوله برمي حصى صغيرة بطول ذراعه، هبطت على المدى البعيد، لافتة انتباهها إلى بقايا حصن مهدم.

هزّت رأسها باهتمام وهي تُعِدّ كاميرتها المميزة التي أحضرها عيسى لها منذ أيام هدية سلام وحسن نية بينهما.

قربتها جيدًا ثم بدأت في أخذ بعض الصور؛ ما جعله يتوقف مكانه عاقدًا يديه على صدره وهو ينظر إليها بأريحية مبتسم الشفاه.

عبست وهي تقول بتبرم:

– ماذا؟ ما دمتَ قد لفتَّ انتباهي إليه، فهذا يعني أن وراءه قصة.

أومأ مؤكدًا وعيناه لا تحيدان عن التحديق إليها؛ ما دفع إليها ارتباكًا واضحًا بددته بإزاحة خصلات وهمية من شعرها الصبياني وراء أذنها ثم قالت:

– لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

أطلق زفيرًا حادًّا من بين شفتيه المطبقتين ثم مال يلتقط حصى أخرى يضربها بعنف جانبًا ثم قال:

– هل تريدين الصدق؟

هدر قلبها بين أضلعها ترقبًا، همست بخفوت:

– يا ليت.

هز كتفيه بقلة حيلة وقال بهدوء:

– لا أعرف يا جفرا.

عبثت في شعرها بارتباك من جديد وعيناها الجميلتان تتهربان من النظر إليه، وهمست مداعبة:

– أيهما.. جفرا الجميلة أم الشهيدة؟

قال في طرفة نادرة لم يفكر فيها:

– بل جفرا شهيدة النجار، التي تصر على ندائه باسم قد حذرها من نطقه.

على الرغم من عفوية الجملة فإنها رغمًا عنها شعرت بأضلعها تنطبق فوق صدرها تمنعها من التقاط أنفاسها بسهولة، ومع كل شهيق كانت تأخذه تتألم ألمًا جارحًا، امتد الزمن بينهما مرة أخرى، كلاهما يحدق إلى الآخر بترقب، بتعجب، وربما بغرابة تلك المشاعر التي تتحكم فيهما وتأسر أحدهما للآخر دون أن يشعر، ربما هذا يوضح كل شيء، إذ يمنحه مبررًا رغم هذره، إلا أنه بدا منطقيًّا لقبوله بقاءها معه، لوثوقه بها ولزوال كل شكوكه نحوها.

رباه هل يستطيع القول إن الانجذاب يعمي؟ أم هو شعور آخر يرفضه بكل كيانه ويقاومه منذ بداية حدوثه؟ هو يرفض أن يدق قلبه بعنف، أن يرتعش بجنون في حضرتها، هل الحب يعني الوقوع في الخطيئة؟ ويسحب قدميك داخل جُبٍّ سحيق ليس منه نجاة للترحال داخل دروبه المتعرجة بلا عودة؟!

كان عقلها مخدر، ضائعة وهي تستعيد جملته بشعور مؤلم رغم عدم تعمده إلقاءها داخل وتينها، حاولت جفرا أن تعيد تركيزها لشيء آخر عبر سؤالها القانط:

– حسنًا ماذا عن المبنى؟

التفت بعيدًا عنها محاولًا التعاطي مع إحساسه الذي يجاهد لدحره ونكرانه، فقال بصوت مكتوم:

– إنه أحد السجون التي كانت تحوي الكثير من الأسرى.

اشتعلت حواسها من جديد، وارتفع أنفها كفأر يتشمم رائحة قطعة جبن مغوية عندما قالت:

– وما المميز فيه؟ ولماذا هُدِم؟ أليس هناك المئات مثله الآن، ويحوي بين ظلماته آلاف الرجال الذين لم يروا نور الشمس منذ سنين طويلة؟

بدا وجهه غير مقروء عندما أخبرها باختصار:

– هذا صحيح.. إلا أن المعاناة لا تكمن في عدد الأعوام التي يستغرقها الأسرى داخل سجونهم، فبعضهم قد يحكم عليه بأكثر من خمسمئة عام، أي إنه قد يحتاج أضعاف عمره لإنهاء مُدَّة حكمه.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقول بصوت باهت:

– لقد سمعت أنهم يستعيضون عن هذا بأخذ جثمان الشهيد أو السجين بعد موته وإفراغه من أعضائه، ثم يمنحون أهله بعد أعوام كثيرة مجرد رقم في مقابر الأرقام لا يحمل اسمه حتى.

أغمض عينيه بقوة قبل أن يقول:

– نعم هذا هو الحال، لذا كان حرصنا الشديد على أخذ جثمان الشهداء قبل المصابين يوم ثورتنا كما رأيتِ، نحن لن نسمح لهم قدر استطاعتنا أن يضطهدونا أحياءً ويتاجروا بأجسادنا أمواتًا.

قالت بأسى:

– لهذا تُعد إسرائيل أكبر دولة بالعالم في تجارة الأعضاء البشرية.

ضحك ضحكة سوداء أصبحت تحفظها عنه، ثم قال وهو يفرد ذراعيه بمسرحية:

– طبعًا.. ومَن أفضل منهم؟ إن لديهم الموارد اللازمة طازجة وصحية ومعافاة كما ترين.

رمشت بعينيها قائلة بحيرة:

– بصراحة، رغم كل ما رأيته في أرض العجائب هذه فإني ما زلت مصدومة من تعاطيك مع الأمر وكأنك تتحدث عن طبقك المفضل على مائدة العشاء.

رفع حاجبيه قبل أن يمنحها ابتسامة رجولية مهلكة في تفاصيلها، آسرة في معانيها، مبددة سخرية اللحظة، وقال:

– فقط اعتدنا.

خفق قلبها وكل تفصيلة فيه تمس دفاعاتها دون قدرة لها على إخفاء ذلك الوهج المشع كشمس الصباح المنعكس على عينيها بلون القهوة المحترقة فتزيدها سحرًا، وكان قلبه هو الهارب أولًا عندما أزاح بصره عنها مجددًا وقال:

– بالرجوع للقصة، وهذا أفضل جزء لديَّ، إذ كانت والدتي تترنم لي ببعض الأغاني الشعبية غير المفهومة حينها.

– رجاءً وضح لي.

شيء من الحنين برق داخل عينيه وقال:

– في زمنٍ ما كانت النساء تذهب بجوار سجون كهذه، ثم تغني للأسرى فلكورًا شعبيًّا، إلا أنه كان محيرًا للمحتل، ولا يستطيع فهمه رغم جلبهم المترجمين.

– لماذا؟ ما اللهجة التي كُن يستخدمنها؟

قال موضحًا:

– العربية طبعًا، إلا أنهن أضفن حرف اللام مكررًا داخل كلماتهن شيفرةً سريةً، وعبر تلك الكلمات كُن يبشرن الأسرى، بمنحهم رسائل من الفدائيين الذين سيأتون في موعد معين لتحريرهم.

هتفت بانبهار:

– واااو.

ثم أضافت بفضول:

– وهل فعلوا حقًّا؟

– بالطبع، وحرروا الكثيرين.. إلا أننا أصبحنا نعجز عن فعلها للأسف الشديد مع ازدياد القيود حولنا، أتعلمين؟

– ماذا؟

اعتدل كله مواجهًا لها، ثم قال بنبرة غامضة مخالطة للجمود:

– الشهادة أهون بكثير من الأسر وخسارة العمر داخل سجونهم، الموت أرحم ألف مرة من أمل زائف قد يمنح لذويك فيصبحون هم أيضًا أسرى لدموعهم وخفقات لهيبهم المشتاق.

*****

من بعيد، كان يلوح الغراب بأجنحته حاجبًا شمس النهار التي تبدد عتمة الليل الطويل، مغطيًا رؤوس أناس كثر، بعضهم يلتحف بكوفيته، والآخرون نساء يكسوهن لون الحداد.

تشنجت ملامح رندة وهي تتمسك بيدي أحمد تسند نفسها إليه علها تمنع انهيارها الوشيك وهي تراقب حفرة كبيرة امتدت عدة أمتار، يلتف حولها العاملون بوجوه كالحة لفحتها حرارة الشمس العاتية، وأرهقهم رفع الفؤوس التي تدب في باطن الأرض منذ أيام بغرض حفر أساس في هذه البقعة بالذات، لبناء منازل جديدة للاجئين الجدد من قرى ما زال العدو يُغِير عليها مهجرًا أهلها، إلا أن العمل قد توقف الآن، كما حُجِزت أنفاس كل من مزقه التعب، ونال منه البؤس في أشد حالاته، وما الجديد، ولماذا هم متفاجئون؟! ليست هذه أول مرة يحفرون ويصادفهم وجود مقابر جماعية حوت الكثير من الهياكل العظمية لأناس مكفنين بملابسهم وقد دفنوا أحياء.

جمدت رندة مكانها رافضة التقدم أكثر، تراقب بعينين لا تريان العديد من الوجوه المعتمة التي ماثلتها عمرًا أو أكثر تستمع لمواويل الرثاء التي تفطر الفؤاد، وتنهش القلب في دائرة مفرغة حتى وصلت إلى صدرها هي، فارتجفت كل نبضة تبقيها على قيد الحياة، وكأنها دعست تحت الأقدام دون رأفة.

همست بصوت زلزله القهر ودموع المعرفة تتلألأ في عينيها:

– لماذا نحن هنا يا إسماعيل؟

انحنى رأس أحمد عاجزًا عن منحها إجابة، وجلس أبوه القرفصاء بجوار ابنة عمه أمام هذه المقبرة الجماعية عاجزًا عن منحها إجابة وافية، إلا أنه فعل ما هو أشد وطأة محطمًا آخر آمالها عندما تسلَّم من أحد الرجال ساقًا خشبية كان يستعين بها منذ أن قُطعت إحدى ساقيه في زمن غابر.

صوت تحطُّم ما سمِعَته رندة يدوي بين أضلعها، إنه قلبها، لا بل حنينها، لا بل ربما هو صوت كل أحلامها التي قضت أعوامًا طوالًا تُمَنِّي نفسها بلقائه وضمه بين ذراعيها، أو ربما هي كل تلك المشاعر وأكثر قد تهشمت شظايا منثورة جارحة.. عاجزة عن إطلاق حتى اعتراض لما وصل إليها بيقين:

– لا.

صرخة الحزن والتياع الأنين كانا عبارة عن صمت بحت، فقط فمها يفتح على آخره دون صوت، جسدها ينهار حتى بات أحمد عاجزًا عن إسناده وحمله، رأسها يرجع إلى الوراء، ركبتاها تُمَرَّغان في التراب، وفمها يفغر أكثر وأكثر بصرخاتها المكتومة، دمعها يجري على الخدين حافرًا أخدودين من الدماء:

– لاااا.

كلها يرتجف، يداها تمسكان في قمة ملابسها تنهشها وكأنها تحاول بمعجزة التخلص من الضيق الذي يكتم صدرها مانعًا عنها الهواء.

تشنج وجه إسماعيل بالمرارة وهو يزحف على ركبتيه يمد تلك الساق بيدين مهتزتين، ثم قال بلوعة:

– البقاء لله يا ابنة عمي، البقاء لله في حلم لقاء قد طاردناه معًا، أنتِ من الخارج وأنا من الداخل.

جسدها لم يتزحزح، رأسها لم يعتدل، في حين أن تشنجها لم يكُفَّ وهلة واحدة مستمرة في صرخاتها المجذوبة دون صوت؛ ما دفع أحمد إلى أن يعتدل وراء ظهرها ليسندها، عيناها ابيضتا من استيطان الألم فيهما، أصبحتا لا تحتملانه، في غربة داخل جفون عينيها كانت الكلمات المكذبة ترتسم بداخلهما:

– ليس هو.

أجاب إسماعيل دون أن يراها أو يسمعها وكأنه يريد التأكيد لنفسه قبلها:

– إنه هو يا رندة، هذه ساقه التي كانت تدُس فيها أمكِ وأمي ونساء قريتنا الحُلِي والمال خوفًا من عصابات الصهاينة، هذا زكريا الذي ساقوه مع شبان وأطفال القرية كالشاة التي تذهب لمقصلتها، لقد دفنوهم أحياء ثم داسوا عليهم بدباباتهم، كما العديد من الذين نكتشف قبورهم تباعًا.

أجفل أحمد للحظة في حين اعتدلت رندة في حركة مجنونة غريبة تنحني على الأرض، يداها تتشبثان بساق أخيها الخشبية.. كل ما تبقى من أثره، جبهتها تلامس التراب، ثم انطلقت صرختها أخيرًا تنوح بموال حزين بنبرة شابهت نبرة حيوان جريح تكالبت عليه الضباع:

– رحلت دون أن يُفصِّلوا لك ثوبًا على طولك، وأنتَ الشمع والبخور يلبق يا خي على طولك، تمنيت يا خي طول العمر الضنا ما يطولك، وحلمت عشرتك طول المدى، يا ربي ما خلقت علة بلا دوا، إلا علة الفراق ما إلها دوا.

وهناك وعلى بعد عدة أمتار، وقفت جفرا تدير ظهرها لعيسى تنظر إلى المشهد أمامها وتسمع صوت نواح أمها يخترق كل النساء والرجال المتجمهرين، أدارت رأسها أخيرًا من فوق كتفها تحدق إلى وجهه الجامد، وجهها فقد كل ألوانه، أطرافها ترتجف، الدموع تتقافز من عينيها، ثم همست بنَفَس مسلوب:

– أكنت تعلم؟! أهبطت بي قاصدًا؟

قال بجمود غالبَ كل الحزن الذي يثور بداخله:

– صدَّقتِ أم لا، لم أتخيل وجود مقبرة جماعية هنا، رغم توقعها فهذه البقعة المتصحرة تربط بين المحافظتين، إلا أني علمت من حمزة قبل ساعة وأخبرني وقتها أن الأمر ربما يخصكِ أنتِ.

تمكن منها الغضب والقهر محولًا هشاشة الصدمة إلى القوة التي يبثها سخطها وقالت بجمود:

– درس آخر في التاريخ تفجره بوجهي، تنتقم به مني، فمن أراها تموت الآن كما كل آمالها هي أمي!

هز رأسه نفيًا قبل أن يقول بهدوء:

– لا يا جفرا الوطن المسبي، بل أتيتُ بكِ لأحررك وأخبركِ أني أثق بكِ، أتيت لأمنحك القول الأخير.

كانت ترتعد فعليًّا وهي تنازع ما بين البقاء، والصراخ في وجهه بما وصل إليه حالها، بما اكتشفته من كل الأوجه القميئة لمؤامرة مجرد دويلات وكيان مستعمر لم يبلغ عمر وجوده في الدنيا غير بضع سنين على وطن أصغر شجرة زيتون فيه تبلغ من العمر خمسة آلاف سنة من جهة، وما بين ضرب كل شيء بعرض الحائط والركض نحو والدتها لتحميها وتهرب بها من جحر آليس العجيب من جهة أخرى.

– ماذا بعد؟ لقد آمنتُ.

– لا لم تفعلي، كما لم يعد يفعل غيركِ، كما نسي الكثيرون يا ظبية.

تراجعت خطوات للوراء، اتخذت القرار المنطقي الوحيد الذي يمليه عليها الفؤاد نحو أمها.

سمعت صوته في أثرها يقول بصوت أجش:

– تذكري يا جفرا، وذكري العالم أجمع عبر قلمك أننا لن ننسى، وكيف لنا أن نقدر على النسيان والموافقة على التطبيع معهم وكل شبر تحت التراب يحوي جثمان شهيد، يحمل بين جنباته سر نذالتهم وإبادتهم أجدادنا وآباءنا، أشقاءنا وأعمامنا، إن نسينا نحن وسلمنا بالأمر.. كيف لأرواحهم الخالدة أن ترحمنا ولا تطاردنا حتى نذهب إلى قبورنا؟

همست بصوت متقطع في حين تهرول إلى والدتها أخيرًا متخطية دروبًا من أشواك الوجع:

– لن أنسى، لن أسمح أبدًا بجعلها أندلس أخرى.

رمت جفرا جسدها جانب والدتها ثم حاوطت هشاشتها بذراعيها تحتويها كلها، تدفن رأسها في كتفها، وهمست مختنقة:

– ابكي يا أمي، ارثيه وكرميه بما يليق به، اجعلي روحه التي ترفرف حولكِ سعيدة بحلاوة لقائكما أخيرًا ترتاح وتستقر في مثواها الأخير، ابكي يا أمي علَّ الدموع تطهر بؤر الحزن.

– وا أخييااااااااا.

أخيرًا كان صوت رندة يعود بكل قهرها يشق السماء، يهزها للأعماق؛ ما جعلها في سحر روحاني تسكب دموعها، ترثي أوجاع شعب كامل، تغسل الهياكل العظمية لشهداء العزة قبل أن يكرمهم أهلهم بنقلهم لقبور تليق بهم بعد أن يقيموا صلاة جنازة أخيرة تصحبهم بحلاوة آيات القرآن أو ترانيم الإنجيل حتى مرقدهم.

****

غافلون جميعهم عن أعين تبرق بالغدر والشر البحت؛ باحثة عن جفرا المعنية منذ اختفائها دون كلل بهدف محدد لن يحيد عنه، يجب أن تخضع له، وقد أتت لعقر داره وداخل موطنه الأعظم والتاريخي؛ أرض الميعاد الحق إسرائيل، لن يغش نفسه ويقول بأنه أحبها أو جددت فيه عشق الصبا، إلا أنها وذويها المغيبين الذين منحوه كل دعم وحب فتعاملوا معه بإنسانية بحتة، جاهلين دينه وموطنه الحقيقي شكلوا له هاجسًا وهوسًا، ليته لم يستمع لمؤامرة أمه التي رفضت بكل إصرار الإفصاح لهم عن هويتهم الحقيقية قبل القدوم

إلى هنا، حين أخبرته بتلذذ: «دعهم، إنهم خُلقوا أقل من اليهود، ووُجدوا لخدمتنا»، «لتبقَ إسرائيل عالية، لتطمح يا عزرا ببناء تاريخ وطنك خاليًا منهم وبمساعدتهم لكم».

صدقت أمه، ها هو اليوم يقف من برج المراقبة الذي يتمركز في كل نقطة عسكرية عند كل مدينة من الضفة ستُضَم قريبًا جدًّا لتل أبيب، في حين أنهم جميعًا هناك يفترشون الأرض ملتاعين على مجرد حثالة رحلوا.

رفع عزرا هاتفًا داخليًّا ثم أمر أحد جنده بتصميم جامد:

– الهدف الذي طلبت منكم العثور عليه ظهر أمامي، أريدها قبل أن تشرق شمس نهار جديد.

****

الفصل الرابع

إذا أردت محو أمة عليك بتدمير فكر أجيالها وانتمائهم بصبر وتروٍّ، وتزرع بدلًا منهم جيلًا جديدًا مشوهًا يقابله من جانبك توثيق كل ما سلبتهم إياه بأجيال تخصك.

******

فاغرة الفاه جاحظة العينين ومتضاربة الفكر كانت تنجر إلى ما وراء جدار أصم وجاحد يعزل الأرض عن الأرض، يهرس الناس ويطحنهم في معاناة الحرب والعيش، في حين أن الطرف الآخر الذي هي فيه كل شيء مناقض تمامًا، ها هي تلمح الحضارة العظيمة والتقدم التكنولوجي والحدائق الغناءة وبيوتًا من الطراز الأوروبي التي لطالما سمعت عنها ورأتها في أرض إسرائيل، ورغم عجز بصرها وهي تحدق إلى هذا المكان المعجزة مقابلًا لما يناقضه على الطرف الآخر، فإنها لا تشعر إلا بالخواء، بيوت بلا أُسس، شجر بلا جذور، وحضارة هزيلة بنيت بالسطو على بقايا تاريخ عظيم.

دولة إسرائيل العظمى هي في الحقيقة قصاصة ورق لا تاريخ لها، رغم كل تطبيعهم وسرقتهم الثقافة العربية.

ثبتت جفرا مكانها، ذراعاها الاثنتان معلقتان في أيدي الأوغاد الذين جروها من داخل منزل ابن عم والدتها عقب دفنهم خالها، وتكريم رفات من وجدوهم في ذاك القبر، لم تجد حتى وقتًا لأن تساند والدتها، أن ترثي المفقود منذ عقود، فقد صدمت باقتحام عشرات من الجنود ليلًا يصرخون باسمها الكامل، يجرونها معتدين على أحمد وأبيه، الذين حاولا نجدتها، بالضرب مهددين أي فرد يقف في طريقهم بالأسر أو القتل، وهناك من البعيد وبينما تلك السيارة المصفحة تتحرك بها.. لمحته هناك مسود الوجه يرفع كفيه الاثنتين يحاوط رأسه من الوراء بِغِلٍّ، عيناه مثل سماء الشتاء العاصفة تحدقان إليها بمزيج غريب من الرعب والقهر.

****

فور أن زُجّت جفرا داخل مكتب عسكري أتاها صوت الشخص الذي يجلس باسترخاء شديد، في حين عيناه الملونتان كان بهم وعيد تجهل معانيه.

– يبدو أنكِ عانيت للوصول إليَّ، سيُعاقبون لعدم الرفق بكِ.. كما أمرت.

تمتمت من بين شفتيها بحقد:

– كان يجب أن أفهم أنك وراء كل هذا يا نذل.

ابتسم عزرا بخبث وقال ببساطة وهو يعقد كفيه فوق المكتب:

– لأنكِ جفرا الجميلة، يتاح لك سبي كما تشائين ولن أعاقبكِ.

رفّت بعينين متجهمتين مزمجرة بخشونة:

– أنت معتوه إذن.. كما كنت دائمًا، أنا لم يربطني بك شيء.

حرك كتفيه بلا معنى ثم قال بثقة:

– إلا أن أمي ومعلمتي رندة فعلت.

ارتجفت شفتاها لوعةً على والدتها إن علمت الآن عن شخصه الحقيقي، ولكنها سيطرت على نفسها قائلة بجمود:

– هذا لأنكم تجيدون التدليس، لو كانت أمي تعلم من أنتم أو كنتم صريحين كفاية، ما كانت قدمت يد العون أبدًا.

وقف من مكانه أخيرًا يتحرك بخيلاء أمامها ثم أرخى وركه على طرف مكتبه قائلًا ببرود:

– وما الفرق الذي كان سيُحدثه معرفتها وطني؟ الذي ربطنا هناك الإنسانية ومساعدة طفل يحتاج إلى الحنان والحب المفتقد من أبويه المشغولين.

أمسكت النار بقبضة من فولاذ في صدرها وهي تصرخ دون وعي:

– بل تفرق كثيرًا، نحن لم ولن تربطنا الإنسانية يومًا، وأنت تعلم هذا، ما كانت أمي لتقدم مساعدة لقتلة الأطفال.

ضاع المرح من وجهه، ظللَتْ عينيه ظلالٌ قاتمة قائلًا بجمود خافت:

– كل منا يفسر الأمر من وجهة نظر أهله، وأنتِ الآن ترددين حججهم الفارغة، الأطفال الذين قُتلوا كانوا من الطرفين ضحايا حرب.

تقدمت منه جفرا خطوة شجاعة بلا خوف، وجملة عيسى تتردد في عقلها الباطني متمتمة من بين أسنانها:

– إن كان كلانا يتحدث بما ربوه عليه أهله وزرعوه فيه، دعني أخبرك بأننا لا نحمل عار دماء الأبرياء، أتحداك وأتحدى التاريخ كله أن يذكر طفلًا واحدًا وقع صريع المقاومة الفلسطينية.

سخر متجنبًا ما تقوله وركز على شيء واحد:

– ليس هناك ما يُدعى فلسطين بل أرض إسرائيل.

تهكمت بطريقته نفسها:

– أوه حقًّا، لماذا إذن كانت حرب 1948؟ وماذا عن المليون مهجر قصرًا؟ وكيف تفسر مذابح: صبرا وشاتيلا ودير ياسين والطنطورة وخان يونس ومذبحة الأقصى، وغيرها إن عددتهم لن أنتهي لعام قادم؟!

كان طوفان هادر يعبث بكيانه، وقد أصبح كل ما يريده في هذه اللحظة هو أن يحملها مبتعدًا بها عن هذا النزاع وهؤلاء البشر ظافرًا بالفتاة الوحيدة التي شكلت له هوسًا في مراهقته، إلا أنه عندما تحدث أخيرًا قال بهدوء وثقة ملحمية في إيمانه بها:

– دفاعك لا يُصدق، إذ إن إيمانكِ جديد ومهتز، في حين أن إيماني بوطني الأعظم تربى في جوارحي، وفُطِرت عليه كما أنفاسي.

أغمضت جفرا عينيها شاعرة بأن كل ما يحدث مجرد عبث، الكلام غير مُجدٍ:

– أوافقك.. فأنت كبرت على الكذب والرياء حد أنك خدعت والدتي فأقنعتها بأنك مجرد مهجر إيرلندي لعين.

ساد الصمت القاتم مجددًا حتى قالت بضحكة سوداء اختلط بها بكاء بلا دموع:

– من سخرية القدر أن نُهَجَّر من أوطاننا، فنعاني ويلات التشتت، في حين نذهب لأرض غريبة تَمُنّ علينا باللجوء فقط لنربي أبناءكم بكل حب وحرص، أخبرني أي عدل في هذا؟!

رفعت رأسها، تصلب فكها أكثر، يداها تحفر في الباب خلفها تخدشه بأظفارها حتى أدمتها، شاعرة باليأس، لذا غيرت مجرى النقاش وهي تسأله بجمود:

– ما الذي تريده مني؟ لماذا تطاردني عزرا؟

رغم ملامحه التي تراجعت قليلًا لسؤالها الذي رغم منطقيته فإنه فوجئ من تنازلها عن الجدال، فهو يعلم أنها ليست جفرا من تتراجع دونما اقتناع، حينها التوت شفته وهو يلقي سؤاله دون مقدمات كضابط يحقق مع أعتى المجرمين:

– أين اختفيتِ ومع من كنتِ؟ هل أنتِ على علاقة مع هؤلاء المخربين؟

نظرة زجاجية شفافة خطت عنبر عينيها وقالت بلا مشاعر:

– نعم، فأنا أقف مع أحدهم في هذه اللحظة.

قال بوجه خالٍ من الأحاسيس:

– لا تتلاعبي بالحديث، وأجيبي عن السؤال.

– هل أنا في تحقيق رسمي هنا؟ إن كنتُ كذلك فأريد حقوقي قبل التحقيق معي.

قال بعصبية غير مفهومة:

– لا، بل أحاول تجنيبك هذا، هؤلاء مجرد شياطين فشلة، طريقهم لا يجلب إلا الدمار ونهايته معروفة.

يداها اشتدت خلفها وقالت دون أن تنظر إليه:

– غريب، رغم أن كل مسيرة شعبك تثبت لي أنكم وحدكم أسباب الخراب، تنشرون سمومكم في كل بقعة أرض تحلون عليها فتحرقونها وتنهبون خيراتها كالجراد، ثم عندما تنتهون منها ترحلون باحثين عن عمار آخر تجلبون إليه أعلام الموت.

أظلمت عيناه شاعرًا بقبضة غاضبة تطبق على صدره:

– بل ظلمنا العالم أجمع، لأننا العِرق النقي، وها قد عاد إلينا حقًا، ورندة ومن مثلها فعلوا الصحيح، وماذا قد تفعلون بأطفال تكبر لتفسد، في حين أننا نكبر لنعمر؟! ماذا قد تحصدون من مجرد عربي همجي

وغبي، في حين أن كل فرد منا يكبر ليصبح عظيمًا مخلدًا ينفذ كلمة الرب، لا طائل من حياتهم يا جفرا.

أطرقت برأسها وهي تشعر بالخواء، قالت أخيرًا بجفاء:

– لن أجادلك في اعتقادك.

استبشر لوهلة من الرد وقد ظن أنه زرع أول مسمار في نعش إيمانها الجديد، إلا أن ابتسامة الانتصار التي بدأت تتشكل.. هزمته عندما سمعها تقول بصوت جامد لا يحمل أي تعبير:

– الغريب أن تكون هذه نظرتك للعرب أجمع، في حين أن قادتك يحرقون الأخضر واليابس منذ أعوام طويلة فقط ليعترف أي عربي بدولتكم المزعومة، من العجيب يا عزرا كل هذا الاحتقار الذي يجري في دمائك، لقد بذلتم الغالي والرخيص ليطبع كيانكم ذو الـ ٧٢ عامًا مع دويلات لم تكمل أعوامها ٤٨/ ٤٧ عامًا متواطئين على دولة أصغر شجرة زيتون فيها تبلغ ثلاثة آلاف عام.

صمتت لوهلة تسحب نفسًا قويًّا تحدق إلى ملامحه التي لم تستطع أن تميز فيها أي مشاعر، أردفت متهكمة:

– أخبرني كيف تحتقر شعبًا بهذا الغل الأعمى، في حين لم ترددوا في سلبه حتى أنواع طعامه الشعبي، أغانيه التراثية، أساطيره التي تردد للأطفال، حكايات الأجداد طعّمتموها بالعبرية ونجّستموها بالصهيونية.

لم يرد أيضًا، فقط أنفاسه تعلو علوًّا مريعًا، جسده يقترب منها كضبع جائع يتحين فرصته المتاحة حتى وصل أخيرًا إليها لينقض عليها بعنف وكأنه ينوي الفتك بها، أمسك كلتا ذراعيها يهزها كلها لتتحرك بارتجاج أصابها بالدوار، شعرها الصبياني تشعث، وعيناها خلت منهما الشجاعة واستوطنهما الخوف، هو سارق الأرض، مغتصب العرض، فكيف لها التحلي بالقوة في المواجهة مع شيطان مثله تجهل بالأصل ما يريده منها؟

– مجرد شعارات لن يكتفي شعب مهزوم بترديدها، إنهم أناس خانوا قضيتهم، باعوا أرضهم بمحض إرادتهم، أما عن أولئك الذين طبعوا مع شعبي.. فلأنهم أدركوا مَن صاحب الحق هنا، من الشعب المتطور لا الشعب الجائع، من الشعب المختار الذي سيوصلهم إلى الجنة ويحل السلام من النيل للفرات.

ببطء كانت تثبت رأسها، عيناها تنظر إليه من موقع منخفض، حاولت بكل طريقة ممكنة كتم ضحكة سخرية إلا أنها عجزت وانطلقت بصفة مبالغ فيها، تضحك بسوداوية متهكمة، تصرخ بانتمائها الكامل لعيسى، لظريف الطول، تبًّا لعشقٍ عجيب تمكن منكِ يا جفرا، حتى وأنتِ في هذه الورطة فؤادكِ يتمسك بأمل النجاة عبره.

«عشق؟!»

انمحت ابتسامتها ببطء كما بدأت، قلبها يرتجف بين أضلعها، يهتز بعمق وعنف، وكل كيانها ينعزل داخل فقاعة آمنة ومريحة وغريبة كما اعترافها، وقد فسره هو بطريقة خاطئة تمامًا ظنًّا منه أنها تأثرت بوجوده

كما هو احترق منذ أن رآها هنا أول مرة، جفرا لطالما مثلت له تحديًا، ربما هي لم تملك ملامح مبهرة يومًا، ومؤكد أنها لا تتمتع بأي مزية من نعومة وأنوثة النساء، فهي مستفزة، شخص يصعب تقبله وحبه منذ أن كانت مجرد طفلة تعبث وتلهو.

إنها تبغضه لاهتمام رندة به، إلا أنه لم ينكر أنها امتلكت سلطة عليه، وربما هو ذلك الشيطان الناعم الذي يرغب دائمًا بتدنيس حرائرهم بالوحل.

أنامله ارتفعت تمسد على وجنتها برقة، يده الأخرى تراخت على ذراعها بقصد التفافه حولها بنعومة أفعى سامة تتربص في الظل لتحتضنها كلها ثم تنقض عليها فتفتك بها، انتفضت أكثر وشحبت ملامحها إن كان يصلح أن تزداد شحوبًا، قاومت، صرخت وتمردت تدفعه عنها في قتال اشتعل حتى وإن علمت بأنها غير أهل أبدًا لمنافسته جسديًّا، ولكن ما شعرت به جفرا في هذه اللحظة أن ما يحدث اجتياح، حرب وسلب كرامة وكبرياء، وهي إن دفعت حياتها ثمنًا لن تكون قرية أخرى تُباد جذورها ويزرع فيها مستوطن حقير بذوره:

– أيها النغل القذر، سأرفع عليك قضية، سأرسلك وراء الشمس.

دفعها سريعًا بغضب، عيناه يطل منهما شيطانان مُرعبان، كفه تكمم فمها مانعةً صوتها من الخروج، يكتمها تمامًا عن الصياح والصراخ، ثم قال بغضب وسطوة:

– أيتها اللعينة المجنونة، أنا أحاول إفهامك أننا لبعضنا، أننا متماثلان، فطريقنا دائمًا يلتقي.

لم تتردد في الإطباق على كفه بأسنانها حتى دفعته للصراخ بحقد أكبر مبتعدًا عنها، فباشرت بالهتاف الجهوري:

– أنا وأنت عدوان منذ أن اجتاح أول جد لك أرض أجدادي، أنا وأنت كارهان وعدوان منذ أن أنكرتم رسالة محمد، طريقانا دومًا متضادان، نحن أعداء دائمين كما الأسد والفأر.

صمت، عيناه فقط ترسلان غلًّا وقهرًا غير محتمل، إلا أنه لم يفقد الأمل، فأكملت:

– وطبعًا التاريخ وحده القادر على إثبات من منا الأسد النائم الذي عندما تُقدَّر له الصحوة سيدحر كل الفئران داخل جحورهم، أعدني لأهلي أو سأرفع عليك قضية في سفارة ماما أمريكا يا عزرا.

– حمقاء إن اعتقدتِ أن لها سلطة علينا، وغبية إن فكرتِ أني قد أسمح لكِ بالبقاء في إسرائيل العظيمة أكثر.

****

يداها المرتعشتان بالقهر تفركان بالحجر، وصوتها المتحشرج يخرج مجذوبًا:

– أريد طفلتي، يجب أن تعيدوها لي، جفرا ليس لها علاقة بكل ما يحدث ليختطفوها مني، فقط فلتَعُد وسنخرج من هنا ولن نعود أبدًا.

أطرق إسماعيل برأسه بوهن يداري نصف وجهه المسود بحطته:

– تلك غلطتي يا ابنة عمي، إن لم أكن ألححت عليكِ وسهلت عودتكِ قليلًا حين وعدتكِ بالكثير الذي أعجز عن تقديمه، لكنتِ أنتِ وابنتكِ ما زلتما في أمان من أيديهم.

أخذت رندة بوجهها الشاحب وجسدها الهزيل تجوب البيت الضيق بما يشابه الهوس، ثم رفعت يديها تمسك صدغها وهي تقول بألم:

– ومن أخبرك أني كنت في أمان يومًا وأن أيديهم وأفكارهم لم تطالها؟ لقد كادت تفقد ضميرها وانتماءها، لهذا عدت بها، وليتني لم أفعل.

اقتربت رُفيدة التي جاءت للمساندة فور أن أخبرها أحمد بحاجته إليها هنا، لأنه ذهب خلف أحد محامي منظمات التفاوض للحاق بهؤلاء الذين أسروها، حتى يفهموا أولًا ما دافعهم، وإن كانوا لن يعجزوا عن تلفيق عدة تهم وليس واحدة كما اعتادوا، وبالطبع الجهاد بكل السبل لاستعادتها قبل إرسالها لسجونهم، وفتاة مثل جفرا لن تتحمل يومًا واحدًا.

قالت رفيدة:

– اهدئي عمتي سيصبح كل شيء بخير.

التفتت رندة تنظر إليها بعينين لا تريان هادرةً بانفعال:

– أي خير قد يأتي؟ وهي منذ أن هبطت هنا تقابلها كارثة تعقبها أخرى، والغبية لا تفكر مرتين قبل إلقاء نفسها فيها.

ازداد انعقاد حاجبي إسماعيل ألمًا، كما ازدادت قتامة ملامحه، إلا أنه لم يعلق على قولها الجارح، فهو يفهم تمامًا ما تمر به، وقد جربه بنفسه مرتين عندما أخذوا ولده، وقد كان خروجه شيء من المعجزات، إلا أن رُفيدة –كما توقع هو– لم تكن شبيهة زوجها لتمررها، هل من قلة الإحساس الآن أن يُثني على اختيار ابنه؟ لقد أحسن بالفعل (اصطفاء عتبة منزله).

قالت رُفيدة بصوت هادئ رغم تردد صداه في أرجاء المنزل:

– جفرا اختارت أن تزيح عصبتها المعتمة عن بصيرتها، أن تبحث عن جذورها، شرفها وعزتها وكرامتها، لم تُخبئ رأسها كالنعام وتضع نفسها في الجانب الآمن.

رفعت رندة رأسها مجفلة تنظر إليها كمن تلقى صفعة، ثم قالت باهتزاز مختصر:

– ستُكسر.

ملامح رفيدة الرخامية كانت تنطق بالكبرياء وهي تقول بثقة:

– الريح لا تكسر الشجرة ذات الجذور القوية.

لاحت المرارة بشكل يحطم قلب الصخر على ملامح رندة، تراجعت حتى هبطت على ركبتيها كالجمل الذي يبرك، دمعها انفجر بغير سيطرة، يداها تضرب على قلبها وكأنها ترجوه الثبات:

– لقد فشلتُ في زرع جذورها تلك يا رُفيدة، الآن أدرك المصيبة التي فعلتها كغيري، كنت أراها تتخبط، تقاوم وتتنازع بين هذا وذاك وعجزت عن مد يد المساعدة.

لانت ملامح رُفيدة بتعاطف، ثم جلست أمامها تُوازن جسدها على ساقيها، ترددت يداها للحظة حتى ألحَّ عليها خاطر باحتضان تلك المرأة، علَّ مساندتها تقدم لها شيئًا من القوة، همست:

– خالتي.. أنتِ فعلتِ ما استطعتِ، ومن قال إننا هنا لا يوجد بيننا من يفقد نفسه وإيمانه ويتأثر بحملات العالم أجمع التي تتواطأ علينا، بالعكس.. جفرا إن تميزت بشيء يستحق الاحترام، فهو بحثها المضني عن سبب قوي تدعم نفسها به، لقد اختارت الطريق الذي ستصنع منه تاريخها الخاص.

رفعت رندة عينيها المطعونتين تنظر للشابة الجميلة بغبطة ونوع من الفخر، أومأت رُفيدة برأسها مؤكدة:

– أنتِ ترين أن بحثها وشغفها هذا قد ضرها، وأنا أخبركِ بأنها فعلت الشيء الوحيد الصحيح، حتى لا تنسي.. مَن بلا تاريخ ليس لديه حاضر أو مستقبل.

أغلقت رندة جفنيها على دمعتين مرهقتين وحزينتين ثم همست بضعف:

– لقد مضت ساعات ولم نسمع عنها خبرًا، أخشى خسارتها وهي كل ما تبقى لي.

****

كانت تمطر بغزارة مع البرق والرعد المدوي الذي يضرب من السماء، كأنها ترسل بحمم غضبها واحتجاجها على ما يحدث في الحفرة التي وقعت فيها.

كيف خرجت من ذاك المكتب؟ لا تتذكر تحديدًا، أو ربما عقلها عتّم ما يحدث قاصدًا عندما جُرّت للمرة المئة ربما، ولكن هذه المرة ليصطحبوها خلف (الجدار الصمم)، ثم ألقوا بها في أرض مجهولة خالية من كل أثر للحياة، ربما تتناسى كم الإهانة التي تعرضت له، إلا أنها طوال حياتها لن تمحو مطلقًا من رأسها تلك النظرة المحتقرة والمتشفية من الأوغاد الذين يتبعون أوامر قائدهم، كانوا وكأنهم يخبرونها باختصار: «لا تدعي الشرف، فقد دُنِّس واجتيح ممن يملك الأرض ومن عليها».

ضمت نفسها مرتجفة ضائعة وباكية حد فقد الأنفاس، ومن اللامكان كانت تظهر السيارة الصغيرة قديمة الطراز التي تحفظها عن ظهر قلب كقشة النجدة في عرض المحيط.

– هيا ادخلي السيارة من فضلكِ.

رفعت جفرا جفنيها تنظر إليه بتوهان وامتنان وتوسل عجيب، ثم همست شفتاها المرتجفتان بمعاناة:

– أحمد أنا...

هز أحمد رأسه المثقل بالغضب العاصف والجمود البارد إن كان يصلح جمعهما معًا، ثم قال وهو يميل ليفتح الباب جانبها في دعوة:

– أعرف وأفهم، ولأول مرة لا أضعكِ في موقف اتهام.

أطرقت برأسها وهي تأخذ خطوات غير متزنة، ثم انحنت تجلس بجانبه وهي تهمس باختصار شاعرة بوجوب بث شكواها لأي أحد:

– أجهل هدفه من مطاردتي.

صمت قبل أن تنظر عيناها الباكيتان إليه وهي تردف مرتعشة:

– أنا لست خائنة ولا مطبعة، ربما كنت مشككة ولكني أبدًا لا أناصرهم.

نفخ أحمد نفَسًا ناريًّا مقهورًا من سلبه كل اختياراته وفقده إرادته، ولولا هذا السلب لكان توجه لذلك المتحذلق العفن وقتله بيديه المجردتين، ولكنه عندما تكلم كان يقول بهدوء:

– أثق بهذا أيضًا.

رفعت وجهها نحوه ثم قالت دون مقدمات:

– لم أخبره بما حدث، بِسر اختفائي.

زفر أحمد نفسًا مكتومًا يحمل الكثير من الضيق والألم اللذين تفوقا على الغضب بداخله وقال:

– ربما لا أعرفكِ يا جفرا، وما يحدث من بعض الحثالة الخونة ممن بيننا يجعلني عاجز عن منحكِ ثقتي سريعًا، إلا أني أثق في كنان الذي يؤمن ويثق بكِ لسبب لا يعلمه إلا الله وحده.

ما زالت تنتفض، والصمت المدقع يسود بينهما حتى سألته أخيرًا:

– كيف عرفت مكاني؟

اشتدت أصابعه على المقود في حين أن الغل بداخله يتعاظم كدوّامات البحر التي تلتهم كل شيء، ناطقًا بحدة:

– هل اعتقدتِ أننا سنتركِكِ؟ منذ أن أخذوكِ وأنا وهو نطارد هذا وذاك لمخاطبتهم والوصول إليكِ، إلا أن وجودكِ غير مثبت في أوراق رسمية.

صمت لوهلة يضحك ضحكة استياء ليست في مكانها إلا أنها فهمت أسبابها، فقد اعتادتها منهم، تابع:

– وكأني تفاجأت بهذا، أنتِ لستِ الحالة الأولى التي يختطفونها قسرًا وخفيةً، إلا أنك أيضًا محظوظة لسبب لا يعلمه إلا الله، أو ربما...

رفعت رأسها مجفلة تسأله بتخوف:

– أو ربما ماذا؟

صمت أحمد من جديد، عيناه تقدحان شررًا إلا أنه أجاب أخيرًا ببساطة مرعبة:

– أو ربما أنتِ فخ لكنان ولي، فقد مثَّلنا لذلك القائد هوسًا طويلًا.

ارتجفت شفتاها من جديد، قبل أن تسأله بخفوت تغلبه المنطقية:

– إن كنتما مكشوفين له فلماذا لا يأسركما ويوجه لكما التهم بدلًا من المطاردة؟

أجابها دون مواربة:

– سبق وأن فعل معي مرتين، ووجه لي تهمًا لم تثبت، وخرجت أول مرة بعد عام قضيته في سجونهم، وفي الثانية، قضيت عامًا ونصفًا، كانت أسوأ أيام مرت على من يهتمون بأمري، أما كنان فلم يثبت عليه مطلقًا شيء، إلا أنه اليوم كاد أن يفقد نفسه ويتسبب في مقتله.

انتفضت من مكانها رعبًا شاعرة بقلبها الذي وجهت له ألف طعنة، يغور بين قدميها هاتفة بصوت مشحون:

– يا إلهي.. ماذا فعل؟ ولمَ؟ وكيف؟ أين هو الآن؟!

أدار أحمد وجهه يحدق إلى جانب وجهها يتأملها بعينين ضيقتين وكأنه يحاول اختراق كل حواجزها ومعرفة سرها الأكبر، حتى قال بهدوء وهو ينظر في طريقه:

– إجابة كل هذا أنتِ.

ارتسم الذهول على ملامحها رافعة سبابتها تشير إلى صدرها قائلة بتعجب:

– أنا؟!

صوته كان متشنجًا ذا سطوة، باثًّا الحقيقة دون تلاعب لفظي:

– كنان أو عيسى كما تحبين مناداته متشبثة بما لم يصارح به غيركِ، دومًا كان شخصًا متحفظًا جامدًا حد البرود المستفز، راكزًا غير معظمنا، متحكمًا في أعصابه تحكمًا مبهرًا حد أنه خدع الجميع وصدقوا حيلة أنه سلبي جبان، فهو لم يحاول يومًا رفع عينه أو يده على أحد جنودهم حتى لو اعتدوا عليه، وهذا يجيب على سبب عدم إمساكهم به أبدًا، إلا أن كل هذا تغير مع ظهوركِ.

صمت من جديد مقتطعًا كلامه أمام وجهها الشاحب والمصدوم، فسألته بنفاد صبر:

– كيف؟

– أنتِ لست غبية يا جفرا لتفهمي لماذا ذهب وراءكِ مضحيًا بكل شيء، هادرًا وعاصفًا حد الجنون، لأنه لم يستطع حمايتكِ كما وعد.

انكمشت برهبة وهمست:

– لم يعدني بشيء قط.

– وعد نفسه بحمايتكِ، ربما لم يصرح لي بهذا قط، ولكننا الرجال نفهم بعضنا حين يتورط القلب في الأمر بالرغم من رفض العقل.

رددت بتحشرج:

– القلب؟! ينازع عقله لرفضي وقلبه يحارب لتقبلي، هل تمزح؟

انعقد حاجباه لوهلة وبان الضيق أكثر عليه، وقال:

– اسمعي يا ابنة عمتي، أنا لست متحضرًا لهذه الدرجة لأخوض هذا النقاش.

استدارت تنظر إليه نظرة أوجعت قلبه حسرة عليها وعلى صديقه، فهو مقتنع باستحالة اتحاد طريقهما يومًا، همست:

– لم أتوقع أن أراك يومًا، إلا أني ممتنة للقائي بك، رغم قصر المدة فأني كنت أتمنى الحصول على أخٍ مثلك يا أبا جراح.

وجد أحمد الابتسامة تتسلل إلى قلبه، استدار إليها قائلًا بهدوء:

– وأنتِ رغم كل جنونكِ واستفزازكِ لي فإني الآن أتمنى فعلًا لو أنكِ كبرتِ أمامي لأراعيكِ كأختٍ لي.

هزت رأسها ببطء دون إجابة، فقال أحمد بهدوء:

– معدنكِ ألماس يلمع، فلا تسمحي لأحد أن يغطيه بالتراب يومًا.

نظرت إليه بملامح حزينة، عيناها تراقب عينيه التي تحكي الكثير، عقلها يقرأ ما بين السطور التي يقصدها، أحمد يعلم بما يجري، يعرف بمطاردة ذلك الحقير لها، إلا أنه يرفض كما يبدو مواجهتها، ترى هل أخبره عيسى؟!

– أين هو؟!

لم يجبها على الفور، بل بدا للحظات كأنه لن يفعل مطلقًا، حتى تكلم أخيرًا بنبرة جلبت لقلبها الوجل:

– ليس سهلًا على الرجل مواجهة الأنثى التي تخصه عقب خذلانه لها.

تلعثمت وتبدل حالها سائلة بصوت ينتفض إجلالًا:

– هل هو من أخبرك؟

ابتسم بأسى قبل أن يهمس:

– أخبرتكِ أن كنان كتوم ومتحكم في نفسه تحكمًا ينافس استفزازك، ولكن ليس على الرجل أن يخبر آخر بأنه يتألم لخذلانه محبوبته.

******

عندما دخلت جفرا وراء أحمد كانت حريصة ألا تظهر أي ضعف أو اضطراب انتابها طوال رحلة العودة، حتى لا تزيد من فزع أمها إلا أن محاولتها تلك طارت في الهواء عندما وجدت رندة تندفع كالطلقة نحوها، ليس كما توهمت، لتأخذها بين ذراعيها تتفحصها مطمئنة، أو ربما تمنحها قبلات تتخطى حاجز الهوس، حسنًا هناك شعور واحد يتراقص داخل عينيّ والدتها وملامحها المسنة المطعونة بدافع المصائب والويلات لا الزمن.

صرخت رندة في وجهها بانفعال تهزها ممسكة بها بقوة رغم وهن أعصابها:

– لقد حذرتكِ، وأنتِ وعدتني بعدم تعرضكِ للخطر، بأن لا تزُجّي بقدميكِ في النار.

هتفت جفرا دون تفكير:

– ربما كان عليكِ من البداية ألا تجرُّيني لهذه الحفرة السحيقة ثم تطلبين مني النجاة دون أن تمنحيني حبل نجاة يا أمي.

دارت عينا رندة ببطء على ملامحها الجسورة ثم صرخت:

– كانت محاولة مني لأزرع فيكِ ما جردكِ النزوح منه.

همست من بين أسنانها بقوة:

– لقد تأخرتِ كثيرًا.

ظلت رندة تحدق إليها طويلًا، دموعها تسابق بعضها، جزء منها يحترق خوفًا على الشيء الوحيد المتبقي لها، وقد تمثل في التي تقف أمامها بالعناد والصلابة نفسها دون أن تزحزحها التجربة وتجعلها تفزع وتطلب الهرب الفوري من هنا كما توقعت، ثم قالت أخيرًا بصوت خفيض صارم شابه مشرط دقيق:

– وندمت على تأخري، وندمت أكثر لقدومي بكِ إلى هنا، لذا دون اعتراض واحد منكِ سنخرج من هذا الباب ونرحل دون عودة.

كانت رندة ما زالت تحكم قبضتيها عليها ككماشة، وإن كان هوسها انمحى الآن وأصبح كل ما يعنيها هو تقرير المصير بغرض النجاة، لم تحاول جفرا الابتعاد عن والدتها، بل كانت عيناها تتقلبان بين وجوه سكان المنزل التي تنظر إليهما بترقب وقلق، إلى إجابتها، عادت تنظر إلى أمها قائلة بشراسة:

– أنا لن أخرج من وطني إلا جثة هامدة.

بهتت ملامح رندة بهوتًا موجعًا، وكفاها أخيرًا تنسحبان ببطء مميت عن ذراعي جفرا، صلابتها تتلاشى، إيمانها يتوه متخبطًا بين الولاء لقضية وحلم من جهة، والتمسك بقشة إنسانية من جهة أخرى، قالت:

– أنتِ ليس لكِ وطن هنا يا جفرا، لقد نُزع حقكِ منه قبل ولادتكِ، فلا تعيشي الوهم والأمل الزائف.

شهقت رُفيدة من ورائهما بعنف وكأنها لا تستطيع تخيل خروج هذه الجملة الذابحة من أحد أبناء أرضها يومًا، في حين اكتفى أحمد بالاقتراب من زوجته يضمها تحت جناحه قسرًا حتى لا تهبُّ لتتدخل بينهما، وقد همس لها بصوت خافت يكاد لا يسمع:

– هذا اختبارها الأول، دعيها تختر طريقها بنفسها.

في هذه اللحظة كانت جفرا تحدق إلى والدتها بعينين مطعونتين ملونتين بالوجع، فمها الفاغر يتنفس الهواء كالشظايا الجارحة قال أخيرًا:

– لم أتخيل أن تأتي الطعنة منكِ يا أمي، إذن أنا مشردة لا أملك حق المطالبة، وليس لديّ أرض ووطن قد يحتويني وأعود إليه ليلملم شتات نفسي، كما ظننت بأنكِ فعلت.

استدارت رندة بعيدًا عنها، غلالات دموعها تسابق بعضها، كفاها المنتفضتان تفركان وجهها بمرارة فظيعة، صرخت:

– افهمي.. لا أستطيع فقدانكِ أنتِ الأخرى، هذا ثمن أكبر من قوة تحملي، ألا يكفي أبي الذي صُفّيت دماؤه الطاهرة أمامي؟ ألا يكفيني قدماي اللتان ما زالتا تحمل آثار الجروح والحروق عند هربي وأمي في الصحاري؟ ألم يكن كافيًا يا جفرا عظام أخي التي دفنتها بيدي منذ أيام وقد طحنته دبابات العدو حيًّا؟

دبت في صدر جفرا حرقة قائلة بغضب:

– وأين اختياري أنا؟ لماذا تظنين أني أفضل من هذين الاثنين اللذين يقفان أمامكِ، أو ربما آلاف الأطفال والشبان الذين يتأذون يوميًّا، وتسفك دماؤهم على أرصفة الطرق أو حتى تحت سقوف منازلهم؟ أتعتقدين أنهم أيضًا لا يأملون في الأفضل مثلي، في العيش بأمان وسلام تحت سماء وطن يتمنى أن يكف عن نواحه ونعيهم؟!

صمتت قبل أن تقفز أمامها وكأن جانًّا تلبسها وأردفت بعينين لا تريان:

– لماذا تعتقدين أنكِ أفضل من كل تلك الأمهات الثكالى؟!

هزت رندة رأسها بحسرة ناطقة بتحشرج:

– هن تعايشن، تعلمن ما المطلوب والمتوقع، حضّرن أنفسهن لفقد كل عزيز رغم الأمل ورغم السعي لحياة أفضل والتشبث بالحرية، ولكن أنتِ.. بالله عليكِ فيمَ تجادلين وأنتِ قبل أسابيع كنتِ لا تعترفين بحقهم وتتحدثين بلسان الغرب؟

توقفت يد جفرا على صدرها تضمها نحو قلبها أكثر وكأنها تحاول منع الألم الذي ينخرها من التغلغل والفتك بها أكثر، عيناها الواسعتان تتحولان لبركتين من الوحل:

– نعم فعلت، والآن تغيرت، ألا يحق لكل إنسان فرصة أخيرة ليتغير؟

قالت رندة بوجع:

– نحن نتغير ولا نتبدل، إلا أنكِ الآن وأنتِ تتحدثين بتلك الطريقة تريدين إيهامي بتبدلكِ يا جفرا.

أومأت جفرا برأسها تصارع، في حين أن نظراتها تتجه نحو الباب في حركة غير مفهومة حتى قالت أخيرًا بجمود رغم مسحة الغضب:

– وربما أنا نزعت أخيرًا ورقة التوت التي ظننت أنها تداري عورة انتمائي.

عبست رندة بعدم فهم، ولكن قبل أن تردَّ بشيء أو تحاول فهم ما يجري.. كانت ابنتها تندفع إلى الخارج متوجهة لمكان وحده الله يعلم به، أو ربما أحمد أيضًا الذي وقف مكانه يحدق إلى أثرها بلا مشاعر أو انفعال رافضًا الانصياع لتوسلها وتوسل رُفيدة كي يلحق بها.

******

من غصون المآسي ينبت الحب فيأتي عاصفًا مفاجئًا مزلزلًا لكل ما آمنت به يومًا.

كانت تلهث مندفعة بخطوات سريعة وأحيانًا راكضة تلتهم الأرض حتى تصل إليه، لماذا تريد رؤيته وحده في هذه اللحظة؟ لم تتوقف هنيهة لتستغرق في التفكير، لتحلل وتضع الأسباب والمعوقات لاندفاعها

حتى تمنع نفسها بقوة كبرياء الأنثى، وهل هو من سينال من كبريائها بالأصل؟ الإجابة الصارخة الواضحة: «لا.. لن يفعل».

تيقن بتهورها ولا تعلم إلى أين ستأخذها هذه المواجهة، إلا أنها تحتاج إلى رؤياه، تملك من الشجاعة ما تملكه لتفهم أخيرًا سر هذا الخافق الموجع، منذ وقع بصرها عليه صارخًا بين أضلعها مطالبًا بمعرفته، لا.. لم تبالِ بالنظرات المستنكرة والمستعجبة التي تراقبها وهي تقتحم دون تردد منطقة محرمة على النساء.

وقفت جفرا على باب ورشته تسند كتفها إلى الجدار، يدها ما زالت معلقة على صدرها محاولة تنظيم أنفاسها المرتجفة، وعيناها المكحلتان بلغة الحب الصامت تلتهمان تفاصيله دون تردد أو مداراة شاعرة بقوة ألف محاربة بداخلها تنبع على حين غِرة تحدثها بأنه من حقها نزاله حتى وإن كان سيرفضها فتخسر حربها معه.

- عيسى.

تجمد عيسى الذي كان منحنيًا على طاولة يُشكل الأخشاب، إلا أنه لم يلتفت إليها.. بل ظل دقيقة كاملة ثابتًا في مكانه، ثم تحرر بمنتهى البرود وكأنه لم يسمعها، لم يشتمَّ رائحتها ولم تخرج روحه من جسده مرفرفة فوقها في حماية، عله لا يخذلها هذه المرة، ولكن منذ متى انصاع العقل لما يريده القلب صارخًا مطالبًا؟!

أخذت يداه بالحركة بتناغم، صوت تلك الآلة المزعجة يبدد الصمت، منشاره اليدوي يتحرك بين أصابعه بمهارة.

أخفت انفعالها ثم هتفت وهي تتقدم خطوة:

- أعرف بأنك تسمعني وتشعر بي.. فلا تتجاهلني.

لم ينظر إليها أيضًا ولكنه تنازل وهو يسأل بجفاء:

- ماذا تريدين يا غريبة؟!

قالت بعنف:

- أنا لست غريبة، اسمي جفرا صلاح الشيخ، سمّاني أبي تيمنًا بوطني آملًا في أن أستأثر بجمالها، أن أمتلك قوتها وكبرياءها فأنفض عني غبار كل معتدٍ يسطو عليَّ كل حين.

لم تتوقف يداه عن العمل، ولم يحاول الالتفات إليها، ولكنها سمعته يقول بصوت أجش:

- لم يحسن التشبيه إذن يا جفرا الوطن المسبي والعقل المسلسل، لم يحسبها والدكِ جيدًا عندما أطلقه عليكِ تيمنًا بقصة حب من طرف واحد، أو ربما قصد جفرا الشهيدة التي ماتت ظلمًا وبهتانًا قبل أن تتوج قصة عشقها بالزواج.

اختنقت واقتربت منه خطوة أخرى حتى أصبحت خلفه تمامًا، همست:

- لا يهم ما قصده، بل ما أختاره أنا.

أوقف عمله أخيرًا واستند إلى الطاولة محني الكتفين إلا أنه لم يحاول النظر إليها؛ شاعرًا بوجوب حماية نفسه من النظر إلى وجه ظبيته الجامحة حتى لا تنهار كل دوافعه، وقد كان منذ أسرها في أشد حالاته ضعفًا وهو من تجنب أن يكون له مصدر تهديد يومًا.

– تقصدين ما ترمين نفسكِ فيه، الطريق إلى جهنم لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة.

هزت رأسها نافية ما تسمع بقوة:

– وطريق الجنة أيضًا لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة، قوة إيمان تتسلح بها لتحارب الجهل والطغيان فتنشر رسالتك.

تسللت ابتسامة حزينة بجانب فمه، فقط التواء بسيط عبّر عن مدى معاناته:

– أي رسالة تعنين هنا جفرا المتهورة؟

اضطربت وهي تحدق إليه بعجز، كيف تخبره بما تشعر؟ بالسبب الحقيقي لقدومها لعرينه، للوقوف بين يديه، هل تتوسله ليعترف لها بأنه يحبها كما هي باتت عاجزة عن تخيل فراقه؟!

وجدت جفرا نفسها تبتعد عنه فجأة بتعثر ليس خوفًا وإنما رهبة وخجلًا.

وأخيرًا تنازل شاعرًا بتوترها وترددها، بابتعاد عبقها المريح كالبلسم المهدئ الذي هبط على جروح فؤاده المفتوحة منذ سنين، عيناه أسرت عينيها بقيد محبب ومرحب ومتلهف منها، هذه المرة نبرتها المبحوحة تخطت شفتيها المرتجفتين هامسة باسمه مجردًا فيما يشبه المناجاة والاستجداء:

– عيسى.

القرب منها مهلك، والبعد عنها مؤلم، وهو في هذه اللحظة وجد نفسه يسقط في جحر اليأس، ليته ما استدار، ليته ما نظر إلى عمق العينين، أخفض جفنيه متنفسًا بعمق قبل أن يسأل بصوت أجش:

– أخبريني لماذا أتيتِ؟

تأملته للحظة قبل أن تشرد ملامحها الممزقة:

– لأخبرك بأنه يطاردني، ربما لحاجة في نفسه فعلًا، وربما علم عبر جواسيسه أني...

قاطعها قائلًا بنبرة خفيضة:

– أنكِ أصبحتِ تعنين لي شيئًا؟

هزت كتفًا واحدة باستسلام للأمر الواقع هامسة مرتجفة:

– يريدني طعمًا يصطادك به.

تجهمت ملامحه وتصلب قبل أن يقول بجمود:

– شكرًا لتحذيري، يمكنكِ الانصراف الآن.

عيناها نذرتا باندفاعها الخطر:

- شكرًا لماذا؟ هل تظنني ساعي بريد أوصل لك ما تريده فتصرفني؟

لم يفقد أعصابه بل ظل صلبًا باردًا:

- وماذا قد يربطنا بعد؟

هل عليها وحدها المحاربة لتترجم تلك المشاعر التي تدور بينهما؟ ألا تستحق بعض المجهود من جلمود الصخر؟!

رقت نبرة صوتها قائلة بتردد دافعه الحب الذي لا يعرف المنطق ولا توقفه الحواجز:

- يقال إن من تشعر به يشعر بك أيضًا، لغة الأرواح لا تخطئ.

هز رأسه بيأس رافضًا اعترافها الذي لم يتمنَ غيره خلال المدة التي فقد فيها عقال نفسه عندما أخذوها:

- أخبرتكِ بأني لا أملك روحًا متبقية، فقد مزقت أربع شظايا، ثلاث منها يقبعن في أرض شقيقة بعد رحلة ألم وعذاب وتشتت، والأخيرة وهبتها فداءً للقضية.

خرجت من بين شفتيها آه متألمة ضربت وجهه كالصهد عندما همست:

- وأنا، ألا أستحق منك أي محاولة لتمنحني شطرًا من روحك، ومكانًا في قلبك؟

عصف قلبه عصفًا غير مسبوق، مشاعر عدة تتصارع على وجهه:

- أنتِ حلم جميل يستحيل اكتماله، دعوة تحققت وسقطت بين يدي رغم أني لم أدعُها.

اقتربت منه ببسالة محاربة تنوي محاربة الدنيا كلها وليس مخاوفه فقط لتحصل على مبتغاها:

- وما الذي يمنعك إذن؟ مد يدك واقبض عليها قسرًا وتقبل منحتها.

تحركت عضلة بجانب فمه في ابتسامة متهكمة سوداء أثارت جنونها خاصة عندما قال بقسوة:

- هل أنتِ مجنونة، أم ضربوك على رأسكِ فسببوا لكِ تخلفًا مبكرًا رغم ما بك من تخلف؟

ظلت تنظر إليه نظرات مبهمة لم يفهمها، حتى قالت أخيرًا بقوة:

- لا لم يضربني أحد، بل تورط قلبي معك، وروحي أصبحت في خطر منذ أن سمعتُ مطالبة والدتي بالرحيل، سأترك قلبي وروحي وجزء من نفسي معك دون حماية.

أطرق عيسى برأسه شاعرًا للمرة الثانية في حياته بلسعة وجع، والغصة في حلقه تزداد ألمًا، إلا أنه اتبع غباء الرجل الشرقي التقليدي حين يعشق وهو يقول في برود صقيعي:

- والدتكِ اختارت الطريق الصحيح لتسلكه مع متهورة مثلكِ.

هتفت من بين دموع الإحباط:

- لا أريد الرحيل.. بل البقاء معك، ألا تقبل مني هذه الهبة؟

قال بنفاد صبر وهو يحرك كفيه بالهواء في إشارة مبهمة:

- بأي صفة ولأي سبب؟

خبطت بعض الأخشاب المكومة جانبًا بعصبية مفرطة هاتفة:

– لا تتخابث، تعلم ما أقصد، أنا لن أنطق أكثر مما صرحت به يا عيسى.

عقد حاجبيه ناظرًا نحو الفوضى التي افتعلتها، وقيّم الجنون الذي يتراقص على ملامحها، فقال بشكٍّ:

– الزواج، تقصدين الزواج ومنحكِ إقامة دائمة للبقاء؟

حسنًا لم تفكر في جزء الإقامة، عبست إلا أن أنفاسها المنفعلة لم تهدأ، وقالت بصفاقة:

– لقد عدّوا صفاتك المبهرة الخيالية التي تليق ببطل، بالرجل رقم واحد، إلا أنهم لم يذكروا منها الغباء.

غضبت ملامحه وهو يرفع إصبعه محذرًا:

– تأدبي.

طرقعت بلسانها ورأسها يرتفع للأعلى ثم قالت بفظاظة:

– أنا أؤمن بأنكم جميعًا أغبياء مع النساء خاصة الحبيبات منهن، فلماذا أصدم بكَ؟ إقامة؟!

رفع ذراعه لأعلى فاردًا كفه كحكم المباراة الذي يلوح ببطاقة الطرد الحمراء عند إخفاق أحدهم، ثم وجدته يتحرك كالإعصار يفتش عن شيء عند حوض الغسيل، خطفه من هناك مراقبًا ملامحها المتعضة المتأففة ثم مد يده أمامها وهو يقول بصرامة مرعبة:

– ضعي هذه في فمكِ حالًا.

ذعرت جفرا هذه المرة حقًّا، وبدت كأنها تتجهز للهرب، إلا أنه اقترب يجذب طرف ملابسها من أعلى كتفها حريصًا ألا يلامسها قائلًا بنبرة خفيضة مهددة:

– أقسم بالله إن لم تضعي الصابون في فمكِ، لأضع لسانكِ تحت المنشار.

رفعت رأسها تحدق إليه بذهول:

– أنت تمزح مؤكد، لا...

لم تكمل جملتها فقد دفعها داخل فمها فعلًا، حاولت لفظها بلسانها والتملص منه مقاومةً، إلا أنه جذب طرف ملابسها بقرف ثم قال بجدية رهيبة:

– لقد حذرتكِ وأقسمت أني في المرة القادمة التي ستستفزينني بها سأنظف لسانك بنفسي.

مرت دقيقة وأخرى وخمس حتى حررها أخيرًا، دفعها بنزق وإنما دون عنف، بصقت جفرا الصابون من فمها وهي تتنفس بعنف ثم فتحت فمها تخرج لسانها لتمسحه بكلتا يديها بتقزز وقالت:

– أنت همجي، متخل...

أشار بعينين باردتين نحو الصابون الراقد في التراب بتهديد آخر خطِر؛ ما دفعها إلى أن تبتلع حروفها داخل حلقها ناظرة إليه بِغِل.

قال بجدية وكأن شيئًا لم يكن:

– والآن نعود لبعض التعقل، عودي لمنزلكِ يا جفرا، حياتي لن تستقبل ضحايا جددًا، أخبرتكِ بأني لن أترك نقاط ضعف خلفي أبدًا.

زفرت بنفاد صبر قائلة ببرود:

– أحمد أناني إذن، ورُفيدة مجذوبة، والعديد من الناس الذين يتزوجون وينجبون ويتركون أثرًا خلفهم متعايشون مع مصابهم، جميعهم مجرمون في حق أحبائهم.

تنهد قبل أن يقول بصبر:

– كل فرد هنا يحب الحياة يا جفرا، إلا أنهم أيضًا يدركون أن كل فلسطيني مشروع شهيد.

ترقرقت دموع اليأس في عينيها:

– لماذا تريد حرماني هذا الشرف إذن؛ النضال والتضحية.. مثل كل امرأة محاربة؟

أغلق عينيه مرة أخرى ونطق بنَفَس صعب خافت:

– لأنكِ لستِ مثلهن، هل تذكرين أول مرة رأيتكِ فيها؟ لقد كنتِ جاحدة كافرة بكل ما يجب أن تؤمني به.

قالت متأوهة بنفاد صبر:

– وآمنت، صدقت واقتنعت، وخلعت الغشاوة عن بصيرة قلبي.

ابتسم بشراسة قائلًا بتفكه:

– يا لَلروعة.. اقتنعتِ في أقل من شهرين، يجب أن أهنئ المحيطين بكِ إذن أو آخذهم لنخطب في الأراضي المحتلة، ربما يرحلون عن أراضينا، ونتحرر أخيرًا.

أشارت بإصبعها نحوه بحركة نزقة وقالت ساخطة:

– لا تسخر مني، فأحدهم لم يحبك ولم يؤمن بك أنت.

ارتد عيسى للوراء غير متوقع الاعتراف الصريح، في حين توسعت عيناها بصدمة وهي تخبط كلتا كفيها على فمها وكأنها تحاول إعادة ما نطقت به إلى فمها، رباه هذا جزاء الحديث دون انضباط، فعلًا لقد بعثرت آخر جزء من كرامتها.

لحسن حظها لم يقابلها برفض كان سيقتلها، لكنه ظل ينظر إليها طويلًا حتى قال أخيرًا بهدوء:

– أنتِ أحببتِ شخصًا إذن، لا وطنًا، تعلنين انتماءكِ لفرد لا لأرض.

أصابعها المرتجفة ابتعدت ببطء عن فمها ثم همست بصوت أجش مسبلة الجفنين:

– الشخص الصحيح وطن كامل، القلوب تنتمي للأفراد لا للتراب.

ابتسم مجددًا ولكن هذه المرة كانت ابتسامة حقيقية حزينة، همس بشرود:

– في أوقات السلم نوهم نفسنا بحبنا وتعلقنا بالأفراد، أما من ذاق وجع الغربة والنزوح، جرب مرارة سلبه أرضه وبيته، يراقب كل ليلة منذ دخوله وطنه متخفيًا شرذمة من حثالة الأرض يجتاحون مقدساته، لا يؤمن بشيء.. إلا أنه قد خُلق للوطن كما الوطن يعيش بداخله.

دمعت عيناها من جديد محركة كتفها بلا معنى وقالت:

– علمني إذن، امنحني سببًا لأعيش وأقاوم، وأترك ميراثًا في فلسطين ليحرروها من بعدك.

خفق قلب عيسى بين أضلعه محدقًا إلى عينيها البنيتين الدامعتين الصارختين حبًّا لا شك فيه، وشفتاها المثقلتان باعتراف لم يفسره إلا الشجاعة، ووجهها الذي انخفض خجلًا وخوفًا من رفض آخر، فبدت كلوحة حزينة وخلابة، عندما لم يرد تجرعت مرارتها هامسة:

– جفرا الأسطورة حب من طرف واحد كُتب عليه الفشل إذن، أليس كذلك؟

ظل ينظر إليها باتزان دون أن تتبين ذلك الصراع الذي يأكل بعضه داخله حتى قال أخيرًا بجدية خلت من اللطف:

– لنفترض بأني اقتنعت بوجهة نظركِ، وأنه من حقي التعايش مع الحياة كما الآخرين، أطلب منها أن تعطيني كما أحارب من أجلها، أخبريني وقتها يا جفرا ما الذي يدفعني إلى اختيار أم لأولادي لا تعترف بالوطن؟

رفعت عينيها تنظر إليه بأمل يتجدد، بنظرة لمعت فيها شقاوة ووعد رغم قولها المرتبك:

– علمني ما ينقصني إذن، ليكبر ابنك فيتبع خطواتك.

ظل يحدق إليها دون تنازل، دون أن يحاول إبعاد بصره عنها، ولكن هذه المرة كانت نظرته مختلفة، نظرة أكثر عمقًا وترحابًا بها وهبته، ولمَ لا؟ لماذا لا يخاطر ويقترب ويقطف تفاحة آدم التي حرّمها على نفسه؟!

– ولكن يجب أن تضعي في حسبانك أنكِ إن خاطرتِ فلن تعود حياتكِ الطبيعية لعهدها أبدًا.

ابتسمت عيناها هامسة بعشق ينبض بين حناياها:

– الحياة الطبيعية ليست هدفًا للتفاخر وإنما قلة شجاعة.

اقترب منها دون خرق لمبادئه، قيوده التي تمنعه عنها، ثم مد يده بتردد يلمس وجنتها المحمرة بشغف هامسًا بمداعبة:

– أمر آخر مقلق، ما الذي يدفعني إلى الارتباط بفتاة تتخذ الحماقة مذهبًا؟

ضاعت عيناها الواسعتان كوجه القهوة في عمق وعنف نظراته، تناظره بشغف ينافس قوة مشاعره، ثم همست بنبرة متضعضعة:

– اعتبر هذا الأمر قربانًا آخر تقدمه للوطن.

لم تكن مشاعره في هذه اللحظة مثالًا للالتزام أو الهدوء، بل كانت تحترق بداخله فتغرقه حتى النخاع في لذتها وسعادتها، أمال رأسه نحوها يحاوط وجهها بكلتا كفيه الدافئتين محنيًا جذعه الضخم ليوازي لمعة

النجوم في عينيها، ثم سألها بأمل في حسن الإجابة:

– وماذا أصبحت تعني لكِ كلمة وطن يا جفرا؟

انتفضت نبضة إجلال للمعاني، وتاهت في عينيها الملتهبتين بدمعة حائرة حبًا:

– حنان أمي وطن، ذراعا أبي وهو يهدئ روعي وطن، رائحة وقت العصاري مع قطرات المطر فوق الحجر الذي كان يزلزل كياني وأنا في المغارة معك وطن، وحبك أنت الذي يصرخ بين أضلعي هو ألف نكهة للوطن، عندما تنادين اسمي بتلك الطريقة العظيمة أعرف أني أخيرًا عثرت على أرضي والوطن.

أغلق عينيه ثم همس متأوهًا:

– يا الله، أساحرة أنتِ ألقيتِ عليّ تعويذة خطرة؟

هل هي في حلم ممتع؟ هل قدماها تحلقان فوق السحب فعلًا؟ أيعقل أن ينتهي الأمر بهذه السرعة والسهولة؟ أتصدق أن رجلا كعيسى يبادلها حبًا؟ وينحني من أجلها راغبًا؟!

همست متلاعبة:

– ألم يحذرك الكبار أن داخل كل امرأة ساحرة صغيرة، فانتبه من لعنة حب تلقيها على صدرك فتأسرك للأبد.

فتح عيسى عينيه ينظر إليها بهدوء وسعادة مطوية، وحزن يصر أن يضع قلاعه سارقًا كل فرحة يسعون إليها، إلا أنه اختار بكل إرادة حرة في هذه اللحظة أن يتلاشاه عندما قال بمخاطرة:

– إذن عندها تكونين أنتِ حصتي.

صمت أمام الانبهار في حدقتها ثم أكمل دون صوت:

– علكِ تكونين معجزة تعود بالزمن لتشفي القلوب الحزينة.

– عيسى.

– نعم.

ابتلعت ريقها تأبى أن لا تضع بصمتها مبددة لحظتها الخاصة عندما قالت بخفوت:

– إن أجبرتني على وضع الصابون في فمي مرة أخرى، سأردها لك وأضعه في...

جحظت عينا عيسى بذهول، بصدمة غير مستوعب ما نطقت، وقبل أن يفكر مرتين وجد نفسه يبحث بجنون عن تلك القطعة ويدسها بين شفتيها دون تردد، الظبية المجنونة ستحتاج إلى كثير من الترويض والتربية من جديد حتى لا تتسبب في إحراجه.

****

ها هُنا المختارُ صلَّى
ومُـــنـا كَـــــمْ ذا أَهَلَّا
ها هنا حَطَّ البُراقُ
وهُنـــا الخيـــلُ العِتـــاقُ
عَزَّ في الإسلام شاني
بينَمـــا اليومَ أُعـــانـي
هانَ عندَ الخَصْم قَدْري
طالَ في المِحْنةِ أَسْري
هوَ ذا ينـــزِفُ جُرْحي
فمتَى يطلُعُ صُبْحي

****

بعد أيام..

الحرب مع والدتها لم تكن سهلة، ببساطة لقد تشبثت بالرفض المميت متوسلة مرة ومهددة مرات بالغضب والهجر طوال حياتها إن أتمت ارتباطها به.

لن تنكر أنها ضاقت من تدخل والدتها في اختيار وترتيب حياتها، حزنت لرفضها الرجل الوحيد الذي ملك قلبها بكامل إرادتها، أحبطت من عدم تفهم رندة اختيارها، لكنها تعلم يقينًا أنه كلما تدخل الآباء في فرض سيطرتهم على حياة أبنائهم لم يولد فيهم إلا العناد.

وهذا ما فعلته تحديدًا، لقد تشبثت بعيسى وكأنه الحياة، شاعرة بأنه مصباح الهدى الذي أنار رحلتها الروحانية لاكتشاف ذاتها وإرساء مركبها الضائع في رحلة التيه على شاطئه الآمن.

وقفت السيارة التي اصطحبتهم في رحلتهم إلى المعبر، وترجل منها خالها الذي بارك زواجها من كنان النجار حسن الخَلق والخُلق، فأخبر والدتها باختصار أنها لن تجد أفضل منه لابنتها فتمنحه أمانته.

تبعت خالها ورُفيدة في حين كان يسبقهم في رحلتهم المشحونة تلك عيسى.

ابتسمت وهي تتأمله بسعادة وبأحاسيس عدة تتزاحم داخلها، لم يبخل عليها عندما استدار يحدق إليها بنظرة رجل مسروقة مخفية عن الأعين المراقبة، عيناه تحتضنها فيحتويها كلها بمجرد نظرة تبرق من داخل حدقتين تضيئان كألف نجمة في سماء الليل الدامس، وماذا قد تريد بعد هذه العاطفة الجامحة والصادقة من رجل كعيسى، من رجل هو الوطن؟!

حررها من أسره وتحرر من كيانها الذي أسره في قصر مرصود متشاغلًا بمراجعة أوراق التصريح مع خالها.

وقفت رندة جوارها تشد على يدها بحرقة ثم قالت في محاولة أخيرة:

– ما تفعلينه الآن انتحار بِرمي نفسكِ بالنار، أنتِ بذلك تسلكين طريقًا لا رجعة منه، حيث لا سبيل إلا للندم.

أغلقت جفنيها وأطرقت برأسها أرضًا قبل أن تطلق نفسًا ساخنًا مؤلمًا وهمست بصدق:

– أعلم أنكِ لا تصدقي عشقي له بهذه البساطة، وبتلك المدة القصيرة، ولكن من قال إن الحب يحتاج إلى أيام وشهور لينمو متملكًا كل شريان داخل القلب؟

أمسكت رندة وجهها بين كفيها تجبرها ألا تحيد عن عينيها هامسة بمرارة:

– لا قدرة لي على رؤية الألم يصيب قلبكِ.

همست محدقة إلى والدتها بوجه شاحب وعينين متسعتين بطريقة تذيب القلب والأعصاب:

– هو لن يوجعني أبدًا، وأنا لن أبتعد عنه، إن اخترت طريق الجبن والهرب سأموت يا أمي.

ربما عليها أن تتركها تخوض التجربة فعلًا حتى لا تندم في وقت لاحق فتظن أنها أضاعت على نفسها فرصة عظيمة في الحياة والسعادة.

ارتعشت شفة رندة السفلى في حين كانت قسمات وجهها تحاول التماسك والقوة قائلة بصوت أجش:

– في زمن آخر وأرض أخرى كنت سأبارك زواجك به وربما طلبته لكِ بنفسي، إلا هنا ومع طريقه المعتم الذي أشك فيه، أعلم جيدًا بأنه ربما يا صغيرتي لن يكسر قلبكِ، ولكن الحياة التي فرضت عليه ستجبره أن يفعل.

لم ترد، فكل ما بداخلها من شغف وترقب انمحى، ولم تترك كلمات والدتها بداخلها إلا الخواء والرعب الصافي، لحسن الحظ أن رُفيدة تدخلت تسحب والدتها برفق قائلة:

– هيا خالتي ما زالت رحلتنا طويلة، سنخضع للتفتيش غير الآدمي حتى نصل.

رفعت رندة رأسها تحدق إلى ذلك الرجل الذي تراه مجرد أناني سيمتص رحيق عمر صغيرتها، سيدفعها إلى طريق خسارتها نفسها، ثم سألت بوجوم:

– لا أفهم لماذا سمح له بالعبور هو وحده رغم رفضهم عبور كل رجل تحت عمر الخمسين!

– لطالما كانت صحيفة كنان نظيفة، من وجهة نظرهم هو مجرد شاب مستعد للتطبيع ولا يحاربهم أو يعترض على وجودهم بأي طريقة، وربما يكون الأمر مجرد صدفة بحتة يا خالتي، خاصة أنه استخرج كل التصاريح المطلوبة.

علقت بتهكم:

– مستعد للتطبيع؟

– مجرد كلام خالتي، تعرفين جيدًا بأنهم يلوحون به للصحف والعالم حتى يفقدونا تعاطفهم معنا فيخبرونهم أننا نتقبل التعايش معهم وأن لا حرب أو مقاومة هنا، المهم هل يمكننا نسيان كل هذا الآن ونترك الحياة لتأخذ دورها الطبيعي؟

– وهل ما تنويه رفيقتكِ أو ذلك الشاب طبيعي أو به رائحة الإنصاف؟

رسمت رُفيدة ابتسامة رائعة قبل أن تقول بهدوء جارح:

– بالنسبة إلى الشخصين المعنيين فهو قمة الإنصاف، علاج المحبين زواجهم.

قالت بتعاسة متحركة معها نحو نقطة التفتيش العسكرية:

– ليست كل اختيارات المحبين صحيحة، قد تكون إحدى الحكايات سبب هلاك أرواحنا.

رمشت رُفيدة بعينيها كمن تلقى صفعة مؤذية وقالت بجمود:

– فراق القلوب يطفئ النفس، وكأنكِ أصبحتِ جسدًا يسير دون روح، تعيشين فقط لأنه يفترض بك أن تفعلي، في حين أن تقاربهم رغم كل التحذيرات والمخاوف يحيي، أنا لم أرَ جفرا بهذه الحياة قبل إعلان ارتباطهما.

شحب وجه رندة قليلًا تسألها بتشنج:

– ما أعرفه أنكِ وأحمد انتظرتما سبعة أعوام قبل أن يأخذ خطوة لزواجكما.

هزت كتفيها واصطبغ وجهها بالأحمر القاني الذي تناقض بطريقة محببة مع نظرتها الدافئة التي امتلأت بالسعادة والقوة:

– أخطأتِ الفهم، لقد أحببت أبا جراح منذ أول أمرٍ خشِن وجّهه نحوي، كنت وقتها ما زلت أدرس في الجامعة، وقد حدث بالصدفة تجمع لأحد الأحزاب ثم عراك معتاد، فأخرجني من هناك وأمرني بالابتعاد وعدم العودة أبدًا، أطعته ولم أعد للتجمهر، كذلك سُلب قلبي مني ولم يعد أبدًا وبقي معه، وأنا لم أرغب في استرداده وإن بقي للأبد.

قالت رندة بنزق رغم اهتزاز قلبها قليلًا بحنان لِما تسمعه:

– تتحدثين بلسان اندفاع الشباب وتهورهم في الحب.

قالت رُفيدة بتسلية محببة:

– بل أتحدث بلسان العاشقين، نحن نستحق الحياة، ونسعى للأمل.

صمتت لبرهة قبل أن تنظر لجفرا الواجمة، وأكملت:

– على هذه الأرض ما يستحق الحياة، وفي رجالها ما يستحق النضال، نحن محارِباتهم وحائطهم الذي لا يقبل الزوال ولا ينهدم بجرارات العدو، نحن السند يا خالة وهم يستحقون.

****

عندما تقدمت بهم السيارة مرة أخرى للداخل وبين شوارع القدس لم يحدد أحدهم ماهية مشاعره، فالأمر أكبر من الشرح وأعظم من التحدث عنه، فالروح تسبح في فضاء الخالق والقلب يتقافز كفرحة طفل يستقبل أول أعياده، كل شيء كان كالحلم.. صوت الهواء، ورائحة القهوة المقدسية، وحفيف أوراق أشجار الزيتون، وتألق ثمار أشجار الزعرور وكأنها أكواب مرصوصة تزف النصر العظيم، وأغنية فيروز التي تصدح في الأرجاء (القدس لنا).

الحلم بدأ يصبح حقيقيًّا، وأمنية رندة الوحيدة بدأت تتجسد عندما ظهرت أمامها أخيرًا عبر الدرج وهي تهبط نحو (باب العامود) وبرمشة عين نسيت كل همومها، كل آلامها وأوجاعها، هي في القدس حقًّا، قدماها تخطوان داخل المدينة التاريخية، هرولتها الثابتة وكأنها تحولت بعاطفية لبجعة أوبرا تتراقص بقدميها الصارختين بالرهبة وعدم التصديق على الشارع المرصوف بالحجر، تتجول هنا وهناك بدمعة عالقة في الأحداق، تخترق أزقة الأسواق، تنظر حولها بدموع تسيل على الخدين، تقلب بصرها في الناس الذين يشبهونها من أبناء وطنها المقدسيين، هل يُقدِّرون يا ترى جائزة الحياة التي منحتها لهم باختيارهم البقاء في الأرض المباركة؟!

– أمي.

أمسكت جفرا والدتها تسندها متفهمة ما تمر به، سعيدة لأجلها، ممتلئة بالفرحة وحرقة المشاعر لأنها رأت والدتها أخيرًا تحقق حلم عودتها.

حركت رندة فمها في حركة بهجة، عيناها تلمعان وتتألقان ليس بالحزن بل لأول مرة باللهفة وفرحة العمر:

– أريد أن أسلم على كل حجر في القدس، أن أُقبِّل كل ذرة تراب فيها.

هزت رأسها مؤكدة:

– ستفعلين حبيبتي، ستملئين عينيكِ بها، وتصلين في باحات الأقصى.

استدارت رندة تحرك يدها أمامهم، تلمس كل جدار يقابلها وكأنها تربت عليه، تسأله الصمود وتشكيه ألم الهجر والبعد:

– حلوة أنتِ يا بلادي، جميلة كعروس تزينت لتستقبل بهجة الحياة.

مسدت جفرا من جديد على كتفها:

– الآن أفهمكِ يا أمي، على هذه الأرض، أم البدايات، ما يستحق الغرام.

استمرت خطواتهم قليلًا كل منهم غارق في مشاعره، حتى حاوطت رُفيدة أخيرًا خيمة حلوة من السعادة ربتت على قلبها كنسمة صيف رطبة تدفئ القلب وتبرد الجسد.

همست في حين كان جفناها يُغلقان:

– كنت سأموت قلقلًا.

قدّها المتأثر بالحب يتقبل جذبه لها ليديرها بين ضلوعه دون تردد أو خجل ويقبل جبهتها:

– لقد وعدت بأني سأكون بخير، وأمامكِ أنا أضعف من ألا أحقق هذا الوعد.

تنحنح والده الذي التفت إليهما عندما شعر بتأخر زوجة ابنه خطوات، ارتبكت رُفيدة واحمرت بخجل فطري أسر حبيبها من جديد، ضحك بمرح وقال ويده تدفعها خلف ظهره دون أن يتخلى عن إمساك كفها مانحًا إياها دقيقة للملمة حرجها:

– اعذرني يا حاج، فزلمتي كانت تحتاج إلى الاطمئنان بعد خطورة تهريبي.

أومأ أبوه مبتسمًا برزانة قائلًا بهدوء:

– المهم سلامتك يا ولدي.

كان عيسى قد تراجع أيضًا جاذبًا رفيقه في عناق قائلًا بلوم:

– أصررتَ وفعلتها رغم خطورة الموقف، أنت بالذات في قائمتهم السوداء.

ادعى أحمد العبوس قائلًا بجدية يعيد له جملته يوم عقد قرانه:

– ما كنت لأتركك في يوم كهذا وحدك خاصة وأنت تنوي إلقاء نفسك في التهلكة حقًّا هذه المرة بعد ارتباطك بابنة عمتي.

ارتسمت مشاعر بسيطة على ملامح عيسى دون أن يرد، مؤجلًا النقاش بينهما لما بعد، فلديه ما هو أهم الآن، ويكفيه اللغط الذي يغرق فيه.

قفز أحمد خطوة من مكانه وهو يستدير بعينين واسعتين مستنكرتين نحو رُفيدة التي كانت تتمايز غضبًا، قائلًا:

– هل لكمتِني على ظهري؟

قالت من بين أسنانها بتحدٍّ:

– نعم، من تلك زلمتك؟ أنا زلمة يا أحمد؟

غمز بعينه وهو يمرر إصبعيه السبابة والإبهام على فكه ثم قال بتسلية:

– وهل هنا أحد غيركِ يليق به اللقب؟

عبست مكورة فمها:

– لولا جلالة المكان لكنت فتحت رأسك عقابًا، هل تراني رجلًا؟

ضحك بمحبة ثم جذبها يضم كتفيها تحت جناحه وقال مداعبًا:

– أنتِ ست النساء، وأخت رجال وملكة قلب أبي الجراح.

تألقت نظرة بعينيها بأنوثة طاغية ممسكة بطرف قميصه:

– سأسامحك هذه المرة لأنك تجيد وصفي.

– الغرور يليق بكِ يا جراحة.

التوت أصابعها حول أصابعه وأراحت كفها داخل كفه، ثم نطقت بتلك الطريقة السحرية التي لا يمل من سماعها وحفظها داخل حصون قلبه:

– غرور مستمد من ثقتي فيك، أحبك.

اشتدت ذراعه حولها، ورد عليها بكل ما يفيض به فؤاده من عاطفة:

– إن لم تكوني قدرًا مكتوبًا، لحاربت العالم أجمع لأجعلكِ قدري في الدنيا والآخرة.

ارتعش قلبها كالمعتاد خوفًا ورهبة إلا أنها بدّدت الحوار وهي تهمس مبتعدة عنه لتمشي بجواره مكتفية بعناق أيديهما ومشاعرهما في تلامس ظاهره محدود وباطنه نهر يفيض ولا يندثر:

– بماذا تشعر ونحن على بعد خطوات من دخول قبة الصخرة وباحة المسجد الأقصى؟

– وماذا أقول أو أصف؟ فكل لغات العالم تعجز عن صياغة مشاعرنا.

همست ونظراتها تنبش في البعيد متلهفة لرؤية ذلك الكنز المكنون والمحفوظ بكلمة الله:

– شعور عجيب يتملكك فيجعل كل عضلة فيك تنتفض برهبة، يعجز لسانك عن الكلام، فقط تكفي لغة الجسد المنهار أمام هذا البنيان بهيّ الطلة.. رغم القوة التي تُبَثّ فيك لتسابق الزمن وتبقى به أطول زمن ممكن، إن كان لديَّ الاختيار أن لا أخرج من القدس أبدًا سأقيم كل فرض من شعائري فيها.

تقدم أحمد بها يتبع صحبتهم ثم قال متنهدًا:

– ربما علينا الاكتفاء بمشاعر عمتي رندة لتعبر عن ما نشعر به جميعًا.

– نعم، هي تكفي.

عندما صعدوا جميعًا تتقدمهم رندة بضع درجات ليصبحوا في ساحة المسجد أخيرًا وأمام القبة الذهبية العظيمة تسمر الجميع إجلالًا وخشوعًا.

هبطت رندة على ركبتيها دون تفكير، ودمعها يهرب من جفونها متمردًا على داخلها الذي تحاول السيطرة عليه حتى تتأمل المكان وتشبع الروح منه دون ضبابية البكاء، يداها ترتفعان تضامنًا مع فمها الذي يلهج بالدعاء مرددة:

– لبيك يا قدس، لبيك يا أرض البداية والمنتهى، لبيك يا مهبط البراق، لبيك يا مسرى رسول الله، يا أرض الأنبياء، الحمد لله الذي كتب لي زيارتك والعودة لك وملامسة جبهتي أرضك الطاهرة.

سجدت وطال سجودها الذي بثت فيه كل آلامها، كل أوجاعها، وكل مخاوفها وشقائها، تلتهم في رحلتها الروحانية ذلك الدواء الذي فصلها عن واقعها مؤجلة كل همومها، فتزيح غيمة السواد بعيدًا عن قلبها ليبقى هنا أبيض ناصعًا بريئًا كما ولد الإنسان أول مرة متخليًا عن كل ضغائنه.

جلس عيسى جانبها على ركبتيه ثم أمسك ذراعها وأسندها برفق قائلًا بهدوء:

– خالتي يمكنك الصلاة كما تريدين في الأماكن المخصصة.

استمعت لطلبه دون مقاومة، دون غضبها الذي قابلته به أول مرة أتى يطلب فيها ابنتها لنفسه، ظلت رندة تنظر إليه وعبراتها تتدفق على وجنتيها، ثم قالت فجأة فاقدة كل تماسكها:

– ألا ترى نفسك أنانيًّا بأخذها؟ أنت تعلم أين سينتهي طريقك الذي تصر عليه وترتب له منذ أن وعى عقلك، أما هي...

لم يقابلها إلا بالهدوء والتفهم رغم تلك النظرة المجفلة التي قرأتها في عينيه القويتين، قال بصوت أجش:

– إذن.. كل إنسان في هذا البلد أناني لأنه يرغب في الحياة، في تأسيس أسرة وإنجاب ولد يحمل اسمه، لو كل واحد فينا وقف رافضًا أن يستمر في الدنيا لكنا انقرضنا منذ زمن، منذ أن هجَّروا منا ما هجّروا وأبادوا الأكثرية، أنا لا أملك ما أخبركِ به إلا أن الحياة تستمر رغم أنوفنا، رغم كل النيران التي تعبر فوق رؤوسنا، نحن باقون كما أن هذا المسجد باقٍ مؤمَّن بحماية ربه.

أمسكت رندة يده بقوة وقالت باختناق:

– لست ضدك ولا ضد الأمل، إلا أني أخاف أن أخسر من جديد، كما خسرت كل شخص في حياتي، أرتعب من المخاطرة بها معك أو مع غيرك، فهي كل ما تبقى لي، الألم الذي أشعر به كل مرة لا يستحق العناء، لا يستحق عناء تشبثها بك.

قال بخفوت:

– ألا يستحق أني أحبها كما تحبني؟

تمتمت رندة باستنكار:

– تحبها في أقل من شهرين! مرتبط بفتاة لا تعرفها، وتريد مني التصديق؟

حانت منه التفاتة لنقطة وراءها قائلًا بصوت أجش:

– قلبي تورط معها من قبل أن أعرف بوجودها، قد تجدين هذا خياليًّا أو مبررًا واهيًا لشرح تعلقي الذي صدمني شخصيًّا، إلا أني أعرفها منذ زمن بعيد، حبها كان كعروة وُثْقى في قلبي، ينشب ببطء بحرص منتظرًا صاحبته أن تأتي مطالبة به.

عادت العبرات تتدفق من عينيها، فمدت يدها تمسحها بطرف حجابها الأبيض:

– لن أقف في طريقها إن كانت تريدك، إن كانت تُردد أنها ستذوي إن ابتعدت عنك، إلا أني سأظل غير مقتنعة، وبخاصة بعدما أخبرني أحمد بأنك رفضت ربط نفسك بإحداهن.

هزَّ رأسه متفهمًا ناطقًا برفق:

– كنت أنتظر المناسبة لتغيير رأيي، ألا ترين أنها جبارة كفاية لتفعل؟

– ما الذي تحاول الوصول إليه من مهادنتي؟

رفع عيسى كفها مقبلًا إياها باحترام وقال بصوت رخيم:

– رضاكِ فقط، لن أعقد عليها إلا عندما تخبرينني بموافقتك وتباركين زواجنا.

ألقت رندة نظراتها إلى الشاب الخلوق الذي يسعى لإرضائها قبل كل شيء رغم ضمان موافقة جفرا شخصيًّا وتحديها العالم لتحظى به، ثم قلبتها نحو الساحة الواسعة للمكان العظيم الذي يقبعون على أرضه، ودون مقدمات كانت تشعر بالروحانية تغمرها بالسكينة فتسكنها، وبالأمل يتجدد فيها، همست:

– رضا ربي ورضاي عليك وعليها يا يما.

*****

قبل الدخول لساحة شيخ المسجد المسؤول عن أمور الزواج.. كانت عينا جفرا تتجول في الساحات والأسوار برهبة أول زيارة لمكان طالما سمعت عن قدسيته وآمنت بالجهاد في سبيل تحريره، كان المكان واسعًا جدًّا، لقد قرأت مرة أن مساحته تبلغ 144 دونمًا، قبته الذهبية المزخرفة بنقوش إسلامية كانت في الواجهة، التي بنيت حول الحجر الذي أسرى إليه محمد رسول الله وعرج منه إلى السماء، وكان هناك أيضًا أماكن على المعمار الإسلامي مبنية للوضوء ومبانٍ أخرى عديدة مخصصة للصلاة.

تتبعت خطواتهم التي أخذتها للمسجد الذي يحوي منبر صلاح الدين في وقت كانت تسمع فيه رُفيدة التي تعدل من حجابها المماثل لحجابها هي أيضًا الذي وضعته احترامًا للمكان وقدسيته:

– أعلم أن قبة الصخرة هي الأشهر لمكانتها عندنا نحن المسلمين، إلا أنها ليست مسعى اليهود، بل إن مسعاهم هو الساحة كاملة التي تقع فيها كل المقدسات وأهمها الجامع القبلي والمصلى المرواني وبالطبع الأقصى القديم.

سألت جفرا:

– هذه المنطقة إذن التي يدَّعون أن الهيكل تحتها؟

قالت رُفيدة ساخرة:

– بل تحت الساحة كلها، ولهذا يستمرون بالحفريات منذ سنوات لهدم المسجد كله.

ردت جفرا بتهكم:

– كذبة أخرى ليس لها إثبات تاريخي أو ديني.

همست رُفيدة ضاحكة:

– هم أنفسهم يُعَدُّون أكبر كذبة عزيزتي، إلا أن السياسة الصهيونية هي من تحكم العالم بالنهاية.

صمتت ثم جذبتها قائلة:

– والآن هيا.. لدينا ما هو أهم يا عروس، نأمل جميعنا أن تجْبني وتهربي رحمة بالرجل المسكين من الوقوع فريسة تحت يديك.

مطّت جفرا شفتيها قبل أن تقول قاصفة:

– مهما كانت مصيبته معي فلن تضاهي وقوع أحمد المسكين في جليدية مغرورة مثلكِ.

***

بعد أداء صلاة العصر التقوا جميعًا داخل المحراب الذي يقع على يمين منبر الأيوبي، المكان الذي تُلقى منه المواعظ وخطب الصلاة، هناك كان يوجد بعض الرجال، كما أتت بعض النساء للمساندة عندما أشاع الشيخ أن هناك عقد قران.

جلست جفرا على ركبتيها باضطراب تفرك يديها بارتباك جلل شاعرة لأول مرة في حياتها بالخجل يجتاح كل ذرة فيها.

وكان الشيخ يجلس أمام أحد الأعمدة، وهناك كتاب عقد أمامه والقرآن الكريم، بجانب الشيخ جلس خالها إسماعيل بعدِّه وليّ أمرها، أما عن عيسى فجلس مواجهًا لأحمد وجفرا ناظرًا إليها بهدوئه المعتاد والمطمئن بذلك الشعور الدافئ الذي يخبرها عبره أن كل شيء سيكون بخير.

استغل عيسى فرصة تجهيز بعض الأوراق المقدمة باسمه الذي يعيش به بين الناس بالطبع، فقد سأل في جواز الأمر وتأكد أنه لا يرتكب مخالفة، إذ إنها بالفعل تعلم عن هويته الحقيقية، وإنَّ كَشْفَ حقيقته قد يجلب الأذى، إلا أنه أيضًا تحدث مع الشيخ صراحة بأصله رغبة منه أن تخرج ورقة رسمية مصدقة منه تحميها وتثبت حقها فيه إن حدث شيء ما وأجبر لحمايتها في إبعادها عنه!

– تعلمين لماذا أصررت أن نعقد قراننا هنا؟

رفعت عينيها الجميلتين قائلة:

– هدية لوالدتي؟

قال بصوت أجش:

– بل لتتذكري هذه اللحظة مدى ما حييت، هذا أصلنا وهذا نحن، وهذا ما يجب أن تُربي عليه أولادنا، أرغب في أن يظل حلم دخول هذا المسجد وأمل امتلاكه معلقًا بين أهدابكِ، ويستوطن قلبكِ، هذا ما ستزرعينه في الصغار.

فغرت فاها قليلًا مطلقة بصوت مكتوم تأوهًا ناعمًا شاعرة بأنها في حلم عابر صعب التصديق.. إلا أنها تريد بقاءها فيه لِما تبقى من عمرها بجواره:

– سنعلمهم معًا، ستكون أول رحلة لنا معهم هنا، أنت تصلي بصبي طويل كالزرافة مثلك، وأنا أحمل بين ذراعي صغيرة مجنونة تطالب بك اشتياقًا.

التوى فمه بابتسامة فاضت بمشاعره العاصفة، وقال مازحًا:

– أنا لن أكتفي بصبي واحد، وموضوع الفتاة امحِه من عقلكِ، يكفينا عنيدة ومجنونة واحدة.

همست بندرة:

- لا تريد فتاة حتى وإن كنت ستطعمها الصابون كل ليلة؟

ظل عيسى يتأملها بشغف للحظات وقلبه يهمس: هل حان بالفعل أوان أن تشرق الشمس مبددة عتمة سمائه الملبدة بالغيوم، أم عليه أن يحسب ألف حساب لرعب قادم قد يأخذه منها؟!

شعر بيد أحمد تنبهه والقرآن يصدح مجددًا في أرجاء المسجد، في حين كانت رُفيدة ووالدتها تجلسان خلف ظهرها داعمتين.

وضع يده في يد خالها ونظر نحو أحمد ضاحكًا ومتشجعًا، فبدأ الشيخ في إلقاء خطبة عن الزواج يوصيه خيرًا بزوجته وبأن يتقي الله ورسوله فيها، ثم شرع في ترديد بنود الزواج وردد خالها خلفه مزوجًا إياه موكلته بعد أن سألها موافقتها.

حتى حان دوره الذي انتهى بكلمات بسيطة كُتبت بحروف من ذهب داخل دفتر روحه:

- نعم قبلت زواجها.

تمم الشيخ دعواته ومباركاته ثم قرأ عيسى الفاتحة التي تلاها بقلب وجل وجسد مضطرب، فالرغبة شيء والقرار شيء، أما تحمل مسؤولية سعادة الجزء الضعيف والهش المتمثل في امرأة وثِقت به وسلمته أمرها.. فهو شيء آخر ومسؤولية رهيبة يدعو ربه أن يكون على قدرها.

انطلقت الزغاريد في الساحة والتهنئة من المجاملين، راقب عيسى رندة التي سطت على ابنتها تحتضنها بقوة تُقبّل عينيها ووجنتيها مباركة داعية الله بكل تضرع أن يكتب لهما الخير والعمر الطويل والخلف الكثير، شعر أيضًا عقب مباركة الحاج إسماعيل بأحمد يمازحه مزاحًا رجوليًّا قبل أن يعانقه بقوة هامسًا:

- هذا لن يعفيك التوضيح.

أخذ عيسى نفسًا متحكمًا متحدثًا بهدوء:

- لا أملك إجابة إلا ما تعرفها فعلًا وكشفتها، معها أنا أصبح رجلًا آخر فهي حصتي.

من كان ليصدق يومًا أن يصطحبها من المطار ويشعر بوجوب دفعها تحت عجلات أول سيارة، أن تكون بالذات نصفه الآخر ورفيقته؟!

أخيرًا تواجه عيسى معها، بشعور جديد وبإحساس أغرب، بدقة متملكة تصرخ من دواخله كإعصار بحر هادر رغم رحمته، بسمفونية عشق لم يُصِغها إنسان ولم يسمعها بشر غيرهما، لحن مميز يصرخ بحروف اسمها حرفًا حرفًا عازفًا على أوتار فؤاده، هل يمكن لرجل راوغ الموت مثله ووقف أمامه عشرات المرات عاري الصدر، ولم يستطع لمسه، أن يموت الآن من فرط السعادة لحصوله عليها؟

قال لها:

- مبارك.

ناعمة، رقيقة، وتبدو الآن شهية وفي غاية الجمال، كانت تقول بوجل:

- مبارك عليَّ أنتَ.

اقترب بغرض مصافحة عروسه الشجاعة إلا أنه أصيب بالذهول للحظة، فقط ما تطلبه الأمر، لحظة ليدرك أن تلك المجنونة قفزت فوقه تحاوط عنقه بذراعيها، تدفن رأسها بجوار قلبه، تلقائيًّا وبطواعية لإشارة القلب، وجد عيسى نفسه يحاوط خصرها بساعديه القويتين، يدفن وجهه كله في جانب نحرها، أنفه يستنشق رائحتها بعمق، بطمع وجشع، شفتاه تهمسان بحب يظلل الوجدان:

– عسى أن يجعلني الله سببًا في سعادتكِ يا ظبيتي الحلوة.

تعلقت يداها فيه أكثر مختبئة به من العالم أجمع وشفتاها المرتعشتان بالحب تهنئان بجوار أذنه بنبرة تكاد لا تسمع:

– أحبك، يا ظريف الطول، أحبك منذ أول مرة التقطتك كاميرتي قبل أن يركض إليك قلبي متعلقًا بك.

ضمها إليه أكثر متشربًا عثوره عليها وكأنها كنز ثمين كان يبحث عنه منذ زمن طويل جاهلًا ماهيته، قلبه يخفق بصخب مقابل فؤادها الذي يدق بجنون؛ ما جعله كله يتألم بشوق لم يدركه في نفسه، كما لم يدرك كل الأعين التي تعلق على تشبثهم المميت ببعضهما، ففي هذه اللحظات كانت كل الوجوه قد اختفت وكل المعالم، ولم يبقَ إلا بيت الله الذي كلل رباطهما بحلاله وجمال شرعيته.

– وأنا أحبكِ كقضية لا يناضل فيها إلا الشرفاء يا جفرا الوطن الحر.

الفصل الخامس

بعد أسبوعين.. استمرت الحياة بحلوها ومرها، بتعثرها وبفردها طرف الرخاء الذي يحمل بين طياته أشعة الشمس ونور القمر مبددًا غيوم الحزن، حاملًا بين جناحي حمامة السلام وعودًا للحياة في أرض العجائب.

ألقى إيليا من كتفه بتعب أحد المقاعد من طراز راقي الذوق، وهو يقول معترضًا:

– أنا لن أحمل قطعة خشب أخرى.

رمى حمزة فرشاة خاصة بطلاء الجدران من يده وهو يمسد ذراعه مرهقًا وقال:

– وأنا.. أخرجوني من الأمر، لقد نفدت طاقتي.

قال أحمد بخشونة وهو يسحب ذلك المقعد ليضعه في مكانه:

– لقد أوشكنا على الانتهاء من تجميل هذا الجحر يا شباب، بقيت الإنارة فقط.

ابتسم عيسى بتكلف خارجًا من المطبخ الذي كان في الماضي مجرد غرفة مظلمة وكئيبة، وتحول بفعل مساعدتهم في وقت قياسي إلى مطبخ آدمي، حانت منه لفتة أخرى ينظر إلى المطبخ الخشبي الجديد الذي اشتراه من معرض الأثاث، كما كل قطعة في منزله متنازلًا من أجل مجنونته عن رغبته في صنع أثاث منزله بنفسه، فقد تشبثت جفرا باقتراح والدتها وأحمد أن يتم زفافهما معًا حين أخبرته على انفراد أنها لا ترغب في أي جهاز أو تشريفة للعروس أو أي من العادات والتقاليد التي تربوا عليها.. إلا أنه رفض بالطبع أن يتم زواجه منها في مكانه الـ...

قاطع عمرو –أحد رفاقه– أفكاره وهو يضع ثريا متواضعة في حجرة الاستقبال عندما قال ضاحكًا:

– من كان يصدق عندما دخلنا حظيرة الماشية هذه قبل أسبوعين أننا قد نستطيع بالفعل تحويلها إلى مكان آدمي ومشرف؟

ألقى حمزة فرشاة الطلاء على عمرو وهو يقول متصنعًا الغضب:

– صُن لسانك، لقد جرحت كنان بوصف بيته الغالي بالحظيرة.

قال إيليا معترضًا:

– الزلة لم يخطئ.. ألا تذكر كيف دخلنا يتخبط بعضنا ببعض في الظلام، وبالأواني الملقاة هنا وهناك؟

أصر حمزة وهو يقول مدَّعيًا السخط:

– ولكنه لم يصل إلى درجة الحظيرة، فقط كان يشبه مكب قمامة، ربما كان يجب إبلاغ البلدية عنه لإضراره بالبيئة يا رجال.

قال كنان وهو يقدم له كوب القهوة متجهمًا:

– كنت أعرف أنكم ستذلونني لعشرين سنة قادمة، لهذا رفضت مساعدتكم في البداية.

اقترب أحمد منه يلتقط كوبه ثم ألقى جسده على الأرض مستندًا إلى الحائط المطلي حديثًا قائلًا بطرافة:

– إن كنا تركنا لك الأمر، لم تكن لتتزوج ولو بعد عشرة أعوام، حقًّا أنا صدمت فيك.. لهذا لم تكن تقبل أبدًا دعوتنا إلى الأعلى وتكتفي بجمعنا في ورشتك.

رد مازحًا:

– وماذا كنتم ستفعلون بالأعلى؟ طعام وكنت أطعمكم وهذا آخركم عندي.

اقترب إيليا أيضًا يأخذ فنجانه ويجلس بجانب أحمد غير مبالٍ بصراخ حمزة المنهار:

– تعبي ذهب سدى، أنا لن أصلح ما أفسدته ظهوركم.

صدرت من إيليا التفاتة مبهمة نحو حمزة ثم أكمل دون اهتمام:

– فقط فلنتمنَّ أن تجيد زوجتك الطبخ، مؤكد ستدعونا بعزومة شكر كل ليلة ولمدة شهر.

قال كنان ساخرًا:

– ولماذا العزومة، وتتعب نفسك في الطريق بين منزلي ومنزلك؟ ما رأيك أن تقيم معي في الغرفة المجاورة؟

تنحنح إيليا بإحراج قبل أن يقول بمزاح متطرف:

– تبدو لي فكرة جيدة.. إن لم يزعج هذا زوجتك، ولم يجعلها تطلب العودة لبيت أهلها من أول ليلة.

أمسك كنان الصينية ودون تردد ألقاها نحوه فأصابت بطنه، ثم هتف محذرًا:

– هذه آخر مرة تقحمها في المزاح بيننا.

ضربه عمرو على كتفه مازحًا بصوت رخيم:

– رجل يا ظريف.

أمسك كنان ذراع الشاب الصغير الذي لم تتجاوز سنّه العشرين عامًا يلويها خلف ظهره، ثم قال:

– ما رأيك أن نختبر موضوع الرجولة هذا هنا والآن؟

ادّعى عمرو الصدمة والرعب وهو يقول:

– ستختبره بأي طريقة؟ لا يا كنان.. فهمت خطأً، نحن رجال نشامى ونعجبك.

دفعه من أمامه هاتفًا بنزق:

– هذه غلطتي فعلًا، أنتم أصبحتم خارج السيطرة.

تدخل أحمد وقال بجدية مضحكة:

– لقد عملنا لديك لمدة أسبوعين، فحوَّلنا جحرك إلى قصر صغير دون مقابل، فمن حقنا على الأقل أن نمزح على حسابك.

وضع كنان يديه في جيبي بنطاله ثم قال بامتعاض:

– شاكرون أفضالكم سيد أحمد، وإلى هنا ينتهي دورك، سأكمل الباقي بنفسي، وأنت اذهب واهتم بشؤونك.

هز أحمد كتفيه بلا اهتمام ثم ارتشف من قهوته وقال:

– سكني انتهى تجهيزه كاملًا منذ أسبوع، وبقي أن تذهب زوجتي وتفرشه بنفسها كما جرت العادة.

فكّر كنان في محادثته القصيرة مع جفرا منذ ساعات، فقد أخبرته أنها مع رُفيدة بالفعل لتجهيز ما تبقى من منزلها، وسألته عن موعد قدومها هي الأخرى لترتب جهاز العروس الذي ابتاعه لها بنفسه، ربما هو هنا كفرع شجرة وحيد ومنبوذ، لا أهل يستند إليهم، ولا أخوات يهتمون بتلك التفاصيل، وبالطبع لا والد يشد أزره، وعروسه التي تربت في أمريكا لم تهتم بتلك الأشياء أيضًا، بل أصرت أنها لا تحتاج إلى كل هذه البهرجة المبالغ فيها، إلا أنه صمم أن يمنحها حقها كاملًا ويضع لها مهرًا كأي فتاة تتزوج عندهم.

– أين ذهبت؟

رفع كنان رأسه نحو أحمد الذي كان يتقدم لوقفته الصامتة منعزلًا عن هرج رفاقهم، عندما لاحظ طول صمته أخذ نفسًا طويلًا يملأ به صدره:

– إليها...

هز أحمد رأسه بتفهم وقال:

– هل تريد التحدث بعيدًا؟

تحرك أمامه نحو الشرفة التي تمثل معتزلًا لحديثهم الخاص.. فتبعه أحمد قبل أن يغلق الباب الخشبي وراءه سائلًا:

– ماذا عنها؟ ظننتكما متفاهمين جدًّا وكلاكما متلهف لإتمام الزواج.

ظل كنان للحظة رأسه مطرق للأرض، ويداه تتقبض على الحاجز الحديدي للشرفة حتى قال أخيرًا بهدوء:

– هل شعرت يومًا بأنك ترمي نفسك في حلم، متخيلًا أحداثًا خيالية لتستطيع الهرب من الألم، ثم تستيقظ فجأة على واقع أرعبك طويلًا أن يأتي يوم ويتحقق؟

للحظات شعر أحمد بالحيرة من معاني كلماته، حتى قال أخيرًا بخفوت صريح:

– لن أنكر أن الجميع تعجب من رغبتك في الزواج، وقد عبرت في الماضي بكل الطرق أنك لن تفعلها أبدًا، مخاوفك لم تكن تخفى على أحد يا كنان.

مسّد كنان جانب عنقه بضيق قبل أن يقول بصوت أجش:

– هناك شيء ربطني بها منذ أن حدثتها أول مرة، أمر أكبر من أن أفسره، أصبحت الشغل الشاغل لتفكيري، معضلة تتعقد والحلول تنفد أمام القدر الذي يضعها في طريقي في كل خطوة أخطوها.

رفع رأسه فجأة يحدق إلى عيني أحمد سامحًا له أن يقرأ من دفتره الغامض بعض الخطوط التي قد تعينه على فهم تلك السلطة التي هزمت أسطورة تحمله وزهده في الحياة.

– لا توجد امرأة استطاعت أن تملك سلطة عليَّ مثلما فعلت، سلطة وقوة مع مقاومتي لها محاولًا بشتى الطرق عزوفي عنها فإن كلمة واحدة منها، ودمعة ذرفتها في عريني جعلت كل شيء ينهار، كل مقاومة تلين، وكل رغبة لي في الحياة أصبحت تتمحور حول مسح تلك الدمعة ومنعها من الهبوط مرة أخرى.

ابتسم أحمد وهو يربت على كتفه بخشونة ثم قال مازحًا رغم صدق المعنى:

– هذا ما اعتدنا أن يفعله فينا حب الجفرا.

عبس كنان قليلًا ثم قال بخشونة:

– لولا فهمي مقصدك، لكنت رميتك من هنا.

قال أحمد ضاحكًا وهو يرفع كلتا كفيه في حركة معتذرة:

– وعلى ماذا؟! وفِّر عصبيتك لابنة العمة، ما زال عندي عرس يجب أن يتم، وزوجة محاربة قد تلقي بك أنت وجفرا من سفح جبل.

ملأ كنان صدره بهواء القرية المِسْكي من جديد ثم همس بخفوت أجش:

– وحدك من سيفهم ما سأقوله.

تبدد المرح من وجه أحمد وسأل باهتمام:

– ألا وهو؟

حرك أنامله في شعره بعصبية قائلًا:

– فقط أتعجب من اتفاقنا جميعًا على تشبيهها بالمعنى المطوي لأرض الجفرا رغم كل زعزعتها.

ظل أحمد يحدق إليه دقيقة كاملة محاولًا أن يستشف مشاعره وأن يفهم التخبط الذي يعيشه، ربما كنان لم يكن يومًا رجلًا مهتزًّا، عرفوه شديدًا، ذو بأس، عقل يعمل كجهاز الحاسوب، دقيق التخطيط والنتائج، مستحقٌّ لقب الداهية الذي أُطلق عليه، ولِمَ لا.. وهو منذ أعوام يعمل ويخطط وتنجح عمليات المقاومة دون أن يفلح أحدهم في كشفه؟ كل الأشياء والمشاعر قد توقعها فيه إلا التخبط، غير أنه الآن لن يستطيع لومه، فهو يتفهم أنه مجرد بشر يحق له أن يحب ويخاف، ويرغب في ضم الحبيبة إليه ولو كانت آخر ساعة في عمره، أليس هذا ما يفعله هو بالضبط مع رُفيدة، ربما لا يرغب أحدهم في الموت، ولكنه لو أتى.. يا مرحبًا به، فالشهادة إرثهم الأبدي.

– جفرا انعكاس للمتاهة التي رمونا فيها، لمحاولة زرع استعمارهم في قلوب الأجيال الجديدة، فتمحى القضية بقِدم السنين كما اندثر التاريخ ومحا صفحات الأندلس، ولكن لأنها أرض الجفرا، الوطن المسبي الذي يتمسك بتاريخه وحق أبنائه، ما زالت تقاوم وتجاهد، تتلمس طريق الحق كلما ضلت عنه، جفرا صالح

لا تتشابه مع الأرض، وإنما أنت اكتشفت بطريقة ما أن كل ألمها انعكاس لألمك يا كنان، أم أقول عيسى أيوب؟

لم يغضب كالعادة، لم يتهرب أو يضع نفسه داخل سجنه العتيق رافضًا أن يمنح أي بشر جزءًا من نفسه أو ماضيه، بل بدأ حزن عميق يرتسم على وجهه سامحًا لنظرة فاضحة أن تعكس قبورًا مظلمة دفن فيها كل أحلامه، كل آماله، وكل أفراد عائلته، ثم قال:

– عرفت الاسم كاملًا إذن.

قال أحمد بخفوت وهو يعبث في إطار الباب عله يشتت وجعًا مبهمًا سكنه على رفيقه:

– لاحت مني نظرة لعقد الزواج الذي أخذته من الشيخ دون أن تثبته رسميًّا.

قال كنان بجفاء:

– لقد أثبته باسمي الذي تحمله الهوية الخضراء، إنما ذلك العقد كان يجب أن أثبت فيه حق جفرا إن جد في الأمور شيء، في الحقيقة هو ليس عقد وإنما اعتراف بأني الشخص نفسه.

تحركت كل مشاعر أحمد دفعة واحدة لتبث إلى عقله انتباهًا راغبًا في حل علامات الاستفهام التي طالت، أليس من حقه بالنهاية أن يعرف حقيقة الرجل الذي ناسبه؟ الشعارات والصداقة شيء، والنسب وتسليم العرض بالمصاهرة شيء آخر:

– أيوب الخليل.. الرجل الذي زارك مرتين من قبل، هو والدك أليس كذلك؟

أجاب باقتضاب:

– نعم، ولورين التي رأيتَها.. لم تكن حبًّا قديمًا كما توهمتم.. بل شقيقتي.

صدم أحمد للحظات، رغم توقعه لأمر مشابه فإنه سأل عاجزًا عن كبح نفسه:

– لماذا الافتراق إذن؟ وكيف بحق الله أنت هنا رجل غريب منزوع الأصل والعائلة في حين أن لديك – كما اتضح– أسرة كاملة تحمل...

قاطعه بصوت مهزوز قليلًا:

– تحمل الجنسية الأمريكية كما كنت أفعل أنا، انظر يا أحمد.. أنا أرغب حقًا في إخبارك بكل شيء إلا أن القصة تطول وتجرح للأعماق حد أني أعجز عن ترميم تلك الجروح إن فتحت مرة أخرى.

هز أحمد رأسه بعدم استيعاب وأسئلة عدة تدور في رأسه، أولها كيف عاد، وكيف استطاع الاستمرار هنا؟ وآخرها من أين له بالهوية الخضراء، وهذا الاسم؟ فما هو على يقين منه أن المحتل يرفض رفضًا قطعيًّا عودة النازحين أو منحهم الهوية الفلسطينية بعدما استطاعت جبهة التحرير الوطنية فرض معاهدة 1994 على الإسرائيليين والعرب وقيام السلطة الفلسطينية وإعلان نفسها المسؤولة عن الضفة وغزة وإصدار الهوية الخضراء لأول مرة في تاريخ فلسطين عبر التاريخ، بالطبع استبعد تمامًا المهجرين واللاجئين المشتتين في بقاع الأرض من الحصول عليها، وما زالت محاولة السلطة مع اليهود وما زالت كل المعاهدات

والاتفاقات يترأسها ذلك الشرط، إلا أن المحتل البغيض يرفض وينسحب كل مرة متهربًا حينما يقتربون من الحصول على توقيعهم واعترافهم بأن من حق أي مواطن فلسطيني أن يعود لأرضه وبيته وإرث أجداده.

قطع كنان الصمت أخيرًا متحدثًا بنبرة شابهت سهمًا جارحًا:

– أعلم كل ما يدور في عقلك، إلا أن الرحلة لم تكن سهلة يا أحمد، واسم كنان هو مجرد هوية سُرقت من شهيد لاجئ في حين أن جثته هو حملت اسمي.

شحب وجه أحمد بقوة مذهولًا:

– ماذا تقصد؟

تكورت المرارة في حلق كنان بغصة جارحة ثم قال:

– كما سمعت.. إن أردت أن تعرف فهذه هي الحقيقة، لن أستطيع إخبارك باسم مساعدي في العودة ودخولي بجواز سفري الأمريكي، ثم كان ترتيبه لي أن يستغل إحدى حملات الاجتياح، عندما رتب الأمر أولًا مع عائلة أحد الشهداء، ولكن عندما استشهد ذلك الشاب كنان الذي قتلوا كل عائلته ولم يتبقَ إلا هو ليتعرفوا عليه وجدنا الأمر مناسبًا لي، أخذ أوراقي وجواز سفري ثم وضعها في جيب الشهيد.

فغر أحمد فاهه وبدا غير مستوعب ما يُقال، ثم بزغت في عقله ذكرى ما وهو يقول بدهشة:

– الشاب الأمريكي الذي اختطفه المستوطنون ثم قتلوه، نعم نعم أتذكر هذه الحادثة جيدًا.

فرك جبهته بقوة قبل أن يقول بعصبية:

– نعم هو أنا بعينه، أو الشهيد كنان الذي طمعوا في أرضه وحصلوا عليها بالفعل، إلا أنهم صدموا أيضًا بهويته الأمريكية واسمه اللذين هما لي في الأصل.

لم يستوعب، هو حقًا لا يفهم لماذا، لماذا تكبد عناء كل هذا؟ لماذا ترك أهلًا وأخواتٍ يحتاجون إليه؟

ودائمًا ما كان الظاهر مجرد قشور خادعة مبهرة في لمعانها ومرعبة هادرة كماء الشلالات جميلة الطلة رغم احتوائها الموت داخلها:

– تركت أهلك وراءك، لماذا هاجر والدك أصلًا وطلب اللجوء؟

رفع حاجبيه بملامح متصلبة يجحره بنظرة مجمدة وساخطة حتى قال بنبرة شابهت الهدير المخيف:

– لم نخرج بإرادتنا، لقد هجموا على منزلنا، أحرقوا جدي ولم نجد بدًا إلا الهرب.

أظلمت عينا أحمد وانطفأ شيء من روحه.. إلا أنه لم يخبره ما هو متوقع من أسف، بل سأل واجمًا:

– ووالدك أين كان من كل هذا؟

أسند كنان ساعديه على سور الشرفة يطرق برأسه نحو الأرض، وكأنه يحاول التمسك بالقوة بالصمود ويمنع نفسه بقوة ألف رجل من أن تغزو الدموع المُقل، ثم قال أخيرًا بهدوء أخفى بداخله الكثير من الحرقة

والوجع:

– ربما هذا بالأصل سبب من أسباب اجتياحهم، والدي كان طبيبًا ناجحًا ومحبوبًا، أو بوضوح كان هو من يطبب المجاهدين سرًّا، وليلتها بالذات.. وصل متأخرًا جدًّا بعد انتهاء كل شيء، كل ما استطاع فعله هو سحبي ووالدتي وأخواتي مستغلًّا انشغالهم في عد رؤوس الشبان والأطفال، ثم فرَّ هاربًا قافزًا بنا فوق جدران النار مع الفارِّين.

ظل أحمد ينظر إليه نظرات مقهورة، بدمعة تلوح في الأفق، يبتلع ريقه الجاف عبثًا، قسمات وجهه تحمل من المعاناة ما لا يحتمل، ولِمَ لا وقد ذكره بما عاناه أبوه بالضبط؟ ربما أحمد وُلد هنا داخل مخيمات اللاجئين إلا أنه كبر على مأساة عائلته، لذا يفهم جيدًا ما يمر به رغم محاولته المستميتة بالتظاهر:

– هل أستطيع التخمين بأنك من قرية...

فرك وجهه بكلتا كفيه بعصبية ثم قال:

– هل خمّنتها لتشابه الأحداث، أم لزيارتي المتكررة لها؟

– الاثنتان.

خيمت ظلال الحزن على عينيه هامسًا بشرود:

– بيت جدي كان منحوتًا في الصخر، لم يستطع أحد الأوغاد أخذه والسكن فيه حتى الآن، ما زال أثر الحريق يصرخ بين جوانبه، وشجر الزيتون يحرسه بريحة الطيب، وما زالت طواجن أمي الفخارية مَكْفِيَّة على أفران الفحم، كل شيء هناك كأنه يصرخ فينا صامدًا منتظرًا عودتنا.

اهتزت عينا أحمد إلا أنه قال من بين أسنانه بسخط:

– لماذا لم يعد والدك؟ لِمَ لَمْ يختر وقتها النزوح في فلسطين؟

رفع كنان وجهه من مكانه راسمًا ابتسامة ميتة في معانيها وظاهرها، وقال بهدوء مخيف:

– لأنه سُلب كل الحق في الاختيار، مأساة أبي لم تتوقف عند هربه في الصحراء حتى وصل إلى مخيمات...

ثم سرد عيسى مختصرًا كل قصته حتى وصل إلى جزء الرجل الذي ساعده.

كان في خضم حديثه يراقب أحمد الذي بدا كأنه تلقى ضربة كانت كفيلة بأن يهتز مفلتًا منه نفسًا متألمًا ومشفقًا:

– هل أستطيع تخمين اسم مساعدك؟

اعتدل كنان الآن ثم قال بجمود وكأنه لم يكن يخبره بمأساته التي تكسر أعتى الرجال وتحطم أعظم النفوس:

– لا لن تتخيل أبدًا من الذي ساعدني، ولم أفصح عن سري متنازلًا عن كل ما كنت أضعه حولي من قيود صارمة لكي لا تؤذى إحدى أخواتي أو يصل إليهن يومًا إلا لرغبة واحدة في نفسي.

خبط أحمد على صدره بقوة وهو يقول بصرامة:

– سرك أمانة في عنقي حتى يذهب معي إلى قبري.

صمت عيسى لوهلة مبتلعًا ريقه يحاول أن يخبئ انتفاضة جسده الذي يخاف الفقد، مسيطرًا على نبرته التي تصرخ بالعشق، حتى قال أخيرًا بصوت تكلل فيه عدم الخذلان:

– حفظك الله يا صديقي، إلا أن هدفي الوحيد أن تعرف أصلي وعائلتي وأن أوصيك إن حدث لي أي شيء، أو كتبت لي الشهادة أو الأسر، برغبتي في خروج زوجتي على الفور وإعادتها لوالدي مهما قاومتك أو رفضت، لا تجعل جفرا تقع بين أيديهم وإن كلفك هذا حياتك ثمنًا.

******

أناملها كانت تمرر بانبهار على صندوق خشبي منقوش برسومات إسلامية تتدرج ألوانه ما بين الأحمر والأخضر والأزرق:

– أعجبكِ؟

رفعت جفرا رأسها نحو رُفيدة التي تقف أمام خزانة الملابس ترتبها بنظام وضحكة الفرحة لم تفارق محياها، همست بصدق:

– إنه رائع!

قالت رُفيدة مقتربة منها تُخرِج مفتاحًا صغيرًا مذهبًا من جيبها:

– يسمى السمرافرنجي.

عبست ملامحها كالعادة بالجهل وقبل أن تشرح لها المعنى، وجدت رندة تقترب منهما تلمس الصندوق بشجن ثم قالت:

– ظننت أن العادة اندثرت.

ربتت والدة رُفيدة على كتف رندة التي أتت مع ابنتها وكِنَّتها لفرش منزل العروس وقالت بهدوء:

– وكيف تندثر ونحن في كل لحظة نزرع في قلوب أبنائنا أصولهم وثقافتهم، وفي كل خيط لثوب فلسطيني نطرز قصة وطن؟

أومأت رندة برأسها متنهدة بارتياح سعيدة ومكتفية بهذا العرس الذي أصرت على أحمد أن يتممه في موعده، حيث كان يرغب في تأجيله بعدما عثروا على رفات أخيها:

– بالسعادة يا رب.

قالت والدة رُفيدة بمحبة:

– ولابنتكِ أيضًا، لقد سعدت عندما علمت بزواجها من النجار، هي لن تجد من في أخلاق هذا الشاب أبدًا، والله يا أم جفرا إن حبه تسلل لقلب كل فرد منا، هكذا فجأة أصبح كنان منا ولنا وأحد أبنائنا.

انتشر تورد لذيذ على وجه جفرا مبددًا أي أثر للشحوب أو القلق من يومها القريب معه، أي تردد كان قد أصابها لرهبة طبيعية نتيجة دخولها مرحلة جديدة وحياة غريبة مع رجل تظن أنها لم تعرف عنه إلا القشور بعد، ولكن ألا يكفي أنه بنى مدنًا حصينة داخل فؤادها وسكن هناك كفاتح منتصر؟

قالت:

– أنا أصدقكِ خالتي، هذا الوصف الصحيح لعي... أعني كنان، يغزو القلب دون إرادة متسللًا على غفلة.

ضحكت والدة رُفيدة بخجل، كما تضاحك نساء أخواتها بخفر متغامزات، في حين خبطتها رُفيدة بنزق:

– تحشمي قليلًا وتحلي بالثقل، لقد علم الجميع مدى وقاحتكِ.

مسدت ذراعها بعبوس وقالت:

– وما دخل الوقاحة في تصريحي بمشاعري للرجل الذي أحبه؟ يكفينا منضبطة عديمة إحساس واحدة.

قالت رُفيدة ببرود ساحبة إياها نحو الخزانة، واضعة بين ذراعيها بعض الملابس بخشونة، قاصدة غير مهتمة بتأوهها ألمًا مجددًا، وسبِّها بالإنجليزية:

– أنا لست عديمة الإحساس، بل فتاة تلقت تربية حسنة، أحترم نفسي وأصون عاداتنا.

امتعضت جفرا:

– حسنًا يا مهذبة.. لنرى ما الذي ستفعلينه مع العريس الهمام ليلة الزفاف.

مطت شفتيها قبل أن تهمس بإغاظة:

– سأفعل المتوقع مني بوصفي فتاة، أشُكّ بأنك سترغمين الرجل على الفرار لطول لسانكِ وجنونكِ.

أخذت جفرا نفسًا حالمًا عبَّأ صدرها بالهواء الناعم ثم قالت دون حياء:

– فليأتِ هذا اليوم فقط ونصبح تحت سقف واحد وبعدها أعدكِ أن لا أجعله يفكر في تخطي عتبة المنزل أبدًا.

نظرت إليها رُفيدة بتهكم وهي تسحب أحد الفساتين المشغولة على الطراز الشعبي ترتبه، وقالت بحزم:

– لتظلي بيننا وتتعايشي مندمجة بين العائلات.. أنتِ بحاجة إلى إعادة تأهيل.

كان النساء اللاتي أتين معها غادرن، ولم يتبقَ غيرها ورندة التي سمعتها تقول بغضب:

– إعادة تأهيل فقط، صديقتك تحتاج إلى إعادة تركيب عقل جديد بعد أن نُخرِج هذا الصدأ من رأسها.

قالت جفرا بفتور وهي تمسك بين يديها إحدى الملابس المثيرة تلوح بها أمام عيني رُفيدة قاصدة استفزازها، ما جعلها تحمر خجلًا وهي تجذبه منها بارتباك ثم تلقيه في أحد الأدراج مغلقة إياه بمفتاح:

– خجولة ها، لقد ظننت أيضًا أنكِ والسيد عابس ستتزوجان ليُحفِّظكِ ما تبقى من القرآن الكريم.

تاه الكلام من رُفيدة وتخبطت عاجزة عن سبِّها، اكتفت بأن تقول:

- أنتِ حقًّا وقحة.

ضحكت جفرا بقوة:

- أعرف، لقد سمعتها هنا مئة مرة حتى اقتنعت.

تمتمت رُفيدة بحنق:

- أنا أستحق، ما الذي دفعني إلى أن أصرَّ على دعوتكِ، لتتسببي في جلطتي؟

رفعت كتفيها لأعلى بلا معنى ثم فتحت كفيها وهي تقول بحيرة:

- السؤال الأساسي.. ما أهمية تلك الأشياء المكلفة بالله عليكِ؟ ألا تشفقي على زوجكِ المسكين؟

قالت رُفيدة بضيق:

- بالطبع أفعل.. ولكن هذا حقي وهو تشريف لعائلتي، كيف لي أن أتنازل عن كسوتي وشواري؟

قالت جفرا بعدم اهتمام مشيرة نحو ذاك الصندوق:

- وكل هذا الذهب، وفرش المنزل من الألف للياء حرفيًّا دون أن تشاركي بشيء واحد، لماذا لم تعتمدي البساطة ولم تتشاركا في شراء ما تحتاجان إليه فقط؟

قالت رندة مستنكرة بدلًا عن رُفيدة:

- لأن هذا هو الشرع، الرجل ملزم بتأسيس منزله، كما أنها عادة وأعراف اجتماعية تدل على فخر زوجها واعتزازه بنسبها وزهوه وتقديره لها.

قالت جفرا غير مقتنعة:

- ما زلت أرى أنها مجرد تكاليف مزعجة، لقد حاولت إقناع كنان بأني لا أريد كل هذه الأشياء وأن نتزوج على أثاثه القديم ولكنه من رفض.

نظرت لها رُفيدة مستنكرة بشدة نظرة قاربت الاشمئزاز، هي تدرك فرق الثقافات والأفكار بحكم التربية التي فرضت عليها في غير بيئتهم.. إلا أن بعض الأسس لا يمكن لبشر المساس بها، فهي مزروعة بداخلها كعضو حيوي، قالت أخيرًا بجفاء موجهة حديثها إلى رندة الحانقة على ابنتها:

- لو كنتِ وضعتِ حذاءكِ في فمها باكرًا ما كانت تفوهت بهذه الترهات.

لم تشعر رندة بأي إهانة قائلة بغموض:

- معكِ حق.. أنا بالفعل قصرت معها، لقد دلَّلناها أنا ووالدها أكثر من اللازم لأنها وحيدتنا.

اقتربت منها رُفيدة سريعًا وهي تقول برفق:

- خالتي أنا كنت أمزح.

ربتت رندة عليها وهي تقول بحنان:

– أعلم حبيبتي، لا تقلقي.. لن نحول سعادتكِ المرتقبة لأي مشاحنات مع تلك المجنونة، فأنا لا أحزن منها أبدًا، فرغم كل شيء أعلم أنها لا تتخذ اختيارًا خاطئًا أبدًا.

قالت جفرا بهيام:

– وهو أفضل اختياراتي، ربما هو أصلًا الاختيار الصحيح الوحيد الذي لن أندم عليه أبدًا.

ادّعت رُفيدة الحنق رغبة في تبديد التوتر فخاطبت جفرا:

– أنتِ، هيا بنا.. ما زال أمامنا فرش منزلكِ، وحمام العروس وتجهيزاته التي تصر عليها والدتي، وشفقة مني سآخذكِ معي.

– لا أحتاج إلى حمامكِ، أنا أستحم يوميًّا وأستطيع العناية بنفسي.

– الجهل لو كان له عنوان سيصبح أنتِ أيتها الصحفية، حمام العروس هذا شيء خاص بنا ومؤكد لا يشبه عنايتكِ اليومية.

رقَّصت حاجبيها بالترافق مع هز رأسها يمينًا ويسارًا وقالت:

– سأذهب إذن من باب الفضول ليس إلا، إن أجبتِني بصراحة ماذا لو لم يأتِ العريس بكسوة عروسه ويكمل مهرها؟

دخلت والدة رُفيدة مرة أخرى تمد نحوهن صينية الضيافة التي لا يتنازل عنها أبدًا لتعزيز قيمة الضيف والمضيف، ثم قالت أخيرًا غامزة:

– خطيبكِ يعرف ما الذي يحدث، ولهذا أصر على منحكِ مهركِ كاملًا رغم رفضكِ العجيب بالنسبة إلينا.

سألت ببطء:

– ألا وهو؟

قالت ضاحكة بفخر:

– إن لم يأتِ العريس بالفاردة تُمنع عنه زوجته ويغضب أهلها، وكما تقول الحاجَّات: «إلِّي بطلعش مع العروس بلحقهاش».

******

يوم مر ويوم آخر أتى، مذهلة هنا الحياة، سريعة وعادلة في تعاقب لحظات الحزن والفرح، أقوياء أهل أرض العجائب في صمودهم وتشبثهم بالحياة، شعب جسور يتمسك بحقه في الحياة، يزرع جذوره عميقًا حتى بواطن مرجانها في البحار، يشمخون كوتد الجبال، رغم مرور أكثر من مئة عام على محاولة كسرهم، ورغم كل أساليب التعذيب والتهجير ومحاولة تداعي كل الأمم عليهم محاولين ترهيبهم وترغيبهم فإنهم ما زالوا هنا بثقافاتهم وعاداتهم، طَلْع الأزهار في كل بقعة من فلسطين يهتفون بمختصر الكلام:

– نحن هنا، هنا فلسطين الأبية، رغم ضرب العدا وقتل النذل فينا، نحن نحيا ونعيش لبعد التاريخ بتاريخ.

عيناها تتنقلان بين وجوه النساء اللاتي يرقصن مترنمات بأغانٍ تراثية، بسعادة وقوة مثيرة للإعجاب وكأن بال كل فرد خالٍ لا يحمل همومًا ولا يلقي بالًا لعدو يتربص به، هم قرروا في مفارقة للزمن يستغلونها كل حين، أنهم سيقتنصون كل لحظة من البهجة وزف العرسان.

هي عروس.. واليوم ليلة حنائها بطريقة تقليدية بحتة، وبحفل لم تتخيله في أعتى أحلامها، يوم أتت إلى هنا لم تكن تتخيل أنها من ستتمسك بعدم الرحيل، بأنها ستتزوج أحد رجالهم الذين كانت في الماضي تقول لنفسها بأنهم مجرد مخربين وهمج.

من برجها العاجي كانت تسخر سرًّا من والدتها، ومن كل حكاياتها وحسرتها على عدم عيشها في أجواء بلدها، وها هي الآن تجلس لابسة ثوبًا باللون الأبيض مطرزًا تطريزًا يدويًّا برسوم حمراء، وأيديها مغطاة بقماش دانتيل جميل ليحفظ نقوش الحناء، تشكر الله بكل ما ملكت من إيمان أنها نالت ما حُرِمته والدتها، بأنها هنا تحصل على دعم أناس استقبلوها واحتضنوها رغم جهلهم بها، مكتفين بأن لسانها الفصيح ينطق بالعربية، ورأسها اليابس تلفه حطة والدها، أحد أهم رموز القضية.

لم تتوقع جفرا أن تصر والدة رُفيدة على مشاركة ابنتها في كل مظاهر الزفاف وتستضيفها في منزلها وتمنحها كل ما قد تمنحه أم محبة لابنتها العروس، حتى النواح ومواويل الحزن الخاصة بفراق الابنة لبيت أبيها لم تحرمها إياها، حسنًا.. بكت رُفيدة المعروفة بجمودها بحرقة، ما سبب لجفرا صدمة، إلا أنها كالعادة لم تهتم كثيرًا، لكنها في حين كانت تلف نفسها في أحضان أمها.. مثلت دور الحزن على فراقهم وذهابها إلى بيت زوجها.

– آه ماذا قالوا؟

تذكرتْ بعض الأبيات التي أحبتها منهن مثل:

– يا ميمتي وش جاب المدلل عندنا بدو يناسبنا، ويوخذ بنتنا ويعز النسب.

– الطير هدى على حطبنا يا هلابا يا هلابا.. المدلل بدو نسبنا أهلا وسهلا ومرحبابا.

*****

– ما رأيكِ؟ هل ما زلتِ ترينها ليالي عقيمة؟

قالتها رُفيدة التي جلست بجانبها في مقعد زُيِّن بالورد وأكاليل الفل والياسمين مثلها بالضبط، في حين كان يحيطها من الجانبين مقعدان فارغان لم تفهم سبب وضعهما بهذا الشكل.

نظرت جفرا إليها مطولًا تتفحص طلتها البهية التي اختلفت عن ما اعتادته منها، إلا أنها ورغم الزينة التي وضعتها الآن كانت هادئة وأنيقة خالية من البهرجة المنفرة، شعرها الأسود كان كالشلالات يتراقص

حتى خصرها، وتغطي ذراعيها أكمام طويلة شفافة انسدلت من ثوب ذي لون سكري مشغول بتقليدية كما ثوبها، ثم قالت:

– لا إنه مبهر، وأجدني ممتنة لكِ ووالدتكِ لإصراركِ أن أشاركِ لياليكِ.

ضحكت رُفيدة بخفر وقالت:

– هذه مزية من مزايا ترابط شعبنا، ففي حين تشعرين أنتِ بالامتنان نحن نجد أن هذا الأمر واجب علينا، هل ظننتِ أني كنت سأتركِ فعلًا تكتفين بالجلوس دون أن تمري بكل ما هو حقكِ من تشريفة؟

ابتسمت لها تشكرها قائلة بتلاعب مرِح:

– وجب عليَّ تذكيركِ بأول لقاء لنا، هل ما زلتِ تعتقدين أن ما يجري في عروقي ماء بارد؟

قالت رُفيدة بشقاوة:

– لا طبعًا، هل تذكرين؟ لقد توصلنا يومها إلى أنك كائن طفيلي يعيش في بحر الأردن.

قالت متصنعة الغضب:

– باردة.

منحتها ضحكة رائقة وهمست:

– تركنا لك الطبع الناري يا مستفزة.

همست متنقلة في الحديث:

– كنت أرغب في معرفة ما يدور في احتفالات الرجال، وأسألكِ هل سمعتِ عن كنان أو أحمد شيئًا؟ فمنذ انشغالي في تجهيز المنزل واحتفالات النساء...

تأففت رُفيدة:

– لماذا تحشرين أحمد في الأمر؟ اسألي مباشرة عن خطيبكِ، لم أعهدكِ خجولة، بصراحة لا يليق بكِ.

تبخرت محاولة بقائها لطيفة قدر الإمكان:

– هل هذه غيرة على الأستاذ أحمد؟ لعلمكِ.. كان أمامي قبلًا لكنه ليس من النوع الذي يجذبني.

توقعت أن ترى الغضب في عيني رُفيدة، أن تمنحها ردًّا لاذعًا معتادًا.. إلا أنها وجدتها تضحك بقوة وكأنها ألقت عليها طرفة، ثم تنازلت أخيرًا وهي تقول ساخرة:

– أحمد كان سيموت من حسرته عندما اكتشف عدم إعجابكِ به، المسكين سيعيش عمره كله يبكي أطلالكِ.

نظرت إليها قائلة:

– حقًّا يا رُفيدة، هل أنتِ باردة مغرورة هكذا دائمًا، أم أنها محاولة فاشلة منك لتداري غيرتكِ؟

نظرت رفيدة إليها مدعية الضجر موقنة أنه مزاح ثقيل بينهما، لن تنكر أنها تحب الفتاة وكأنها صديقة تعرفها منذ الطفولة، قالت بابتسامة ناعمة:

– أنا أغار عليه كأي زوجة محبة، إلا أني أيضًا أثق به، أثق بأنه أبدًا لن يجرحني.

ارتبكت يدا جفرا المغلفتان بالدانتيل بحركة خرقاء، ولكنها عبّرت بطريقة ما عن ضعف تمر فيه رفيقتها حتى قالت بنبرة مثيرة للاهتمام:

– أعتقد أن الأمر كله ثقة متبادلة بينكما.

همست رفيدة بهدوء:

– الثقة نصف الحب، وهذا ما اكتسبته من تمسكه، من عدم جرحه لي أو محاولة هدم شيء أنا عليه، رَجُلي يحفظ كبريائي، يتقبل عيوبي ويحبها قبل مزاياي، ماذا أريد منه أكثر؟

تحركت عضلات فك جفرا بشبه ابتسامة هامسةً بخفوت:

– أنا أثق أني أحب كنان، أعلم أنه رجل يُعتمد عليه، لذا لم أفكر مرتين قبل قراري بالبقاء معه أبدًا، ولكن...

أخذت رُفيدة نفسًا عميقًا وقالت بوضوح:

– أنتِ تخافين ألا يكون واثقًا بتلك الخطوة أليس كذلك؟

حركت جفرا رأسها للوراء تبعد خصلة من شعرها الصبياني الذي استطال وقالت بوجوم:

– نعم، أعلم أنه يحبني، ولكنه صرّح أيضًا كما البعض أنه لم يكن له نية في الزواج أبدًا، أخشى أن أكون فرضت عليه حبي ونفسي يا رُفيدة.

وقفت رُفيدة من مكانها ثم غمزت لها بعينيها تدعوها إلى أن تحذو حذوها قبل أن تقول بحزم:

– أنتِ لم تفرضي عليه شيئًا لم يرغب فيه بكل كيانه، الرجال في مجتمعنا دائمًا مخيّرون قادرون على قول لا، حتى وإن كسر في صددها ألف نفس وقلب لامرأة أحبته بصدق، كنان لو لم يحبكِ ولم يجد المبرر والمنفذ المناسب للوصول إليك ما كان ليفعل، بالله عليك لقد أصبحنا في زمنٍ النساء فيه قادرات على الاختيار وقول لا إن لم ترغب في الارتباط برجل، فكيف لشاب مثله أن يتزوج غصبًا؟

تتبعت جفرا خطواتها وهي تمسك طرف ثوبها ثم قالت بتوتر:

– هل تظنين أنه فقط قلق طبيعي لبدئي مرحلة جديدة من حياتي؟

فتحت رُفيدة الباب الخشبي لتشاهد الساحة التي يُعقَد فيها الاحتفال، بعد أن طمأنت والدتها بأنها تريد أن تُري جفرا شيئًا ما قبل أن يصل أهل العريس كعادة متبعة، ثم قالت برفق:

– هذا سبب، أضيفي أيضًا أنكما لم تملكا الوقت الكافي لتعرفا بعضكما، الزواج مثل أي مؤسسة تنشئينها من الصفر، قوامها فهم كل طرف للطرف الآخر ودعمه والاستناد إليه، بالطبع الحب أهم ركائزه.. إلا أنه ليس كل شيء لتفهم الطرفين وتلاقي أرواحهما وفكرهما في نقطة وصال مُرضية.

كانتا تصعدان سلمًا منحوتًا من الأحجار حتى وصلتا إلى سطح المنزل الواسع ذي الأسوار المغلقة بخشب الأرابيسك حتى يحفظ ستر نساء المنزل عند صعودهن إليه، حينها قالت جفرا:

– أعتقد أني سأكتفي في هذه المرحلة بأني أحبه وأحترمه.

قالت رُفيدة بمناغشة مزيحة طرفًا صغيرًا من الخشب كي تستطيعا كشف الشارع المضاء بمئات اللمبات الملونة:

– ضعي الثقة مع الحب والاحترام المتبادل بينكما، وهكذا ستضمنين زواجًا ناجحًا وسعيدًا طوال العمر.

ثم نظرت إليها بوجه متورد وعينين ضاحكتين، وأردفت:

– والآن آنسة جفرا، تعالي أريكِ ما يشغل خطيبينا عنا.

رفعت جفرا حاجبيها بتعجب لحظي قبل أن تندفع كالعفريت تحشر رأسها في الفتحة، توسعت عيناها بانبهار في حين كانت شفتاها تهمس بالإنجليزية:

– واو، لطالما تمنيت رؤية هذا المشهد حقيقة.

كانت الساحة الكبيرة للشارع الرئيس تمتلئ بالمقاعد المرصوصة، في حين نُصب أمامها مسرح خشبي كبير فوقه آلات موسيقية، وكان هناك أكثر من عشرة رجال لم تتبين ملامحهم ولم تهتم إلا بشخص واحد كان يقود هذه الفرقة المبهرة.

قالت أخيرًا بانبهار:

– دبكة.

حشرت رُفيدة نفسها بجانبها وهي تقول وعيناها تبحثان عمّن يناجيه قلبها:

– هل اعتقدتِ أن الاحتفالات تقتصر على النساء فقط؟

– لم أفكر كيف يحتفل الرجال.

شوحت رُفيدة شارحة وهي تشير نحو دبكة الرجال الذين حمل كل واحد منهم العلم الفلسطيني في يده وربط الكوفية على عنقه:

– يجب أن يتم الاحتفال لكلا الطرفين، كما رأيتِ في بيت العروس يقتصر على أغاني النساء والزغاريد وتزيين العروس وزفها بطريقتهم ثلاثة أيام، في حين أن احتفال الرجال يختلف كل ليلة عن الأخرى، فمثلًا بالأمس اجتمع الرفاق والأهل، ودبكوا دبكة الشعراوية، ووزعوا الكنافة النابلسية والحلوى الفلسطينية المختلفة وشربوا القهوة مع التمر، ولكن في هذه الليلة كما ترينهم يدبكون دبكة أعتقد أنها تخصكِ.

ما زال الانبهار يسكنها، عيناها لا تحيد عن جسده الفارع الذي يدب خطواته في الأرض ثم يجلس جلوسًا خاطفًا ويدبك بقدميه من موقعه هذا ملوحًا بالعلم الفلسطيني ثم يتبعه جميع الرجال الذين يدبكون معه حتى يقفز أخيرًا ويكرر بقدميه الواثقتين دبكته التي يدفع بها قدمه للأمام والخلف مع تحريك كتفيه بجاذبية رجولية، قلبها كان يرتعش بين أضلعها منعكسًا على نبرتها التي خرجت متقطعة:

- كيف تخصني؟

- إنها دبكة ظريف الطول التي لم نتنازل عنها أبدًا رغم حربهم الشعواء لدثر تراثنا الخاص بأبطالنا.

قلبها يهتز متقافزًا متمردًا راميًا نفسه داخل صدره، عاجزة عن قول المزيد، عن وصف مشاعرها، فقط مكتفية بالانبهار وبحقول الأقحوان التي نُشرت داخلها، بذلك الطير المغرد داخلها، وبتلك الفراشات التي انتشرت تدغدغ معدتها:

- إنه أجمل شيء قد أراه في حياتي، لا أعرف ماذا أقول.. لكن الكثير يختلط بداخلي يا رُفيدة، فخر بهم، إعجاب ربما.. وسعادة تنتشر وتدفئ قلبي.

قالت رُفيدة بخفر وهي تزيح شعرها الكثيف بكلتا كفيها المغلفتين وعيناها أخيرًا تلمح وجه الحبيب الذي بدّل قيادة الدبكة مع كنان:

- أفهمكِ طبعًا.. فأنا شعرت بهذا من قبل عند رؤيتي العديد من الاحتفالات، خاصة عندما يدبك أبو جراح.

همست جفرا مشاكسة:

- هل ستسمين ابنكِ جراح حقًّا؟

قالت بزهو:

- طبعًا.. وأنتظر هذه اللحظة التي أمنح أحمد فيها طفله بين ذراعيه بكل شوق وترقب العالم.

همست جفرا وعيناها المراقبتان تطفران بدموع الفرحة:

- يا رب، الله يمنحك كل ما تريدين وتستحقين، ويحفظ كنان لي.

بدأت الأغاني تعلو جاذبة انتباه جفرا الكُلي وهي تسمع تلك الكلمات لأول مرة، فيزداد الفضول بداخلها والجهل للكثير من تراث غُيّبت عنه كما غُيّب الكثيرون.

يا ظريف الطول حلو يا دلوع

والي يطيح البير يحسب للطلوع

إحنا اتفرقنا وعالله الرجوع

والمفرق والمجمع ربنا

يا ظريف الطول مالي ومالكم

وابتليته بالهوى وش حالكم

كان العرض مستمرًّا والبهجة لم تختفِ، وصواني الطعام والحلوى لم تتوقف لحظة عن التوزيع بين الحضور، في حين كان كل انتباه جفرا مع الأغاني التي يُذكر فيها لقبه، حتى وجدت نفسها بالنهاية ترددها بنبرة فيها جشة، وقلبها يتوسل بحرقة.

******

في اليوم التالي، في وقت صلاة المغرب بعد أن تمت مراسم العرس المعتادة من ذبح الذبائح ومد المجاملة لكل العائلات، ورقصات الدبكة التي لا تنقطع، ثم اصطحاب العريسين لحمام الرجال الذي شارك فيه الشبان الذين زفوهما هناك أيضًا، أخيرًا وصلوا بعد صبر لأهم مرسم يتلهف إليه كلا الرجلين.

داخل منزل رُفيدة كانت النساء قد تجهزن بملابس العرس المحتشمة، الحاجات منهن يرتدين الثوب الفلسطيني، في حين برعت الصبايا بالتباري بعرض فساتينهن التي كانت على أحدث خطوط الموضة التركية والبارسية.

أما عن رُفيدة فقد وقفت في منتصف دارها ترتدي فستان عرسها الأبيض الفخم، كانت تحاول أخذ أنفاسها غير المنتظمة، كفّاها يفركان بعضهما بتوتر، عيناها الحلوتان تنظران إلى الأرض باستحياء عاجزة عن النظر لوالدها الذي تقدم يفرد عباءته بكلتا ذراعيه ثم وصل إليها دامع العينين كما لم تره من قبل، وكيف لا وهو سيسلم قطعة من روحه لرجل آخر؟

قال والدها وهو يرفع ذقنها بيده رافعًا رأسها لتواجهه كي يبقى شامخًا ولا ينكس أبدًا:

– أيجب أن تتزوج الفتاة وتبتعد عن حضن أبيها الذي ضمها منذ أول صرخة لها في هذا العالم؟ أيستطيع رجل أن يحبك كما أُحِبك أنا يا قرة عين أبيكِ؟

اختنقت رُفيدة بالدموع وهي تنظر إلى والدها بحنان أمٍّ تريد محو كل حزن طفلها وطمأنته، همست:

– لا، لم يخلق بعد من يستطيع أن يحبني مثلك، كما لن يوجد أبدًا من يزاحمك في قلبي، أنت حبيبي وفارسي الأول يا أبي.

قبَّل محمد رأسها محاولًا السيطرة على دموعه بقوة؛ حتى لا يحزن قلبها، أو يهز من صورته أمام الأعين المراقبة، ثم وقف بجانبها أخيرًا يضع عباءته على كتفيها وأمسك كفها، أخذ نفسًا طويلًا مستعدًّا للخطبة فيهم –كيوم الجاهة– مرة أخرى.

في هذه الأثناء وصل أحمد، وفُتِح باب الدار أمامه، تعلقت نظراتهما ببعضهما لثوانٍ، كلاهما يحدق إلى الآخر بشوق بلغ مداه وبلهفة وفرحة آسرة تخطت كل دروب العشق، أبعدت نظراتها عنه تقطع حديث الأعين مكتفية بحديث الأرواح الذي لا يصمت أبدًا.

جذب انتباههما حماه وهو يتنحنح مُجليًا صوته، ثم بدأ يخطب بصوت جهوري:

– اسمعيني يا ابنتي، الله أنعم عليكم وعليَّ بوالدتك، إنها بنت خير وبنت عالم، ربتكم أحسن تربية.

خفق قلب والدتها من بعيد ناظرة إليه امتنانًا بما يقوله منفعلة بمشاعر تتزاحم داخل صدرها، عبّرت عنها بإطلاق زغرودة خرجت مشوبة بالدموع.

استدارت رُفيدة نحو أبيها ولم تتردد مرتين مطوقة عنقه بذراعيها تحتضنه بقوة علها تخفف عنه عبئًا يكتمه من وجع فراقها، ربت عليها محمد مغمضًا عينيه بأصابعه؛ رافضًا أن يجعلها ترى دموع الرجال في عينيه،

أكمل:

– وصيتي لكِ يا ابنتي: ارفعي رأسي كما كنتِ تفعلين دائمًا، اسمعيني حبيبتي.. زلتك تاج رأسك وجماعته أهلك، وتذكري دائمًا أني في ظهركِ أرفع عنكِ الأذية إن طالتكِ، وأسُدُّ عنكِ ديونكِ إن كثرت، بيت أبيكِ سيظل مفتوحًا لكِ ولمن يخصكِ.

أنهى كلامه وهو يشهق، عاجزًا عن الاحتمال أكثر، قبّل وجنتها بقوة يضمها إليه وكأنه يفعلها لآخر مرة، وظلت رُفيدة تتمسك به بشدة، تنحني لتلتقط كفه، تُقبِّلها باعتزاز، تتمسك بعنقه، تقبِّل وجهه وعينيه، ويتأثر الآخرون بهذا المشهد الدرامي فيتحول من بينهما ليضم العائلة كاملة من إخوتها الرجال ووالدتهم، جميعهم يتشبث بالآخر مسببين غصة في قلوب المراقبين.

تمالك والدها أخيرًا نفسه، سحبها من بين إخوتها الذين خُيل إليهم للحظة أن يخطفوها ويعيدوها لداخل المنزل مخبرين عريسها:

– ما عندنا بنات للزواج.

هذا لم يكن تخمينًا من أحمد، الحقيقة أنها كلمات خرجت من أخيها إسلام الذي يعده أكبر الموالين له، فما حال البقية؟!

وقفت رُفيدة أخيرًا بجوار أبيها شامخة الرأس تستند إليه بثقة تفوق الخيال، تقدم أحمد خطوة هادئة ينظر إليها برزانة وتشجيع، يتأمل جمال عروسه الأخّاذ، وبين حنايا الضلوع يكتم صرخة عشق وانتصار مُقيِّدًا وحشه المتلهف لأن يختطفها الآن ويذهبا لبيتهما مباشرة، لا يريد عرسًا ولا مزيدًا من الاحتفالات والمباركات، كل ما يرغب فيه أن يأخذها من بيت والدها مشرَّفة مكرَّمة وغالية يهنئها الكبير والصغير، ويرفع والدها شالها الأبيض فخرًا بتربيته لها وبما زرعه فيها من آداب وقيم.

– أوصيكَ بها خيرًا يا ولدي، أنا لا أمنحك زوجة، بل تنازلت لك عن قطعة من قلبي وتركتها بين يديك، كن لها كما كان أبوها سندًا قويًّا وصديقًا.

مد أحمد يده يلتقط يدها من أبيها ناطقًا بصوت أجش جهوري:

– الروح فداء لدمعة من عينيها، قطعة قلبك مصونة بإذن الله.

تعالت زغاريد النساء مرة أخرى، انسحب في إثرها والدها من جوارها ببطء، فرد أحمد قفطانًا أبيض مطرزًا بخيوط ذهبية، وراقب بقلب صاخب وأنفاس عنيفة فشل في السيطرة عليها، أخوها الذي جردها من عباءة أبيها، ليضع (قفطان العرس) الذي يعني تمني السعادة والرخاء وإنجاب الكثير من الأطفال، فوق كتفيها، ثم غطى رأسها أيضًا بجزء منه.

همس بصوت أجش:

– مبارك يا عروس.

ارتبكت يداها المتعرقة عندما شعرت بأصابعه التي التفت تحتوي أناملها وكأن هذا المكان خلق خصيصًا لتملأه هي، همست بنبرة متقطعة:

- مبارك.

انطلقت الأغاني مرة أخرى، وسمع تجهيز السيارات بالخارج لِتُقِلهم إلى قاعة العرس، بدأ في أخذ خطوات موزونة حريصًا أن يترفق بها في تحركهما، ثم عاد ينظر إليها بنظرة خاصة رهيبة في معانيها، إن كُتِب لها وصفها والتعبير عنها فلن تجد لها كلمات كافية في كل كتب الشعراء للتعبير عنها، لاهثة، فاغرة الفاه، مشدوهة بكل ما يحدث، كان أحمد يقول بخشونة:

- شهية أكثر من اللازم، تبدين في ثوب الزفاف كالشمس الساطعة.

****

داخل منزل الزوجية، وبرفقة الحبيب الذي فور إغلاق باب واحد عليهما، تراجع دون محاولة مسها أو الاقتراب منها، وجلس على أول مقعد قابله يحدق إلى غرقها الكامل وسط الارتباك والخجل.

الأحمق.. هل سيتركها هنا كل الليل؟ لم؟ ماذا؟ أين اللهفة؟ أين وعوده؟ وأين ذهب الحبيب؟

إن كان يعتقد أنها ستقترب سينتظر إلى الأبد.

ولو كانت تعلم بما يجري معه الآن ووحشه المجذوب الذي يحرضه للانقضاض عليها ليهدئ صهد القلب الملتاع، وليطفئ رغبة الجسد الذي فقد عقاله يصرخ مطالبًا بالحبيبة، لكانت فرت هاربة عائدة لبيت أبيها مسببة لكليهما فضيحة لن تُمحى لولد الولد.

استطاع أحمد أن يأخذ نفسًا متزنًا بصعوبة ناطقًا بخفوت وهو يتحرك من مكانه:

- سأتجهز لأصلي بكِ.

مر من جانبها وهي تتابع اختفاءه في ممر طويل ورأسها منحنٍ جانبًا من أثر الصدمة:

- صلاة، وسيذهب وحده هكذا فقط؟

مهلًا، هل بمؤامرةٍ خارقةٍ بدّلوا زوجها؟ ولكنها متأكدة بأنها لم تفارقه لحظة منذ خروجهما من القاعة وحتى وصولهما إلى هنا!

قفزت رُفيدة من مكانها صارخة بجزع مبتعدة خطوتين للأمام عندما شعرت بيد تطوقها من الوراء وصوته العميق يأتيها سائلًا:

- نسيت أن أسألكِ: هل تحتاجين إلى مساعدة لنزع الفستان؟

وضعت يدها على صدرها هامسة:

- بسم الله.. من أين أتيت؟

أشار نحو المطبخ مدعيًا البراءة:

- من هنا، ألم تلاحظي أن المطبخ له بابان، أحدهما مفتوح على غرفة النوم والحمام ليمنحاكِ الخصوصية.

تمتمت في داخلها بسخط تسبه بعمق، وكأنها ينقصها توتر في هذه الليلة العجيبة، تمسكت بالأدب:

– لم أنتبه، ولا.. لن أحتاج إلى مساعدة.

يده تلاعبت بأعلى ثوبها من الوراء، وذراعه الأخرى التفت حول خصرها يضمها إليه عنوة متغاضيًا عن شهقة خجل خرجت من بين شفتيها، همس برقة:

– ولكن أنا أحلم بهذا منذ زمن بعيد، أريد ضمكِ ولمسكِ يا رُفيدة، لم يبقَ صبر عندي حتى أكتشف إجابة السؤال المؤرق: كيف يكون شغف ملامستكِ، استنشاق رائحتكِ وكيفية مذاق الخمر المعتق من فوق جسدكِ؟!

توردت محاوِلة التملص منه والابتعاد عنه، كانت ضائعة، مرتجفة ومصدومة من غزل صريح وجريء تسمعه منه أول مرة:

– أحمد هل جننت؟ ابتعد عني.

وأد كل محاولاتها بسهولة، جسده الضخم المرتجف بعمق الرغبة يتمسك فيها وكأن حياته كلها معلقة بما يحصل عليه منها لأول مرة، ولمَ لا؟ ولمسة الحلال خلف باب بيت يضمهما ستبقى ذكراها بقلوب كل منهما إلى الأبد، قال لها:

– أنتِ التي تحتاجين إلى التعقل، ولتدركي أني لم أعد الشاب الذي يحبك ويصونك فحسب بل زوجكِ يا أم الجراح.

قاومته وقاتلته مزمجرة كنمرة شرسة هاتفة:

– ولو.. هذا لا يمنحك الحق، ثم إن...

قاطعها مبعدًا إياها قليلًا عن مرماه بما يسمح له بالنظر إلى عينيها وقال:

– حقًّا؟! لا يا دكتورة.. الليلة أنا من أقرر ما يحق وما لا يحق، وأنتِ كأي حبيبة مطيعة عليكِ الاستسلام فقط.

أغلقت جفنيها بعيدًا عنه في محاولة واهية لتشتيت نفسها عن الضعف الذي انتابها بقربه، عن التأثر الذي طغى على كل عظمة صغيرة بجسدها، قالت ببرود:

– أنا لا أرضخ ولا أستسلم حتى وإن كان لك.

سكنه المرح والتلاعب، لم يرد عليها بل في لحظة خاطفة انحنى يقبلها كالإعصار، للحظات تجمدت بين ذراعيه، عيناها مفتوحتان لآخرهما، ويداها تثبتت فوق ساعديه وكأنها تحولت لتمثال.

وعلى الرغم من إدراكه اللحظي لهذا، ولكنه كان أكثر دبلوماسية عندما هذب جموحه واجتياحه محولًا قبلاته لتشابك شديد الرفق والنعومة حين ضمها إليه أكثر حتى ما عاد مكان بين الجسدين المتلاحمين، قلبُها يقابل قلبه متعانقين، مبعدًا عنها كل أحاسيس الرهبة والخوف، محايلًا ردود أفعالها البريئة حتى ذابت تمامًا ودبت بتمثالها الحياة، يداها بتردد شديد ترتفع لتطوق عنقه، جفناها ينسدلان بخفر ورقة، تائهة، مشتاقة

وعاشقة كانت رُفيدة تسلمه أمرها، شفتاها المتيبسة تلتهب بالنار، تسلبه عقله وفكره، تبادله تلك القبلات العذبة باضطراب عذري مسلمة دروع الأنثى لرجلها، ومقاومتها التي همدت بدلًا من أن تهدئ انفعاله أضرمت النيران فيه تشعل الرغبة التي يزيدها جوى الغرام، للحظة رغب في التراجع، تذكر بأن عليه إقامة الصلاة أولًا، مهادنتها وتجهيزها بالكلمات الناعمة، ولكن كل شيء ذاب وانفصل كلاهما عن الواقع، كفه تتحرك باللهفة نحو سحاب فستانها يفتحه ببطء وتمهل، وجهه انحنى كله فوق نحرها مقتطفا منها رحيقًا لطالما فكر كيف يكون طعم مذاقه، لثوانٍ أخرى تيقظ عقلها محركًا عذرية الجسد عندما دفعته بهشاشة:

- أحمد أرجوك كفى.

إلا أن كل شيء انتهى.. والصبر العليل اندثر، آخذًا معه فستان الزفاف الذي سقط حول قدميها، شهقت رُفيدة بذهول محاولة أن تستر قميصها الأبيض المثير بعيدًا عن عينيه الجشعة بالغرام، ولكنه كان الأسرع عندما حملها على صدره يخبئها هناك يهمس بصوت مهادن وحدقتين تلمعان بالضوء:

- اهدئي يا زلمتي، لن آخذ منكِ أكثر مما تمنحين.

كانت توشك على البكاء مخبئة وجهها بين طيات قميص عرسه المُنشي:

- لا تقل زلمتي، أشعر أني أحد رفاقك الشبان.

وضعها على فراش العرس قبل أن يلحق بها يمنعها من الهرب، ثم مال نحوها ببطء يدفعها لتستريح على الوسائد، وهمس بخفوت شديد الرقة:

- أنتِ زلمتي، ورفيقتي وحبيبتي وأم أطفالي.. أنتِ دنياي يا ابنة الأكارم.

وبين عقل احتضرت مقاومته وقلب تأجج عشقه كان أحمد أخيرًا يحطم كل دوافعها مخترقًا كل المهادنات بينه وبين براءة ما زالت تحكمها هامسًا بعشق محموم، كاسرًا كل الحواجز مستمتعًا بأنوثة لم يخلق مثلها قط في الدنيا لعينه وقلبه وروحه.

*****

هل للبيوت نغمة ومشاعر محسوسة أم هي تلك الروحانية التي غرقت فيها وهي تصلي خلفه؟ صوته الشجي كان يقرأ آيات الذكر الحكيم منذ وقت طال وطال، ولكنها لم تشعر إلا بالسكينة والخشوع، غارقة بدوامة لذيذة وناعمة من اليقين وانشراح الصدر، كلاهما كان يشعر بحلاوة اللقاء، وبمعنى الهدوء وبزوال كل الهموم والأفكار، الأمر كان أكبر من أن يفسره أحدهما أو يصفه، فقط هو معنى الوقوف بين يدي الله وتسليمه كل أمرك ومستقبلك مستسلمًا لقدرك، راضيًا عن كل اختياراتك وصفحات حياتك؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عندما سلم عيسى أخيرًا.. التفت إليها دون أن يتحرك من مكانه واضعًا يده على جبهتها متممًا بالدعاء:

- اللهم إني أسألُك من خيرِها، وخيرِ ما جُبِلَتْ عليه.

حرك أصابعه قليلًا يحررها من الحجاب حريصًا أن يراقب كل انفعال ولو بسيط يصدر عنها، وتلقائيًّا كانت عيناه تدرسان الثوب المحتشم الذي اختارته لترتديه، متجنبة ارتداء ملابس العروس البيضاء، وأحس بجزئها الأعلى الذي مال للوراء في حركة عفوية مبتعدة عن مرماه ونظرًا لطبيعتها الجريئة التي يعلمها، تأكد الآن من فركها كفيها بتوتر وفمها الذي تضغط عليه بتشدد كأنها تكافح رغبة داخلية تحثها على الفرار، وضع حجابها بجانبها ثم دس سُلامياته في شعرها الذي بالكاد يصل إلى تحت أذنيها متذكرًا أول مرة رآه بقصَّتها الرجولية:

- استطال.

ارتبكت أكثر رافعة رأسها كالطلقة تحدق إليه بمزيد من الضياع والتشتت الذي يلفها، قالت:

- ماذا تقصد؟

ابتسم بطيب خاطر متفهمًا ما تمر به قبل أن يقول ببراءة:

- شعركِ، اعتقدت أن طبيعته قصيرة، لأتبين بأنكِ أنتِ من فعل ذلك قصدًا يا متوحشة.

رفعت يدها تلامس أطرافه:

- كانت حالة جنونية لا أكثر في محاولة لاستفزاز والدتي، فقد بلغت وقتها الخامسة والعشرين وما زالت ترفض السماح لي بالعيش بعيدًا عنها.

قال بصوت أجش:

- خيرًا فعلت، تلك القوانين لحمايتكِ، أنا أرى أنها امرأة قوية برغم كل شيء، فقد أحسنت تربيتكِ، أنتِ تحفظين القرآن، تقيمين الصلاة، وتتحدثين العربية بطلاقة.

تهربت عيناها:

- هذه قواعد أرساها والدي، وزرعها بداخلي.

مد يده مرة أخرى ملامسًا ذقنها برقة، ولكنها ابتعدت أيضًا بعينين مهزوزتين، أخذ نفسًا طويلًا ناطقًا بحنان:

- هل أنتِ خائفة مني؟

هزت رأسها ببطء:

- لا بالطبع، أنا أحبك، ألا تختصر هذه كل معاني الأمان؟

أعاد كرَّته محاوطًا وجنتيها بيده مجبرًا إياها على مواجهته والنظر إليه، قال بلطف:

- خجِلة إذن؟

تبعثرت أنفاسها تبعثرًا مؤلمًا مجيبة بصدق:

- أعرفك وأثق بك، إلا أني لم أعتد عليك، عيسى أنا...

صمتت حائرة، كيف تُفهِمه أنه بالفعل أول رجل في حياتها ليس على المستوى الزوجي فقط بل وحتى الصداقات، رندة كانت صارمة معها في مرحلة الطفولة والمراهقة، وهي عندما كبرت وملكت حريتها الكاملة اختارت الطريق السليم الذي أمرتها به عقيدتها وتقاليد مجتمعها، إلا أنها طبعًا لن تشير إلى أمر كهذا قد يفسر بالخطأ.

ابتسم بدفءٍ قبل أن يقف ويسحبها معه، ممسكًا بيدها متوجهًا لغرفة كان قد فرشها بمجلس عربي بسيط، عندما وصلا إلى هناك أخبرها بهدوء وهما يجلسان أمام طاولة طعام أرضية وضع عليها عشاءهما:

– انسي الأمر وأخرجيه من تفكيركِ، أنتِ الليلة في ضيافتي.

نظرت إليه بعدم فهم، ففسر بلطف مازحًا:

– لدينا عادة أعتقد أنها ستعجبكِ لتعرفي أن الرجل الشرقي ليس همجيًّا.

قالت بحنق:

– توقف عن الإشارة إلى تلك الفترة الغبية.

ضحك بدفء وهو يرفع الأواني ثم قال بجدية:

– إنها عادة لدينا أخبركِ فيها بأنكِ في ضيافتي المدة التي تريدينها دون أن ألمسك، مكتفيًا باحتضانكِ حتى يتبدد خوفكِ وخجلكِ.

احمرّت مطرِقة برأسها استحياءً لم يزِده إلا تعلقًا، إن كان للصبر مكان فمؤكد هو أحد منازله، لذا وجد نفسه يأخذ قطعة من اللحم ويمدها نحو فمها في دعوة لأن تتقبلها منه وكأنه معتاد على هذا معها منذ الأبد، سألها ببساطة:

– بمناسبة أن كل واحد فينا لم يعرِف عن الآخر بعض الأمور الحياتية، هل تجيدين الطبخ؟

تقبلت الطعام منه وبدأت في مضغه ببطء وهي تردد ببلاهة:

– الطبخ؟!

– نعم الطبخ.. أم أنك من اللاتي ينددن بخدمة الزوج، أرجوكِ لا تكوني، فأنا بالفعل عشت في قحط وتقشف وإهمال لسنوات طوال، حتى نسيت معنى أن يكون المنزل منظمًا أو كيف يكون الطعام البيتي.

مرحه وحواره معها وكأنهما زوجان منذ الأبد، وفي ليلة كهذه بدد شيئًا من توترها، قالت بمرح:

– لا تخف من هذه الناحية، أنا أؤمن أن النظافة والمطبخ خُلقا للنساء فقط، وبأن كل الرجال الطباخين دُخلاء على تخصصنا.

وضع يده على قلبه متنهدًا بدرامية:

– حمدًا لله.. لقد أرحتِ قلبي يا ابنتي، أنا تزوجتكِ ودفعت فيكِ كل شقاء عمري من أجل الطبخ والتنظيف فقط.

امتعضت:

– ولماذا كل هذه التكاليف سيد عيسى؟ كنت أتيت بخادمة!

مد يده واضعًا قطعة من اليلنجي في فمها وقال بجدية:

– الخادمة لن تشاركني حياتي وأحلامي، مؤكد لن تكون قطعة من قلبي، لن أودها وأساندها وأحترمها، والأهم لن تدفئ برد أضلعي ليلًا عندما أضمها إلى صدري.

عضت على طرف شفتها بخفر ولم تتهرب منه هذه المرة.. بل ظلت تنظر إليه سامحة لأنوثتها أن تتورط في التفكير به من ناحية المشاعر الحميمية.

تنقل عيسى في الحديث بسلاسة وهدوء:

– وماذا عن أحلامكِ؟ لقد ذكرتِ قبلًا أنكِ تحلمين بجعل قلمكِ حرًّا يحارب من أجل قضايا الشرفاء، أو ربما تستغلين حدثًا حصريًّا تصورين فيه أهل فلسطين كما لم يعرفهم أحد من قبل.

خجلت هذه المرة، ولكنه كان لسبب آخر، قالت بخفوت:

– كانت كلمات انفعالية، أنت محق في حكمك.. أنا لا أفكر قبل الحديث.

هنا قال بصوت أجش:

– وأنا لا أحكم عليكِ!

ثم أضاف:

– حقًّا أسألكِ.. ما خططكِ لمستقبلكِ؟

تنهدت بكبت وهي ترفع كتفيها باستسلام وقالت:

– أبي كان يحلم بأن أصبح طبيبة أو محامية أعمل في السلك الدبلوماسي، ربما أستطيع الوصول إلى الكونجرس كما بعض الفتيات العربيات، حتى أرفع اسم فلسطين هناك، أُثبت وجودها رغم أنفوهم، والدي كان مؤمنًا أن الأهم من مقاومة السلاح هو مقاومة الفكر، وحَشْر اسم دولتنا وتاريخنا في أي محفل دولي.

وجمت ملامح عيسى للحظة وجومًا لم تفهمه، وقال:

– يذكرني بأحدهم، الاختلاف أن والدكِ لم يقبل أن يتجنس بهويتهم.

عبست ناطقة بضيق:

– لا أفهم.

– ليس أمرًا مهمًّا.. أكملي.

فتحت يديها مشيرة في حركة تشرح كل شيء:

– كما ترى رفضت وتشبثت بحلم الصحافة ووعدته بأني سأناصر القضية من خلال قلمي، ولكن لم أجد الفرصة قط.. فالصحافة في أمريكا حرب شرسة لا ينجو فيها إلا المحظوظون

قال مداعبًا بلطف:

– جيد أنكِ لم تنجحي بعد، ربما وقتها لم تكوني لتعودي لي.

تمتمت:

– قصدك للوطن، لا تغتر.

غمز بعينه ثم قال ببساطة:

– أنا وطنكِ، هل نسيتِ؟

حركت يديها بطريقة خرقاء نحو قلبها وكأنها تحاول كتمان نبضاته التي شابهت موسيقى عذبة تعزف على أوتار الحب، سألته متهربة:

– لقد سمعت عن ظريف الطول كثيرًا، من هو؟ ولماذا يسمونك به؟

ارتفع حاجبيه، وارتد رأسه للوراء بدهشة قبل أن يقول:

– هل تمزحين؟

– لا.. للأسف.

قال بغيظ:

– ألم تسمعي عن شيء اسمه البحث عبر الإنترنت؟

شعرت بالغباء للحظة قبل أن تجد له مبررًا قويًّا للمجادلة:

– عذرًا سيد عيسى، الأحداث الرائعة التي مررت بها منذ هبوطي هنا لم تمنحني الوقت.

امتعض عيسى وقال:

– أنتِ لم تفكري في البحث من أساسه، بالله عليكِ أي صحفية أنتِ؟!

حكّت شعرها باعتراف ضمني بالغباء، ثم قالت مبررة مرة أخرى:

– عقلي كان أكثر انشغالًا، حتى إني لم أعمل على التحقيق الذي كتبت بعض مسوداته، ولم أوثق الصور التي التقطتها حتى الآن.

قال بهدوء:

– لا بأس.. ستجدين هنا شبكة إنترنت دائمة، ومعكِ كل الوقت والصلاحيات لتعملي وتكتبي ما تحبين.

همست:

– شكرًا.

ثم رفعت وجهها مكررة بإصرار:

– دعني أُعِد صياغة السؤال: لماذا هذا البطل بالذات من أخذتَه رمزًا؟

أزاح عيسى الطاولة بعيدًا ومسح يديه قبل أن يفتح أحد أطراف المجلس من الأسفل يُخرج منه ما يشبه الوسائد، ثم ضغط على زر إغلاق الإنارة مكتفيًا بنور القمر الذي يتسلل من النافذة المفتوحة بمواراة، أراح ظهره على الفراش المنجَّد، ثم وضع ذراعًا تحت رأسه والأخرى فردها جانبه، إلا أنه لم يحاول دعوتها مطلقًا إلى الاقتراب منه، وأجاب أخيرًا باختصار:

– لأنه يشبهني، ومنذ طفولتي.. داعب جدي أفكاري ونخوتي للتشبه برجل مثله، جدي كان نجارًا أيضًا، هو من علمني الحرفة منذ الصغر، ومن حينها لم أفلح في غيرها.

كافحت الرجفة التي هددت باجتياحها، واقتربت منه تجلس على ركبتيها، عقدت يديها في حجرها علها تكبح رعشتهما، وسألته بخفوت:

– لقد قرأت بصراحة بعض المعلومات عنه، هو شخص مجهول الهوية بالنسبة إلى قرية هبط عليها، امتاز بحسن الخُلق والخَلق، وعمل نجارًا أيضًا، حتى إن بعض الأهالي رغبوا في تزويجه من بناتهم، إلا أنه رفض بلطف لأسباب غير معروفة.

قال مداعبًا:

– كنت أعلم أنه يوجد جزء منكِ خبيث يختبئ خلف ادِّعاء الجهل.

فتحت كفيها ترفعهما للأعلى بخبث وقالت:

– إنها الصحافة يا عزيزي، ربما أسمع الخبر وأحفظه إلا أني أظل أدعي الغباء حتى أحصل عليه من صاحبه مباشرة وبوضوح أكبر.

اعتدل عيسى يتكئ على مرفقه قائلًا بخشونة:

– حسنًا، هل علمتِ أيضًا أنه لم يكن أسطورة شعبية كما يحاول البعض الادعاء؟ إنه بطل قومي ظهر أيام الانتداب البريطاني، وسبب تسميته واستشهاده، أنه ذات ليلة هجمت عصابات صهيون على تلك القرية، فقتلوا فيها من قتلوا، وسرقوا ما سرقوا، ولم يستطع أحد الدفاع عن نفسه، فقد كان الانتداب يحرم علينا السلاح، في حين يسلحهم هم.

أخفضت رأسها وهي تزحف خطوة أخرى تُقصِّر المسافة بينهما سائلة بلهفة:

– وبعد؟!

ذراعه الأخرى ارتفعت تداعب برقة أطراف خصلاتها وقال بهدوء:

– اختفى ليلتها لأربعة أيام كاملة ثم عاد، لم يخبر أحدًا أين كان ولا ماذا فعل، إلا أنه عندما هجم الصهاينة من جديد.. كان هو على استعداد تام، فخرج يحمل خمس بنادق اشتراها من ماله الخاص ووزعها على شبان القرية للدفاع، وقتل وحده ستة من أفراد العصابة.

توسعت عيناها بانبهار ونهم للمزيد:

– واو.. كنت أظنه أسطورة فعلًا، أما الآن وأنا أتلمس التشابه بينكما أُصدق أنه حقيقة.

قال بسخرية:

- وأنا الآن أصدق أنكِ مميزة، فبدلًا من قضاء ليلة عرسي في أجواء رومانسية أتغزل فيها بعروسي الخجِلة، ها أنا أحدثكِ عن النضال والكَر والفر والقتل.

ضحكت بقوة وبصوت عالٍ ضحكة خالية من أي رقة أنثوية، متحدثة من بين أنفاسها:

- وهل ما فعلناه منذ أن تقابلنا اعتيادي لتصبح ليلتك عادية؟

ادّعى الغضب وهو يجذبها كلها لتقع على صدره، تجمدت للحظة رافعة رأسها إليه بصدمة والخوف يعود يجد فيها مكانًا حتى قال مداعبًا برقة:

- ما رأيكِ أن أحكي لكِ قصة بطل آخر قبل أن تنامي في ضيافتي؟

تذكيره بمعنى وعده جلب لها طمأنينة لحظية، فمدت يدها تتجرأ قليلًا لتمسك بأطراف قميصه البيتي، وبتردد شديد كانت تريح رأسها بين ذراعه وطرف صدره الأيمن، همست:

- لا أريد بطلًا غيرك، أعني أخبرني بما تعرفه، ماذا حدث لظريف الطول بعدها؟ هل أسروه أم أنه...

صمتت تقطع سؤالها عاجزة عن إكماله، دفن عيسى يده تحت ذقنها حتى تواجهه ونظر إلى عينيها النديتين مجيبًا بخفوت:

- لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، شجاعته وجرأته جعلت كل نساء القرية يمنحنه حُلِيَّهن والرجال أموالهم، ثم اختفى مرة أخرى وأتى بعدد سلاح أكبر؛ مستعدًّا لهجوم انتقامي من العصابات الإرهابية، وقد حدث بالفعل في قرية كروم التفاح، كانت حرب شرسة انتقامية أجمع فيها أهل القرية أن ظريف الطول قتل وحده عشرين فردًا منهم، ولكن عندما هدأ كل شيء وجمع أهل القرية جثث أبنائهم، لم يكن هو بينهم، ولم يكن من الناجين أيضًا ولا حتى ممن أسروا، حيث ظل كلا الطرفين يبحث عنه لشهور طويلة.

أفلتت شهقة محبوسة داخل صدرها تسأل بتوسل:

- أين ذهب؟ ما خاتمته؟

دسّ عيسى وجهه في رأسها يطبع قبلة دافئة هناك مستنشقا عبيرها بعمق عله يهدئ لوعة قلبه وهمس:

- لا أحد يعرف، وكأنه لم يكن بين الأحياء يومًا، بعضهم ادعى رؤيته في حرب لبنان وآخر أقسم أنه أبصره مع جمال عبد الناصر، وهناك من خُيِّل إليه أنه كان يحارب بضراوة في الـ٤٨، إلا أنه لا أحد يعرف الحقيقة حتى الآن، وتحولت بطولته لأغانٍ وأشعار وأسطورة شعبية يناجيه بها الناس للعودة، يتوسلونه البقاء في وطن يحتاج إليه.

أفلتت جفرا رأسها ونظرت له تحدق إلى وجهه بمشاعر عنيفة هامسة:

- سيبقى هذه المرة، لن يغادر ولن يصيبه أذى، هو لن يتركني أبدًا.

أحس عيسى بقلبه يخفق بين أضلعه بصخب، حين كان يصارع أنفاسه وجسده كله يرتعش فعليًّا أمام النظرة في عينيها والتوسل في نبرتها، والحلاوة في نار احتضانها.

أردفت:

– أحبك يا عيسى، هل سيأتي اليوم الذي قد أكتفي من هذه الكلمة؟

أغمض عينيه بقوة للحظة قائلًا بخشونة:

– لا أريدكِ أن تكتفي، بل رددِيها على مسامعي كل لحظة.

غرقت في صوته، وضاعت في قامته الطويلة التي احتوتها كلها، بصرها تشرب تفاصيله والنَفَس يخرج متنهدًا بالشوق كفنان يجيد العزف، ونور القمر الذي يخترق عزلتهما، وشعاعه الذي هبط على الروحين المتعانقتين، مع نسمة خفيفة تلف صهد المشاعر مهدهدة عليها برقة لتزيدهما عنفًا لطيفًا دون نيران تجرفهما، كل شيء كان يتواطأ على روحين خُلقتا لبعضهما، وُجِدتا لتكمل إحداهما الأخرى، ارتبطا منذ الأزل بخيط رفيع رغم امتداده فإنه لم ينقطع أبدًا حتى قُدِّر لطرفيه اللقاء.

متى مال وجهه على وجهها ملتقطًا شفتيها بنعومة هي لا تذكر، كما فقدت كل بوصلة مشاعرها ولم يتبقَ إلا الحب، الرغبة في الموت على صدره.

القبلة تحولت إلى قبلات متقطعة ناعمة، وبيد رقيقة تمسد ظهرها تدفع إليها الأمان، تتحرك على كتفيها مهادنة أفكارها، تحاوط خصرها، تتسلل لبشرتها، ليُعرِّفها عليه، لتحفظ لمسته، لتدمن وجوده، ولتغرق دون أمل في النجاة من لذة عشقه.

قالت جفرا:

– عيسى.. أنا...

غابت عيناه بالحب لا الرغبة، صوته تداخلت فيه اللهفة والرقة خاليًا من نفاد الصبر، ينزع عنها رهبة اللقاء ويزرع بداخلها أنه رجلها الأوحد منذ الأزل وإلى الأبد:

– أنتِ ماذا؟ هل ما زلتِ ترغبين في مزيدٍ من كرم الضيافة؟

قلبها كان يخفق بعنف وكأنه قادر على تحريك صدرها عوضًا عن رئتيها اللتين توقفتا لأخذ الهواء:

– لا.. أظنني.. لم أعد خجِلة.

شفتاه كانت تغزوها، وعيناها الناعستان مغلقتان بتشدد رغم تفاعل كل مشاعرها، همس بجانب أذنها بصوت دغدغ كل أحاسيس أنوثتها:

– لا أظن أنكِ تخليت عن الحياء.

هزت رأسها رافضة بقوة، تضغط جفنيها كمن يوشك على البكاء هامسة بتخبط:

– أنت محق، أنا ما زلت أشعر بالرهبة، ولكني أحمل لك في قلبي ما يدفعني إلى تجاهل كل ذعري لأجلك.

حاوط رأسها بكلتا ذراعيه، ثم ترك لنفسه حرية التلامس الكامل معها يجتاحها برقة، بحنان وباحتواء كامل، يهادن كل تفصيلة فيها، ثم أنشد مقبلًا عينيها وأنفها ووجنتيها:

«مَنْ لم يعرفْ جفرا.. فليدفن رأْسَهْ
من لم يعشق جفرا.. فليشنق نَفْسَهْ
فليشرب كأس السُمِّ العاري يذوي يهوي ويموت»
همست بنَفَس يتزلزل وبثوابت تتبدد:
– لقد أضعت عليَّ فرصتي لأخبرك ما حفظته خصيصًى لأجلك.
رفع رأسه لوهلة يتشرب جرعات الخمر المعتق من عينيها:
– أخبريني يا ظبية.
أمسكت كتفيه بقوة تدفن رأسها في عنقه لوهلة، شفتاها تطبعان قبلة هناك هامسة بخفوت شديد:
«ظريف الطول وعلى سلمه من عيون الناس يا رب يسلمه
مكتوب المكتوب لشوقي يسلمه مكتوبك يا زين غير حالنا
ظريف الطول مر وما عليه غير الحطة والذوايب ما عليه
ظريف الطول يا أبو السن الضحوك ياللي رابي بدلال أمك وأبوك
وإن جانا الخبر يوم أنهم خطبوك شعر راسي شاب وظهيري انحنى»
ضحك بخشونة وهو يبعد وجهها عنه ثم يلامسها ويجتاحها من جديد مقبلًا ذلك العِرْق الذي ينبض في نحرها بجنون، وقال بصوت أجش مختنق بالعاطفة:
– لن ينحني ظهرك أبدًا ما دمتُ أنا معكِ، ولن ينتمي عيسى أيوب لامرأة غيركِ حبيبتي.
هذه المرة لم تجد جفرا غضاضة في أن تترك نفسها إليه كاملة، أن تمنحه بريق عينيها كما نفسها تحت ضوء القمر موشومة بالحبيب، لوقت سيطول للأبد.
بعد ستة أشهر...
كانت تتمشى في أنحاء السوق الشعبي للمدينة تحمل كاميرتها تلتقط بها ما تشاهده ثم تنشره على مدونة خاصة بها حملت اسم (حتى لا ننسى) توثق فيها كل ما عرفته، كل معلومة بحثت عنها بكل جد وإخلاص بعدما قرأت كتب التاريخ الذي لم يُزوَّر والمخطوطات الأثرية التي لم تلوثها اليد الهمجية أو الضمائر المتواطئة، لقد حُوربت عدة مرات، وبُلِّغ عنها، إلا أنها لم تيأس.. فالطريق الطويل ما زال في أوله، تحمل بداخلها جملة نطقها لها عيسى مرة واجمًا رغم اقتناعه الطفيف فيها:
– كلٌّ منا يحارب في سبيل القضية من منظوره.
البعض اختار التعايش واستمرار الحياة محافظًا على ثقافة شعبه، وفئة من الداخل ارتدَوا رداءً خادعًا للتطبيع رغم عملهم الخفي في دعم المناضلين وتهريب السلاح والتكنولوجيا إليهم سرًّا، وشعبة أخرى مثلها هي –جفرا– اختارت إعلاء اسم بلدها في كل صفحة إعلامية أو واجتماعية، لم تختَر فقط مقالات

سياسية أو تصحيح معلومات تاريخية بل أيضًا امتدت لتوثق العادات والتقاليد بصور الجدات اللاتي ما زلن يتمسكن بارتداء الثوب الفلسطيني مع طرحة بيضاء ويُعلقن على صدورهن بفخر مفتاح العودة، وصور لأطفال الحجر الذين ما زالوا يرجمون به كل جندي يدنس أرضهم، وأخرى لاشتباكات يومية عند الحواجز والنقاط العسكرية، والبعض منها لمدرس يزرع بذور حب الحياة والوطن في قلوب طلابه، كأحمد الذي وافق على مضض بعدما توسط لها عيسى ليسمح لها بأخذه مثالًا، وبالطبع حبيبها النجار الذي احتل معظم المدونة في أثناء عمله، لقد كتبت قصته الحزينة والدامية وما تعرض له هو وأخواته، فوثقتها دون ذكر اسمه بالطبع.

تركت كاميرتها قليلًا بعد أن اكتفت من تصوير المحال التجارية بمعروضاتها المتنوعة قاصدة التقاط وجوه البسطاء الضاحكة بكلماتهم اللطيفة، ثم دون أن تلتفت لرفيقتها كانت يدها تبحث عن بعض اللوز الذي اشترتاه لأكله والتسلية به في الطريق، ولكنها لم تجد إلا يد رفيقتها الفارغة التي دفعتها بنزق وهي تقول:

– لقد نفد، أكلته كله.

التفتت إليها سريعًا:

– أكلتِ كيلو جرامًا من اللوز وحدكِ يا شرهة؟

قلبت حدقتيها في علامة سخرية وقالت ببرود:

– لم يكن ذنبي يا عديمة التمييز، أنا أحمل طفلين وأجوع كثيرًا.

على مدار الأشهر الماضية علاقتهما توطدت حتى أصبحت أدق الأسرار لا تخفى بينهما كخبر حمل رفيدة بتوءمين، الذي لم يعرفه إلا المقربون فقط.

هتفت جفرا بغيظ:

– لا تضعي الذنب على الأطفال المساكين، أنتِ غول يأكل الأخضر واليابس، خافي على وزنكِ، لقد أصبحتِ كالفيل.

ارتفع حاجبا رُفيدة دهشة إلا أن الأمر لم يزعجها مطلقًا، فقالت بالبرود نفسه:

– تركنا الرشاقة لكِ، أحمد يحبني بكل حالاتي.

هزّت رأسها بيأس أن لا فائدة، وقالت:

– حسنًا سيدة حامل ومغرورة، هل يمكننا العودة الآن؟ لقد أطلنا.

جذب انتباه رُفيدة شيء ما، فلم تعِرها انتباهًا وهي تركض تقريبًا بما يسمح لها ثقل جسدها نحو واجهة إحدى المحال، ردت على سؤالها:

– ليس بعد، أرغب في شراء هذا الفستان.

قالت جفرا بقوة وهي تعترض طريقها:

– ارحمي نفسكِ والرجل المسكين، أنتِ لستِ شرهة طعام فقط بل ومجنونة شراء.

قالت ممتعضة:

– يزعجني دور ابنة الخالة هذا، هل تخافين على ماله؟

قالت بجفاء:

– بل رحمة بالمتسوقين ليجدوا شيئًا يشترونه بدل احتكاركِ كل الموديلات.

أبعدتها رُفيدة ودلفت إلى المكان، فاتبعتها على مضض قبل أن تراها تتوجه إلى ركن الأطفال ممسكة بلوزة لطيفة:

– ما رأيكِ بهذه؟

نظرت إليها بدهشة وهي تهمس ببهجة:

– هل أنتِ حامل بفتاتين؟

هزت رأسها نفيًا مجيبة بهدوء:

– أجهل ما أحمله، أحمد يصر أن يدعها مفاجأة لكلينا.

– تتمنين إذن؟

قالت نافية:

– لا، هذا من أجلكِ أنتِ.

فُرِدت يداها تلقائيًّا على بطنها تتلمسه بشرود وقالت:

– ما زال الوقت باكرًا، نحن لا نأخذ أي تدابير بالطبع ولكننا أيضًا لا نفكر في الأمر، ما زلنا في طور التعرف على طباع بعضنا.

انعقد حاجبا رُفيدة للحظة:

– تفكير جيد، إلا أنه محض هراء، المفضل عندي تربيتنا أطفالنا ونحن في مرحلة التعارف.

نظرت جفرا إليها بترفع قبل أن تقصفها بقولها مازحة:

– حبيبتي.. أطفالك كان يجب أن تكون أعمارهم الآن سبع سنوات، لا مجرد جنينين بعمر ستة أشهر، أنتِ لم يعد لديكِ وقت للتأجيل، فقد تأخرتِ بالفعل أما نحن...

لم تكمل جملتها فقد ضربتها رفيدة وهي تقول من بين أسنانها:

– ما الذي ورطني مع طويلة لسان مثلكِ؟

ارتدت للوراء ضاحكة ثم قالت بغرور:

– ومن هذا الذي لا يستطيع أن يحب جفرا؟ من لا يعشق جفرا فليشنق نفسه.

– هل يردد على مسامعكِ كثيرًا الغزل؟

رغم تلاعب نبراتها المرِحة شحب وجه جفرا لسبب غير معلوم وتهربت من النظر إليها.

تركت رُفيدة ما بيدها ثم أمسكتها وهما تخرجان من المكان؛ تبحث عن بعض الخصوصية حتى لا يسمعهما أحد عرضًا، وسألت بقلق:

– هل هناك مشكلة؟ ظننت أن كل شيء بخير بينكما.

احتد طيفٌ تمرد في عيني جفرا سريعًا ما خبأته وهي تزفر بحدة قبل أن تتكلم أخيرًا شادّة على كل كلمة تنطقها:

– بل أنا لم أقابل شخصًا في حياتي أحبني واحترمني وقدم لي ما يفوق طاقته مثله، كنان كان القرار الأوحد الصحيح، ربما ما زال البعض يشكك في قصتنا ويجزم بانتهائها قريبًا، ولكن ستبقى صامدة قوية وكأني أعرفه منذ ألف سنة.

ربتت رُفيدة على ظهرها بحنان ثم قالت برقة:

– أنا لا أظن بكما إلا كل خير.

عم صمت نسبي بينهما يملؤه الكثير من التوتر قبل أن تقول جفرا باهتزاز:

– هل يتسلل أحمد من فراشكِ فجرًا ويغيب طويلًا.. وعندما يعود يُصر على تجنب الأمر وعدم التفسير لكِ؟

تجمدت ملامح رُفيدة وسكن البرود تقاسيمها وهي تقول بحدة:

– تعنين هل يفعل مثل كنان؟

– نعم.

قالت رُفيدة بصرامة:

– أنتِ تعلمين أن هذا الأمر يجب أن لا يُناقَش بينكِ وبين نفسكِ، من مثلنا يا جفرا يتعامل معه كأنه مجرد خيال ليس له وجود، ليس حرصًا على كشف المستور فقط، وإنما حفاظًا على أنفسنا وأهلينا وأرواح أحبائنا.

امتلأت عيناها بالدموع لذهاب عقلها إلى أعظم خبايا النفس كاشفًا أبشع المخاوف، قالت بتقطع:

– لقد ظننت أنهما.. أعني...

أمسكت رُفيدة بكلتا كتفيها تجبرها على النظر إليها وقالت ببطء:

– هل ظننتِ أنه لكونه تعلق بكِ وتزوجكِ سيترك طريق الواجب؟

– لم أقصد المعنى، ولكن ما زلت لا أستوعب كيف يبني حياة ومستقبلًا معي يرسمه لمئة عام قادم، وكيف يلقي نفسه بالنار بطيب خاطر؟! أتريدين إقناعي بأنكِ لا تخافين من شبح النهاية المرعب الذي يعقب البدايات الجميلة؟

رغم تحليها بصمود ظاهره الجمود فإنها لم تسيطر على دموعها التي هبطت ولا صوتها المختنق:

– هذا ما نحن عليه يا جفرا، بكل بساطة ودون المبالغة في الكلمات، نحن نرغب في الحياة، نعشقها بكل مباهجها، وفي الدقيقة الأخرى تنادينا أرض الأحرار مستنجدة، فنلبي النداء.

كوّرت قبضتها تدب على صدرها قائلة بخفوت أجش:

– هذا يؤلم، من شدة الخوف والترقب.

جففت رُفيدة دمعها بكفها قبل أن تبتسم ببؤس:

– آمني بالله واقبلي الحياة بكل عثراتها، أحبي المكتوب ورحبي بالمحتوم، رب العباد لا يظلم أحدًا.

أخفضت رأسها بشجن:

– «اعتدنا» ستشرح كل شيء، أليس كذلك؟

قالت رُفيدة بقوة:

– اعتدنا.. اعتدنا الإيمان بالله.

****

صعد إيليا الدرجات الحجرية التي تزينت بالنجيل الأخضر وزهر الأقحوان وشقائق النعمان تزينًا طبيعيًّا دون تدخل يد بشرية في رعايتها.

فور اقتحامه المكان، قال لاهثًا:

– عذرًا للتأخير، احتجت وقتًا لتضليل أي عينٍ تتبعني.

هزّ عيسى رأسه بتفهم ململمًا بعض الخرائط أمامه متحركًا نحو زاوية مخفية يعرفها جيدًا، وبمساعدة أحمد وبعض أفراد الفدائيين كان يحرك حجرًا مختبئًا في جدار الجبل ليضع به تلك الخرائط يدسها بين صندوقين محفوظين بعناية، قال أخيرًا:

– لا بأس.. لم نتحدث بشيء جديد، التخطيط المعتاد لاقتراب الموعد.

لمعت عيناه لمعانًا مخيفًا وقال:

– نحن تأخرنا جدًّا في رد الضربة.

اعتدل عيسى ينفض يديه من التراب قائلًا بهدوء:

– نحن لا نرتب لأمر انتقامي، أو نخطط لأننا نشتهي سيل الدماء، بل ندافع عن أنفسنا ونخبر العالم بأننا ما زلنا هنا، على العهد باقون ولن نستسلم، ننسف حملاتهم الإعلانية التي تحاول إثبات تخاذلنا وقبولنا بالتعايش معهم، ونظهر الحقيقة المغيبة وهي أن الكيان مغتصب لحقوقنا»

حرك إيليا يده داخل شعره بعصبية وقال:

– أعرف، والمسيح أعرف.. ولكن النار تشتعل بصدري كلما أبصرت جنديًّا منهم يقف على الحواجز أو يدور مختالًا بسلاحه.

ربت عيسى على كتفه وقال:

– لا بأس، النصر سيأتي يومًا لا محالة، وستشرق شمس الصباح يومًا تعلن جلاء تلك الغمة التي طالت.

هز رأسه متفهمًا، ثم سأل:

– هل هناك شيء تريد مني معرفته وتنفيذه؟

تحرك عيسى خطوتين للأمام:

– عمرو سيمنحك ورقة أريد منك حفظها جيدًا ثم تحرقها كالعادة.

أومأ موافقًا ثم تحرك نحو عمرو يراقب بطرف عينه تسلُّل أحمد نحو عيسى ثم أخذه بحديث جانبي يتهامسان.

نظر أحمد إلى عيسى، وسأله بهدوء:

– أراك تستقصي حمزة منذ مدة، هل هناك شيء تريد إخباري به؟

نظر عيسى طويلًا نحو الطبيعة الساحرة التي تحتضن الجبل كفتاة تزهو بشموخ والدها، ثم قال بهدوء:

– إن أردتك إعلامك لكنت أخبرتكم جميعًا.

أظلمت عينا أحمد بالغل والقهر:

– منذ الليلة التي طاردونا فيها واصطادوا الشهيد أنس وأنا أشك، هناك خائن بيننا، فقد عملنا لشهور طويلة لننفذ تلك العملية ملحقين بهم الضرر، لقد كانت خطة دقيقة ومنظمة يستحيل كشفها.

ازداد التواء فم عيسى بقسوة:

– هناك خائن بالفعل، وعليك أن لا تتفاجأ، فقد رأينا بأعيننا من قبل من خان شرفه ودينه بالتآمر معهم قبل أن يبيع القضية.

حاوط أحمد رأسه بعصبية شاعرًا بطعنة كلمات عيسى وقال بارتجاف غاضب:

– صعب على نفسي أن أصدق بأن الطبيب حمزة رفيق الدراسة، صاحب النضال، والظهر الذي استندت إليه طويلًا، حمزة لن يهدر دماء أنس، ودماءنا جميعًا.

للحظات شعر عيسى بالإشفاق عليه، وبطعم كالعلقم يجرح عنقه، متواطئًا مع مشرط حاد يطعنه دون قدرة على إيقافه، همس دون توضيح.. فأحمد بالنهاية يستحق ولو بعض الإيحاء:

– لم نتجنب حمزة فقط هناك أيضًا من وثقنا فيه، إلا أنه لم يرتقِ لدرجة معرفة هذا المكان.

توتر فم أحمد وإدراكه حقيقة الأمر يضربه بقسوة إلا أن هذا الاستنتاج كان أهون عليه من الفهم الأول، قال:

– لو كان حمزة لقتلونا هنا منذ زمن، هل تقصد «نجيب»؟!

نظر عيسى إلى البعيد مقطبًا قائلًا بجمود:

– هذا أقصى ما أستطيع تفسيره يا أبا جراح، فلا تضغط لأنك تعرف بأني لن أبوح بأكثر مما أرغب.

أومأ بتفهم مغيرًا مجرى الحوار عندما قال بهدوء نسبي:

– ومصدر تلك الأسلحة الثقيلة؟ ألن يأتي اليوم الذي تخبرني فيه عن شريكك الآخر؟

ابتسم عيسى ببطء ثم قال بقوة:

– إن أخبرتك أنت بالذات يا أحمد لن يعجبك الأمر، وربما تتهمني بخيانتكم كل هذه المدة، وأنا من يفترض أنكم عينتموه قائدًا لكم ومنحتموني ثقتكم.

ساد الصمت عدة لحظات، ثم قال أحمد بجمود أشد قسوة من الصراخ:

– كنت أشك منذ البداية، ظهوره عدة مرات في أمور تخصك حتى وأنتما تدّعيان العداء، لم يكن مقنعًا لي.

التفت إليه عيسى دون أن يفقد هدوئه أو سلطته وقال:

– ومن أين تظنني أحضر السلاح؟ مَن هنا قادر على منحي تكنولوجيا متقدمة حد أننا نخترق شبكتهم الحامية؟

قال أحمد من بين أسنانه حريصًا على عدم إيصال صوته للرجال خلفه:

– ولم تجد غير هذا المُطبِّع؟

ظل عيسى ينظر إليه بقوة وكأنه عبر تلك النظرة المشحونة يخبره بكل شيء، يختطف كل المشاعر الثائرة فيهدئها، قال عيسى:

– عار عليك يا أحمد أن تكون أنت أول المتهمين لعرب الـ٤٨ بالتطبيع، فلولا هذه الفئة منا لكان اجتيح الأقصى منذ زمن وهدموه دون أن يقف لهم أحد، هؤلاء الرجال ضحوا مثلنا بأغلى ما يملكون، وما زالوا هم من يحمون بيت المقدس.

زفر أحمد متحركًا من مكانه يذرع الأرض بعصبية ثم توقف مميلًا إليه كتفه هادرًا بشرر:

– لا أعلم طبيعة حبك لهذا الرجل، خاصة مع وجود أختك معه وترتيب لقائك بها بسهولة.

قاطعه عيسى مهددًا وطفرت كل مشاعر الغيرة والجنون في عينيه:

– احترس لما تقوله!

قال أحمد بجمود دون أن يتزحزح من مكانه:

– حاشى لله إن أتيت بسيرة امرأة مهما كانت، لم أقصد أن أشير إلى أمر سيئ ولكن...

قال عيسى بظلمة:

– ولكن ماذا؟ تميم لا يعرفني من الأصل، نحن مجرد رفيقين لهدف واحد، كلانا وجد ما ينقصه في الآخر ويعجز عن تنفيذه، قبل شهور كان يجهل أهلي معتقدًا أني فقدتهم، لقد صُدم مثلك تمامًا عندما ألح بالتوضيح، وأنا أُجبِرت على إخباره قصتي كاملة.

لم يرد أحمد بشيء بل ظل واجمًا غاضبًا، حتى قال عيسى بنبرة يغلبها المنطق والتعقل علّها تزيح العصبية:

– كنا نحتاج إلى الدعم وهو وفَّره، الرجل يحارب من جهته وبما يناسبه، أتعلم بأنه يساعد بعض الأحزاب العسكرية أيضًا؟ أنا لا أدافع عنه يا أحمد، بل أومن بقول **رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»**.

ابتعد أحمد يقف على جرف الجبل:

– هذا كثير لأستوعبه، أحتاج إلى الوقت لأفهم وأربط الأمور، ولكن لماذا قررت الآن أن تخبرني بكل شيء فجأة؟

وقف عيسى بجانبه مكتِّفًا ذراعيه على صدره وقال بهدوء لم يُصِب أحمد إلا بالرعب:

– أنت الرجل الثاني، زعيم بالفطرة لا بديل...

نظر إليه أحمد بطرف عينه ثم قال بعصبية من بين ضروسه:

– إياك أن تجرؤ وتكملها.

وضّح عيسى برضا:

– الأمر بات مكشوفًا منذ أشهر، عزرا وضعني هدفًا وتحداني تحديًا لا دخل لصراعنا الأبدي فيه، بل الأمر أصبح ثأرًا شخصيًّا، والبقاء فينا لمن يضرب أولًا.

شنج أحمد رافضًا لهجته، غاضبًا مما يشير إليه هاتفًا:

– سيكون لنا الغلبة بإذن الله، سنفتك بذلك الطاغية قبل أن يثبت عليك شيئًا.

ظل عيسى ينظر إليه بهدوء شديد خالٍ من القلق، منزوع الغضب، ثم قال:

– إن أتاك حمزة ليشرح لك أمرًا اسمعه وحكِّم عقلك قبل أن تفور دماؤك، ووصيتي الوحيدة هي جفرا يا أحمد، سأكون أنانيًّا وأطلب منك أن لا تسمح لهم بلمسها وإن كلفك هذا حياتك.

******

شهقت بإثارة عندما شعرت بساعديه القويين يلتفان حول خصرها وبجسدها يرتفع ثم يحط فوق منضدة المطبخ الخشبية بعدما أدارها لتواجهه، تململت بين يديه معترضة متشبثة بغضبها منه:

– هذه الحركات الرومانسية السخيفة لن تجدي معي.

أسبل رموشه الداكنة يداري عنها النار السوداء التي تنهشه مجبرًا نفسه على الاسترخاء أمامها حتى لا يُشعرها بأي قلق يغمره وقال متسليًا:

– بعد العرض الذي رأيته الآن لا أعتقد أنه توجد رومانسية في الأرض قد تفلح معكِ.

ضيقت ما بين عينيها ثم قالت بعدم فهم:

– وما الذي رأيته؟

أدار كفه مشيرًا باختصار إلى ما يجري، فقد كان حاسوبها مفتوحًا على مدونتها، حيث كانت تكتب شيئًا لم تكمله بعدُ، وبجواره ألقت كاميراتها وتكومت حولها بعض الصور بإهمال، في حين كان على الموقد المطفأ أكثر من ثلاث طناجر، وقد أعدت وليمة.

قال لها:

– أنتِ تتصرفين وكأنكِ في بلد تسوده الحرية لا الغربان والفئران الذين قد يقتحمون المكان في أي لحظة.

أشارت بالملعقة الخشبية التي ما زالت في يدها ثم قالت بجدية:

– فليأتوا وليروا ما قد أفعله بهم قبل أن يفروا هاربين متوسلين الرحمة.

ضحك عيسى وهو يمد يده يتلمس وجنتها وصولًا إلى طرف فمها المتيبس بالتصميم:

– عرفتكِ ظبية إلا أني لم أتوقع تحوُّلكِ سريعًا إلى نمرة شرسة تهاجم مَن يقترب من عرينها.

– عندما يأسرني صقر في عشه ويعمل على تقويتي وتعليمي لأفرد جناحي تمهيدًا للحرية، لأحلق بهما دون خوف الوقوع في مصيدة الفئران، تكون هذه النتيجة الطبيعية.

نظر إلى وجهها متمعنًا في كل قطعة من ملامحها الناعمة قبل أن يرفع يده يمررها ليتحسس شعرها الأسود الذي استطال ولامس كتفيها، ثم لمس بظهر سبابته وجنتها من جديد، وأخرج من جيبه سلسلة من الفضة معلق فيها شيء خشبي وضعه حول عنقها، وقال:

– أصبحت لا أعلم مَن فينا الذي أسر الآخر يا ظبية، ولكني لم أعد أجد غضاضة إن كنتِ أنتِ من فعلها، وقد كنت أعتقد أن هذا مستحيل.

تلمست الدلاية الخشبية التي كانت على شكل خارطة فلسطين كاملة ملونة بألوان العلم.. نُقِش عليها اسم كل مدينة ومحافظة.

– أنت من صنعها؟

تمم تثبيتها حول عنقها وأمسكها بين يديه:

– استغرقت وقتًا أكثر من المعتاد لأنجزها، إلا أن فلسطين تستحق العمر وليس بضعة أشهر، أليس كذلك؟

نظرت دامعة العينين مرة أخرى لصنعها المبهر بتفاصيلها الصغيرة التي توحي بالجهد الذي بذله لتعبر بصدق عن كل ذرة من الوطن:

– تستحق، شكرًا يا عيسى.. هذه أغلى عندي من كل جواهر العالم.

قبّل فكها برقة وقال:

– كل ذرة فيها تساوي العالم كله.. وإن كانت متمثلة في مجسم صغير يا ظبية.

غطت يدها يده الممسكة بالدلاية التي كَتَبَ أحرفها بماء الذهب وسألته بخفوت:

– لماذا ظبية دائمًا، أليست مجرد كائن ضعيف يستسلم عند أول مواجهة مع عدوه؟

ابتسم لها بطريقته الجذابة قبل أن تنحدر يده نحو بطنها المسطح وتركها هناك للحظة قائلًا بصوت عميق:

– إن تغاضينا عن جمالها الآسر وقدها الرشيق وعينيها الساحرتين اللتين تخترقان القلب في وهلة.. فإن لديها أقدامًا قوية تمنعها من الغوص في الرمال المتحركة، لتبقى ثابتة شامخة مهما زاد هياجها، مقاومة ترفض الوقوع في الشرك قادرة على التخفي مهما كانت البيئة حولها والأهم...

صمت لوهلة أمام عينيها الواسعتين ويديها اللتين ارتفعتا ببطء تحاوطان فكه الصلب وذقنه النامي، همست بانبهار تحثه:

– والأهم، ما الذي يجذبك فيها؟

زادت يداه انكماشًا على بشرتها ورغم عنفها فإنها لم تشعر إلا بالحب والأمان مع هذا الرجل القوي:

– لا تقبل إلا بذكر واحد طوال حياتها، وإن منحها طفلًا فإنها تحميه بروحها وتحاوطه بدفئها.

همست باسمه كنغمة قبل أن تصدمه للحظة عندما وضعت شفتيها على شفتيه بلهفة يغلبها الارتباك والضعف.

حاوط خصرها مرة أخرى يضمها إليه بقوة، بتشدد، بجنون تثيره فيه، وعندما تحرك بها نحو غرفتهما كانت مقاومتها تنهار، وكل ما جهزاه لقوله تبدد، أما عن ذعرها أو قلقه.. فلم يعد له مكان، لقد كان آخر ما تتذكره جفرا هو همسها الحالم:

– قلبي قلبك وبنبضك أنا أحيا.

أما صوته الكثيف فقد كان يهدر في أذنيها بخشونة:

– وأنتِ تثيرين جنوني، تربكينني، وتضعفينني، حولتني إلى أناني فيكِ وأنا من اعتقدت أني قادر على التضحية بكل غالٍ وثمين، إلا عندما يصل الأمر إليك فأدرك أني عاجز عن التنازل.

****

عندما تسلل ضوء الفجر على استحياء من فتحات النافذة الخشبية، مبددًا شيئًا من ظلام الغرفة، دفع الضوء عيسى إلى الاستيقاظ كما اعتاد.. ولكن هذه المرة لم يتحرك من مكانه، وعلم من يديها التي تشبثت به ورأسها الذي ارتفع بلهفة لتتفحص وجوده أنها كانت تعرف كل شيء، تحس بكل ما يجري ولم تجرؤ على السؤال أبدًا:

– هل.. هل خروجك ضروري الآن؟

نظر إليها بعينيه اللتين لم يتبدد منهما النوم بعدُ، ثم قال بابتسامة كسولة عابثة:

– خطأ.. السؤال الصحيح: هل من الضرورة خروجنا معًا اليوم؟

أطلقت شهقة إثارة قافزة بنشاط بين ذراعيه تعتدل في نصف جلسة هاتفة:

– أوه، وأخيرًا رحلة شهر العسل المؤجلة.

استند إلى ذراعه يوازن جسده قائلًا:

– لن يكون شهرًا بالمعنى الحرفي.. بل خمس أو ست ساعات بالسيارة، آسف حبيبتي، لم أستطع الحصول على تصريح لنذهب إلى مكان ساحلي.

لم يستطع الحصول عليه، لأنهم ببساطة يضيقون الخناق عليهم بعامة.. والآن عليه بخاصة، فقد اقتحم عزرا ورشته وكسّر كل ما فيها عدة مرات، بذريعة البحث في كل أرجاء القرية عن أمرٍ يخفونه، أما عنها فإن عزرا لم يستطع بالأصل الاقتراب منذ زواجها من فلسطيني، في كل الأحوال هم يخافون من الاقتراب من العِرض حتى لا يثيروا الشعب لانتفاضة ثالثة يتمناها الفلسطينيون وتجعل بدن كل إسرائيلي ينتفض رعبًا.

مد عيسى يده نحو كتفها يلمسه بلطف:

– أين ذهبتِ؟ هل حزنتِ؟

هزَّت رأسها نفيًا:

– لا.. بالطبع لا، فكل دقيقة معك هي عمر بحاله.

– ما الذي أبعدكِ إذن، فأنتِ تبدين كمن سافر لأميال؟

أغمضت عينيها آخذة نفسًا عميقًا استعدادًا لما تنوي إخباره به، ثم عادت تتسطح بجانبه بعد أن فردت ذراعه بنوع من الخشونة لتضع رأسها عليه:

– احتضني.

أخذ نفسًا متزنًا محققًا لها ما رغبت فيه:

– أنتِ مجنونة، كلما وجدتُ طريقة للتعامل معكِ حتى تبهريني بحالة معتمة أخرى.

أمسكت جفرا كف يده ثم فردتها على معدتها بنوع من الجفاء قائلة بعبوس:

– أضف هذا لصفاتي: مجنونة، ومستفزة، وطويلة لسان، ومتهورة... امم وماذا أيضًا يا جفرا؟

صمتت لوهلة أمام ارتفاع حاجبيه اللذين خيِّل إليها أنهما لامسا جبهته تعجبًا ثم أضافت بصلابة وجفاء:

– حامل.

تيبس جسده كاملًا.. ولا إراديًا شعرت بتضييقه الخناق عليها ثم قفز تقريبًا من جانبها ينظر إليها بذهول كمن لم يكن يتوقع حدوث الخبر أبدًا، هتف لاهثًا:

- أنتِ ماذا؟

اعتدلت جفرا من مكانها وهي تحدق إليه بجفاء هاتفة بوقاحة:

- حامل، ماذا؟ هل هذه علامة صدمة أم أنك كنت تجهل أن ما نفعله بوصفنا زوجين سينتهي بحتمية زرع طفلك في أحشائي؟

ساد الصمت للحظات وهو ينظر إليها قبل أن يطلق تأوهًا طويلًا مختنقًا:

- يا وقحة، لولا ما قلتِه الآن لكنتُ أطعمتكِ ألواح الصابون قطعة قطعة.

ارتبكت وسكن لون الجوري وجهها أخيرًا:

- حسنًا، اقتراح جيد فأنا أشعر برغبة عمياء لأكل قطعة منه، ولكن بقايا عقلي وخوفي على ابنك يمنعانني.

ركع عيسى بجانب الفراش أمامها ثم أمسك يديها الاثنتين مكررًا بخشونة:

- حامل فعلًا، تحملين صبيًّا من صلبي، ابني.. بل ابننا معًا.. سأصبح أبًا.

- عندما أخبرتني رُفيدة عن الحماقة التي تفتعلونها عقب استقبالكم الخبر لم أصدقها، إن لم يجعلك هذا والدًا، ماذا تكون.. والدة مثلًا؟!

ضحك بقوة وخشونة هامسًا بجموح خافت:

- أعشقكِ يا مجنونة، لكني بصراحة أكره لسانكِ.

قالت بتسلٍّ:

- أتمنى من الله أن أحمل لك فتاة ترث لساني، حينها لن تملك خيارًا إلا حبها وأمها من قبلها.

تكللت ملامحه بالرفض:

- بل صبي إن شاء الله.

قالت بعناد:

- بل فتاة وسأسميها أي شيء حتى عفريتة، عدا لوح الثلج أختك لورين.

حدق إليها بتعجب قبل أن يضحك من جديد:

- هل ما زلتِ تغارين منها يا مجنونة؟

- نعم، أي امرأة قد تنافس حبي في قلبك أرغب في خنقها، والطريقة التي تتحدث بها عنها تثير جنون قلبي.

لمس وجنتها الساخنة هامسًا:

- إذن.. من الأفضل لكِ أن تنجبي صبيًّا.

امتعضت:

– حسنًا.. سجِّل رغباتك وأنا سأضعها في قائمة صنع الأطفال، يا حبيبتي يا رُفيدة.. كنتِ محقة في تحوله إلى أبله.

تغاضى عن سباب اعتاده وقال مدَّعيًا الحنق:

– هل عرفتْ قبلي؟

اقتربت منه تحاوط وجهه متنهدة هامسة بصوت أجش:

– لم أخبر حتى والدتي، هذا الخبر حصري لي ولك حتى ننقله معًا.

ابتسم بجموح، أنفاسه تحترق، قلبه يخفق، أما عن الظلال التي تكسو عقله فهو ببساطة نزعها في هذه اللحظة، لأنه اقتنع أن آخر ما يفعله الآن هو السعادة بمعرفته أن امرأته تحمل له ابنًا ستحميه بين الجفون، ستراعيه كما كان يرغب هو، سيرسله لوالده جزءًا من رد الدين والحفاظ على وعد توسَّلَه تحقيقه، سيرسل أملًا، هذا الطفل سيصبح لأبيه أملًا يتجدد ويبدد عنه اليأس الذي ملأ الصدور.

– ذكية يا أم الصبي.

همست:

– بل عاشقة يا والد الفتاة.

ترك يدها فجأة وابتعد عنها بجفاء ثم قال:

– علينا أن نحسم الجدال إذن.

قالت بعدم فهم:

– وكيف ستفعل؟ الحمل لم يكمل الشهرين، أنا لم أذهب إلى طبيبة بعدُ، فقط أجريت اختبارًا منزليًّا.

عاد إليها يمسك بين يديه خيطًا، ثم جعلها تتسطح على الفراش وكشف بشرتها أمام ذهولها:

– ماذا تفعل؟

التوى فكه ببطء فيما يشبه الابتسامة مجيبًا:

– حيلة شعبية، كنت أسمع من لورين أن الفتيات تفعلنها، تقلدن النساء ليعرفن ما جنس طفلهن الأول.

توقع أن تهتف في وجهه بسخف ما يقوم به.. إلا أنها صدمته ناطقة ببساطة شديدة كمن يخبره عن حالة الطقس:

– إذن لورين وقحة مثلي، الآن فهمت سر انجذابك لي للأسف.

هذه المرة كان عاجزًا عن القول، فاستمر في تمرير الخيط على بطنها:

– وكيف ستعلم؟

قال بتسلٍّ:

– سنعلق جزءًا من الخيط هكذا، إن دار في دوائر فهي فتاة، وإن انفرد متعرجًا فهو صبي، هكذا...

اعتدلت قليلًا تنظر إلى الخيط المتعرج الذي يستقر على جزء من بطنها، بعينين تلمعان، ثم بادلته النظر كألف نجمة، تتألق وهي تهتف بقوة تخللها وجع ضرب منتصف سعادتها على حين غرة:

– ليس مهمًّا جنسه يا عيسى، فكل ما يعصف بي الآن أني أحمل طفلنا الأول من بين العشرة الذين وعدتني بهم.

اقترب منها مرة أخرى ودون تفكير أو قول المزيد، كان يضمها إليه بقوة وعنف، بحب وبكل المشاعر الإنسانية التي قد تمر على إنسان في حياته كلها، كان عيسى يبثها دون قول كلمة واحدة، فقد تشبعت من دفئه.

*****

بعد قيادة دامت أربع ساعات أو أكثر تخللها الانبهار كالعادة.. بدأت تفهم جملتهم المختصرة التي لا يرددها الناس فقط بل الشعراء والزعماء عبر التاريخ:

– على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

فهي أرض تستحق أن تتشبع بدماء المناضلين، نعم ومليون نعم.. هي أرض تستوجب الدفاع المستميت، وإن طلب منها الآن توثيق ما شاهدته، وما علقت أنفاسها برائحته، فمؤكد أنها ستعجز عن الشرح.

فكيف لها أن تفسر رائحة بيارات البرتقال التي عبقت داخلها؟ من المستحيل يومًا أن تترك خيالها.

وكيف لها تفسير مرورهما العابر لبيت لحم، وشعورها العميق بروح المسيح التي رفرفت فوق رأسهما تحميهما؟ وإن فعلت هذا بمعجزة ما وصدقها أحد.. كيف تشرح تلك العظمة التي تخللت كيانها وهي تبصر شجرة الزيتون المعمرة هناك وقد تجاوز عمرها خمسة آلاف سنة؟

لقد سُحِرت، رُبِطت بشيء خيالي لن تفصل عنه أبدًا، امتزجت دماؤها –وإن لم تُرُق– بالتراب الأحمر، وكأنه لم يكفِها سلب عقلها وهي تقف على جبل تلك المغارة وتراقب الخضار المنتشر والطبيعة التي تأخذ العقل، إضافة إلى البحر الأبيض الذي لم يمنحها التحديق إليه إلا كل سلام وراحة نفسية.

أما رحلتها البسيطة وسط بدو الصحراء الذين أوقفوا السيارة وقدموا لهما الضيافة.. فكان لها سحر آخر وطمأنينة أخرى تأسر النفس وتستولي عليها كاملة.

قاطع أفكارها عيسى:

– ما رأيكِ؟ هل سدَّدت الرحلة بعضًا من ديون شهر العسل؟

ابتسمت قائلة بعجب:

– لقد سدَّدت أكثر مما تتخيل.

– ما رأيكِ فيما رأيتِ إذن؟

قالت بصدق وعيناها لم تغادر تأمُّل البلد الذي حباه الله بأشكال الطبيعة الخلابة والتضاريس المبهرة:

– بلد فيه كل الخير، كل جزء منه يعطيك لترضى عنه، التنوع الذي يسكنه يستحيل أن تجد مثله في أي بقعة على الأرض.

أمسك كفها مقبلًا إياها برفق:

– الآن أجزم أنكِ فهمتِ.

قالت بتلكؤ مشاغب:

– فهمت منذ أول مرة رأيتك فيها.

جرَّها وهو يقول بعبث:

– فهمتِ أي جزء؟

استدارت إليه تتأمله برقة ثم قالت:

– لن أقول كلامًا مبهرًا يزيد جذوة الوطنية، بل ما عرفته حينها أني وجدت الشخص المنشود، أنا لم أتمنَ رجلًا كاملًا أو مثاليًّا، لم أحلم ببطل غني أو فتاك الوسامة، كل ما حلمت به أن أجد رجلًا صادقًا ليطمئن قلبي حين أمنحه له، وهذا ما وجدته فيك.

داعب أرنبة أنفها بسبابته دون أن تحيد عيناه عن الطريق:

– أنتِ مُهلِكة للمشاعر يا ظبية، وأنا نجار بسيط لا قدرة لي على مجاراتك في الحديث.

تنهدت قبل أن تتمسك بأنامله تُقبِّل أطرافها دون تردد أو حرج، وقالت:

– ومَن أخبرك أني أرغب في سماع كلام لا يغني؟ يكفيني أنك تهتم بالتفاصيل، تحب تفاصيلي دون أن تسطو عليَّ أو تحاول تغييرها.. حتى السلبية منها، وماذا قد ترغب امرأة في رجلها أكثر من هذا؟

وقفت السيارة على جانب الطريق، ثم استدار نحوها يتأملها دون كلام، فالمشاعر بينهما واتحاد روحيهما وقلبيهما أبلغ من أي حروف تقال، أدار وجهها قائلًا:

– هل تحبين العنب؟

لم تُجِب، اكتفت بإطلاق شهقة إعجاب وانبهار بالأراضي الممتدة تحت سلاسل جبال خضراء مزروعة كلها بأنواع عنب لم تخطر على بالها يومًا، هبط عيسى من السيارة لبضع دقائق قبل أن يعود وفي كفيه عنقودا عنب، اقتطف حبة يمسحها بأصابعه ثم وضعها في فمها وهو يقول:

– أسميه سرًّا عنب الجنة.

لمع وجهها باستمتاع ناطقة بنهم:

– رائع.

أطعمها أخرى قبل أن يتذوقها بدوره وقال بشرود:

– رغبت لو أني أستطيع منحكِ شهرًا في كل مدينة على الأقل، حتى لا تنسي أبدًا وجوه أهلها أو طباعهم.

ابتسمت ابتسامة تخللها الانقباض والبؤس:

– سيأتي يوم نزورها معًا نحن وأطفالنا.

وضع ما في يده على منديل ورقي نظيف:

– أرغب في ضمكِ ولمسكِ مجددًا، ولكن أصحاب الأرض الذين منحونا العنب قد يلمحوننا، ووقتها سأحتاج إلى معجزة لأفهمهم أنكِ زوجتي قبل الخضوع لمجلس عشائري.

– الستر أفضل، تحرك هيا ودعنا نصل إلى وجهتنا، نحن لدينا وجهة أليس كذلك؟

التفت إليها يناظرها بهدوء رغم طعم العلقم الذي باغته، ثم قال كمن يطلق دعوة مذللة لربه وأمنية لم يعد يطلب سواها:

– أتمنى أن تكون لنا وجهة نرسو إليها أبد العمر يا أم الصبي.

لم ترد هذه المرة، بل كسا وجهها الوجوم والخوف، فهي ليست غبية، وفؤادها يستشعر الخطر الذي يقترب، فأصبح الهرب منه شيئًا مستحيلًا.

استمرت السيارة بالتحرك ساعات أخرى، سامحًا لها بتوثيق المزيد، أريحا مدينة القمر، نابلس جبل النار، جنين وأراضي الزيتون، السهول التي تعزف فيها سنابل القمح ألحانًا وكأنها تنادي الأحرار، تخبرهم بالسر العميق للحجر والصمود، وتقول لهم لا للاستسلام فما زلنا نغزل رايات النصر، وجبال القدس ورام الله وغزلانها التي تمشي بجانب السيارة متبخترة.

ضحكت جفرا بعينين دامعتين لم يفهم سرهما، فنظر إليها مستفسرًا، أشارت نحو السماء عبر النافذة:

– هناك صقر يحلق وغزلان لا تخاف من بطش صياد جاحد أو هجوم وحش، ألا يفكرك هذا بشيء؟

قال بملامح لم تخفِ الألم الذي يجتاحه عندما يتطرق لهذه النقطة:

– يذكرني بحمامات عيسى القديمة، ذاك الأخ الذي كان على استعداد لتقديم حياته لهن فداء.

همست بتصلب رافضة تصديق فكرة يزرعها فيها بكل إصرار:

– يومًا ما ستعود إليهن وتضمهن وتحميهن.

التمعت عيناه التي انحدرت نحو أحشائها قائلًا بقوة:

– نعم سيعود إليهن جزء من روحي يبدد كل يأس أو إحباط قد ملأ أرواحهن، سأفي بوعدي، وعهدي عبركما.

صمتت مجفلة ثم أمرته بتشدد تخالط مع نشيجها:

– توقف.. توقف.

لم يُجِبها.. فقد هبط من السيارة ثم استدار يساعدها للنزول أيضًا:

– أنا توقفت بالفعل، الرحلة انتهت هنا يا جفرا.

لماذا تشعر أنه يقصد معنى مخيفًا من جملته؟ أمسك كفها بيد من حديد قبل أن يجذبها نحو أطلال مليئة بالصبار بشكل يجلب الشجن والحزن، تاركًا لها حرية التحديق ببلاهة إلى البيوت الخالية من كل إنس أو جان، فقط نبات الصبار وآثار حريق يبدو أنه دمر هذا المكان منذ زمن، ولكن أثره الغاشم ما زال يصرخ بخِسة ما حدث فيه.

انتهت خطواته أخيرًا أمام منزل حُفِر بأحضان الجبل ووُضِع عليه بوابة كبيرة جدًّا.. إلا أنها محطمة تخبر عن عدوان طالها، يحيطها ويحفظ تماسكها النبات الأخضر الذي تخلل جوانبها وسكن هيئتها، دخلت بحرص وتركها تقف في المنتصف، تحركت جفرا قليلًا داخل المكان تتابعها عينا زوجها الذي ثبت مكانه أمام أحجار كأنها قبر أُقيم حديثًا لشخص ما.

درست عيناها المنزل المنهوب.. فرن بلدي ما زالت أدواته معلقة جانبه، آثار قمح وشعير وبعض الثمار، أوانٍ أكلها الصدأ، وملابس عدة بعضها محترق وبعضها ينطق بفقدانه أهلًا تركوه مجبرين على عجل، بشفتين مرتعشتين استدارت تحدق إليه بذهول:

– ما هذا يا عيسى؟

جلس على ساقيه يعبث في تراب القبر بشرود:

– بيت جدي وجد جدي، وأسلافه من زمن بعيد، حفره جدي الأكبر كما ترين في حضن الجبل، وتوارثناه جيلًا بعد جيل حتى انتهت إليَّ ملكيته، ملكية لا أملك زمامها يا جفرا رغم الطابو العثماني الذي منحه جدي لي ولم يفارق جيبي يومًا.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتقدم لتجلس بجانبه مفترشة الأرض، ثم أراحت رأسها على كتفه وكأنها ستزيح عنه الوجع الذي تلمسه بكل ذرة من كيانه، ستبدد عنه وهن الظلم الذي عاشه:

– هذا قبره إذن؟

ضمَّها بذراعه بقوة وحزم يقربها إليه وكأنه يريد امتزاجها معه فتصبح جزءًا منه لا ينفصل أبدًا ولا يتركه يومًا ليحملها معه في كل خطوة يخطوها دون خوف من شبح الفراق، ضبط أنفاسه قبل أن يقول بصوت احتله الوجع:

– عندما عدت إلى هنا لأول مرة.. أخبرني تميم وحذرني من عدم زيارتي له أبدًا حتى لا ألفت الأعين لي، لكني لم أستطع مقاومة حدة مشاعري التي تخبرني أن جدي ما زال هنا ينتظرني بمعجزة.

ارتعشت وهي على صدره رافعة وجهها الباكي حزنًا عليه، أكمل والنيران التي رآها تضرم في جده وفي بلدته تنعكس داخل عينيه:

– لم أعلم أنه يعرف بأن بلدتي مهجورة، يبدو أنه أشفق عليَّ من رؤية الخراب الذي حل بها، فرغم هجوم الصهاينة علينا وإبادتنا لم يستطيعوا وضع يدهم عليها، وكأن أشباح الأحرار البواسل حالت بينهم وبين ذلك الحلم الغاشم، فحمتها من تدنيسهم.

– عدت لتمنحه لحدًا يليق به وصلاة أخيرة إذن؟

أغلق عينيه ويده تأخذ أحد أحجار القبر يقبله بقدسية قبل أن يعيده:

– لم أجد جسده الطاهر طبعًا.. ولا بقاياه، مؤكد أن أهل القرى المجاورة قدِموا إلى هنا وشيَّعوا جثمانه مع باقي الشهداء، إلا أني وجدت بقايا ملابسه وكوفيته وحفظت مكان موته في ذاكرتي جيدًا، فأقمت لكل أقداسه هذا القبر، وأقسمت بعدها أني لن أهدأ حتى آخذ ثأره منهم جميعًا، وإن تخليت عن حلم آخر بلقاء أخواتي.

صمت لوهلة مبتلعًا ريقه ثم أكمل:

– هنا دُفِن عيسى أيوب إلى الأبد، حتى أتيتِ أنتِ وأخرجتِه عنوة ومنحتِه حقه في الحياة حتى لو لبضع أشهر يا جفرا الوطن الحق.

لوت قماش قميصه بين أصابعها وانهارت في بكاء خافت ناعم والأفكار التي تسكنها تلهو بها كالدمية حتى قالت بتقطع متوسل حزين:

– لا تتركني، إياك أن تجرؤ وتتخلى عن حلمي فيك أرجوك.. أرجوك.

فرد يده الأخرى على أحشائها بتملك، وقد تحكم فيه شعور مهدد بأن يلمسها.. أن يأخذ قطعة من روحها ويحفظها بين أضلعه، يشاطرها جزءًا من روحه، احتضنتها ذراعه الأخرى بقسوة أكبر وجنون، في حين كانت الآه التي انطلقت منه أشبه بهزيم قطرات المطر:

– أنا دائمًا سأكون معكِ، روحي تنمو بداخلكِ وقلبي سيرفرف حولكِ أينما كنت ومهما ابتعدت.

****

كان الليل قد انتصف يسدل ظلامه على الطرقات بين المدن والحدود المقامة، يستر بعتمته الظلال السوداء لرجال اختاروا الجهاد طريقًا دون الانتماء لأي حزب سياسي أو حركات جهادية.

كان العمل متكتمًا ومبتكرًا رغم جهده، حفر في باطن الأرض عميقًا وزرع لغمًا واحدًا آخِر الطريق، مربوط بعبوات ناسفة على طول كيلو متر من الطريق المتعرج، ذلك الطريق الذي راقبوا فيه لشهور عدة سلوك الجند عند حراستهم سيارة المستوطنين التي تتنقل لتستبيح الأراضي ليختاروا منها الأرض التي تقع أعينهم عليها، أو ربما حجتهم بوجود أضرحة يجب زياراتها كالمقام الإبراهيمي وقبر سيدنا يوسف، أو حتى النقب الذي يدَّعون أنه كان عاصمة الحكم في العهد اليهودي، وفي العادة يمرون منها لاستبدال الجنود عند كل حاجز أو نقطة عسكرية.

رتبوا للعملية طويلًا، وعهدهم لأنفسهم أن يعودوا منها سالمين لأهليهم، لا.. لم يكن الرجال يفكرون في الموت وإن طلبوا الشهادة، تراجع الجميع مُنتهين من عملهم بخفة، تحركوا مثل الأشباح حتى لا تبصرهم عين أو رادارات عسكرية مراقبة.

كانوا يختبئون في خنادق أرضية مغطاة بالحشائش لإتمام العملية، أحمد يجاور عيسى في هذه الحفرة الضيقة، لذا همس أحمد لعيسى باقتضاب:

- حمزة؟!

رد عيسى بنبرته ذاتها:

- لديه نصيبه، والجزء الأهم من العملية.

الخطة تقتضي التعتيم على أمره، ثم كشف هذا الخائن الذي عرفوه ثم تنفيذ شرع الله فيه، كما اعتادوا عند كشف أي ضعيف نفسٍ بينهم، غيّم الصمت والترقب يصحبهما التوتر وتشنج الأجساد القلقة.

وكانت على مقربة منهم سيارات الكيان تقترب كما خططوا بالضبط.

*****

عبر جهاز إرسال يدوي صنعوه حتى لا تلتقطه أجهزة العدو كان إيليا يهمس:

- الآن نبدأ.

رد عيسى عبر الجهاز:

- انتظر حتى تصل أول ناقلاتهم إلى آخر لغم وسينفجر كل شيء بتسلسل.

مرت دقيقة وحدث انفجار قوي زلزل الأرض من تحت أقدامهم رغم عمق حفرة اختبائهم.

فوضى.. ما حدث بعد ذلك فوضى، صراخ، وقد دب في قلوبهم الذعر، السيارات الخلفية يهرب منها الكثيرون دون أن تتوقف، النار تنفجر بتتابع حتى أُشعِلت الأرض القاحلة، وأُنيرت السماء التي لم يُنِرها القمر.

غبار ودمار ورائحة لحم يحترق، تُذَكِّر عينَي الصقر الذي يشاهد ما يحدث ظافرًا بنصره في مشهد مماثل كانوا قد حصدوا فيه العُزَّل بكل خِسة.

- لا تتوقفي، حوِّليهم إلى رماد، أخبري العالم بأننا هنا، ما زلنا نقاوم.. لم ولن نستسلم، ذكريهم أن كل روح بطل وشهيد تنتقل عبر الأجيال لتناضل من جديد.

ازداد الصراخ والهرج، والموت أصبح في كل مكان، في حين كانت صفارات الإنذار تدوي مزلزلة الأجواء كما الانفجار الذي يعقبه انفجار آخر حتى أتى عليهم جميعًا.

انطلق رصاص الصهاينة بغوغائية وعبثية دون أن يروا أحدًا منهم، أما المجاهدون فقد أُجبِروا صاغرين أن يتقوقعوا في هذه الحفر حتى يمروا واحدًا تلو الآخر عبر نفق يخرجهم أمام الجبل قبل أن يفيق الصهاينة من فاجعتهم وينبشوا الدنيا عليهم، قبل أن يتحرك.. أخرج رأسه ليلقي نظرة أخيرة عبر عدساته المكبرة

فشاهد آثار تفجيره أكثر من خمسين جنديًّا وعشرين مستوطنًا، إلا أن رأس الأفعى ما زال هناك، ملقًى على الأرض بعيدًا مغبرًا وبقايا نار تمسك فيه يحترق وينزف، حدَّق عيسى إلى الانفجار وإلى جنود عزرا الأموات بانتشاء، وكأن الموت منحه تذكرة يانصيب كبرى لسفك المزيد في عملية انتقامية، يتشمم بأنفه رائحة الحريق والرماد وكأنه مخمور برائحة اللحم المحترق.

الفصل السادس

لا تسـكـرُوا بالنصـرْ
إذا قـتـلـتُـمْ خـالـدًا
فسـوف يـأتي عَـمْـرو
وإن سـحـقـتُـمْ وردةً
فسوفَ يبقـى العـطـرْ
لأنَّ موسى قُطعتْ يداهْ
ولم يعُدْ يُتقنُ فنَّ السِحرْ
لأنَّ موسى كُسِرتْ عصاهْ
ولـم يعُـدْ بوسـعه..
شَـقُّ مياه البحـرْ..
لأنَّكـم.. لستُمْ كـأمْريكا
ولسنا كالهنـود الحُـمـرْ
فسوفَ تهلكونَ عن آخركم..
فوقَ صحاري مِصرْ..

نزار قباني

*****

عندما خططوا لهذه العملية كانوا يعلمون جيدًا كيف سيكون رد الفعل، الجنون بعينه ضرب في القدم الهمجية التي لا يردعها رادع ولا يقف في وجهها معاهدات أو قوانين، فقد دخلوا القرى من جديد، اجتاحوا البيوت، أحرقوا الأراضي، سحقوا كل ما يطالونه، وحلت سُحب الدمار معتِّمة شمس النهار، وناح الغراب مرفرفًا بسواده على قلوب العباد.

القدر كلمة سر في قاموس صمود طويل، والشهادة حق كُتِب مع كل روح خلقت فوق التراب، أما عن الفراق فلم يكن قط مسعى.. ورغم هذا هو حق يزحف بمرارته محتلًا الصدور.

مرت اثنتا عشرة ساعة الآن ولم تعرف فيها عنه شيئًا، لقد اختفى هو وأحمد ورفاقهم على غير المعتاد ودون سبب واضح، فقد بلَّغ عنهم شخص يعرفونه ويعرف هو أين مكان كل واحد منهم فردًا فردًا، وقد أعطى قيادات المحتل أسماءهم، لقد حاوطوا منزلهم الصغير وعاثوا فيه فسادًا، دمروا ورشة عيسى وهدموا

منزلها السعيد، بيتها الذي ظنت جفرا أنه موطنها الدائم، لكن لا بأس.. ما زال الأمل يجري في عروقها وتضرعها لله لم ينقطع.

- جفرا.

رفعت جفرا عينيها باهتزاز من الركن الصغير الذي احتمت به داخل بيت ابن عم والدتها، كما أمرها عيسى الليلة السابقة أن تلجأ إليه وأن لا تخرج منه حتى يخبرها هو أو يرسل إليها أحدًا من طرفه.

- ما زلتِ هنا؟

جلست رندة جوارها تنظر إليها نظرات تنبئ بالألم، همست جفرا بعذاب:

- إن فقدته سأضيع يا أمي.

اغرورقت عينا رندة بالدموع تضمها إليها أكثر، وحروفها تتوه، قالت بحرقة:

- هذا الطريق اخترتِه وأنتِ تعلمين أين سينتهي، والآن ما عليكِ إلا التصرف كزوجة لبطل.

هزت رأسها بصعوبة هاتفة بتهور مجنون:

- أنا لا أريد بطلًا، أريد زوجي، أريد والد ابني، أن يبقى معي للأبد.

بهتت رندة كمن تلقى خبرًا قاسيًا لم تتمنَه:

- هل أنتِ حامل بطفل؟ جازفتِ للنهاية بطفل تعلمين أين سينتهي مصير والده؟ هل أوصلكِ غباؤكِ إلى أنه سيُفلت منهم؟ لا أحد يفلت من بين أيديهم، لا أحد يا جفرا.

رغم الهستيريا التي تلبست والدتها كما الخوف الرهيب الذي خيَّم على جدران منزل يتوقعون أن يجتاحه الأوغاد في أي لحظة.. كانت جفرا قادرة على سماع دوي نبضات قلبها العنيف حتى ظنت بأن جميع من يحاوطونها قادرين على سماعه، همست أخيرًا بشراسة:

- كنان سينجو، ظريف الطول سيفعل.

أُسدِلت غلالة ضبابية على حواس رندة، هاتفة بجمود سوداوي:

- ظننتكِ أذكى من أن تصدقي أسطورةً نُصبِّر بها بعضنا ونجدد الأمل بها، ندفعها داخل عروق أبنائنا، ظريفكِ هذا إما استشهد وإما أُسِر وعُتِّم على خبر تصفيته كما فعلوا مع كل الأبطال مثله.

قست عيناها وأظلم بريقهما مرددة من بين أسنانها بفقدان سيطرة:

- لا.. لا لن أومن أبدًا بفقدان الأمل مثلكِ فأصبح عمياء بصيرة مدت يدها وساعدت أفعى سامة يومًا دون أن تميز أنها ستكبر لتلدغها هي وأحباءها.

اصفر وجهها صارخة:

- ماذا تعنين؟

إلا أن صوت الطلقات النارية والصراخ ورائحة الموت التي أسدلت الستارة توَّهت شهقة الاعتراف من شفتي جفرا.

وعلى بعد زقاقين وداخل بيت إيليا المكون من خمسة طوابق يسكنها أُسَر مسلمة ومسيحية توحدوا في كره عدو واحد وتضامنوا بحب والإخلاص لأرض واحدة، كانت هناك أقدام همجية تحبط كل تمرد للأحرار، تحاصر القرية وتسد مداخلها بالدبابات والجنود، تحتجز أكثر من أربعين روحًا مهددين بقتلهم جميعًا إن لم يظهر «المخربون، القتلة» ليدفعوا ثمن جرمهم.

إلا أنه لم يظهر أحد حتى الآن.. والأهالي إن فقدوا أرواحهم فلن يطالبوهم بالظهور وأصواتهم تعلو بأسمائهم يهتفون ببطولاتهم مهللين لحصدهم أرواح أكثر من خمسين جنديًّا وثلاثة عشر جريحًا، بل يطالبونهم بعدم الالتفات إليهم وأن يستمروا في جهادهم حتى يقضوا على آخر واحد فيهم، ولكن من قال إن الأحرار قد يهربون ويتركون وراءهم أرواحًا بريئة تعاني؟ هم كانوا هناك يستترون داخل أحد المباني المهدمة التي فرغ منها العدو لتوه يحتمون داخل الجدران بأسلحتهم ينتظرون فرصة مناسبة للاشتباك ويدحرون عدوهم ويطردونه بشروره بعيدًا عن سكان قريتهم.

قال أحمد بغضب وعيناه تشتعلان بنار سقر.. في حين جسده يتحفز رغبة في القتال وتفريغ كامل رصاصه في صدروهم:

– حتى الآن يهددون ويأسرون المراهقين والأطفال.

أمسك عيسى بذراعه يثبته مكانه حتى لا يشب برأسه ويلمحه أحدهم من مكانه الخفي:

– سنشتبك عندما يحين الوقت، لن نضحي الآن بأنفسنا وهم يفوقوننا عددًا وعُدة، لن ننفع أهلينا بشيء إن متنا.

تشبث أحمد بسلاحه بقوة ونظراته يمتزج فيها مزيد من الغضب، الثورة، والخوف على حبيبته، التي اقتحموا منزلها ينادون باسمها كاملًا ويطالبون به هو.. إلا أنهم لم يأخذوها كما توقع بل أبقوها فخًّا يصطادونه بها، توءم روحه المحاربة، تُرى ما الذي تعانيه الآن؟ هل تعلم أنه بالخارج يحرسها كما هم يحاوطون منزله؟ فقط لو كانت استمعت لكلامه وذهبت إلى منزل والديها لتبقى على الأقل في حماية أبيها وإخوتها.

لم يطُل تفكيره ولم يمهلوه المزيد.. فبعد وقت ليس بطويل كان يهبط من عربة رباعية الدفع الكابتن عزرا يبتسم بطريقة مخيفة يتنفس بانتشاء رغم الإصابة التي لحقت به فإنه كان يقف جامحًا، عيناه تدوران بتشفٍّ، لقد بدا غريبًا مجذوبًا متوعدًا يكاد لا يطيق صبرًا حتى يفتك بضحايا جدد.

أخرج مكبر صوت من السيارة مخاطبًا إياهم بهسيس:

– أعرف أنك هنا، كما أني علمت الآن بهويتك وكشفت كل أوراقك، الخثالة الانتحاريون الذين معك لا يهمونني، سلم نفسك لتتلقى جزاءَ إرهابي مثلك ووقتها فقط قد أرحم هؤلاء ولا أضرم فيهم النيران

لأمحوهم من أرض إسرائيل إلى الأبد، أمهلك خمس دقائق فقط وبعدها لن أبقي على أحد، قبل أن أذهب وأحرر «امرأتك اللطيفة».

اتقدت عينا عيسى بجحيم لا أحد قَدِر على إطفائه، وأمسك به أحمد الذي -كان يشتعل منذ دقائق- بقوة محاولًا جعله يثبُت ولا يكشف عن مكانهم، إلا أن النذل لم يمنحهم التفكير بالأساس ولم يصبر لخمس ثوانٍ عندما أشار إلى أحد جنوده مفرقعًا بإصبعيه.

وخلال لحظات كان الجنود يخلون هذا المنزل الذي يطوقونه ويغلقون على كل أُسْرة باب شقتهم بالأقفال ثم يضرمون فيه النيران بعد أن أغرقوه بالمواد المشتعلة.

كل شيء كان يحدث في ثوانٍ معدودة، ثوانٍ هي كل ما يفصل بين الواقع والسراب، ثوانٍ تشل تفكيرك، تربك ميزانك بين سعيك للبقاء ليس لشيء إلا للاستمرار في رفع علم أرضك لإبقاء صوتك حرًّا يدوي بشعار تحمله على كتفيك «نحن هنا لم نسلم.. هنا فلسطين أرض الحرية، أرض الشرف.. وطن الأحرار.. هنا فلسطين التي لم ولن تسلم أبدًا.. هنا شعب يحب الحياة كما رغبته في الموت بسبيل أن يبقى شعبها حيًا»، وبين أن تنقذ أرواح محبيك مضحيًا بنفسك ومن معك.

هي ثوانٍ معدودة تلك التي يستطيع فيها كل شخص إثبات ما توسمه فيه أحبابه، موقف حُر لتثبت محارِبة وأخت رجال بأنها تناضل في قضية تضحي بأغلى ما تملك كما شبابهم ورجالهم، خرجت محاربته من بيته غير عابئة بالرصاص، لا تبالي بالتهديد، لتحرق ذلك الكيان الغاصب.. تلقي في قلبه الرعب، فيختبئون وراء سلاح غاشم خوفًا، ويرتجفون وراء دبابة ذعرًا من مجرد امرأة تمسك حجرًا، امرأة تهرول حافية القدمين، تزرع بخطاها الأرض وردًا روي من دماء الأحرار، مجرد شابة تنوي عدم الانصياع، شابة تحمل طفليه في أحشائها وحجرًا في يدها وعزيمة لا تنضب فوق كتفيها، وكما هو واضح بأنها ستحرر صرخات المستنجدين من نيران ستلتهمهم أحياءً.

يصرخ أحد جنودهم:

- عودي يا امرأة إلى مسكنك.

لكنها لم تستمع بل كادت تصل إلى ذلك المنزل ترميهم بحجرها وعزيمتها التي لا تنقطع، في حين كان الخسيس يأمر بهسيس أفعى:

- اقتلها.. امرأة مجرم ومجرمة تحمل أجيالًا من الهمج.

وفي لحظة خاطفة أخرى كان أحمد يقفز من مكانه، عندما رآها لم يفكر إلا في حمايتها، فنزفت دماؤه في سبيلها، يُهرع إليها، يلتقيها في منتصف الطريق فيحميها بجسده، بروحه وقلبه من رصاص غادر لا يعرف رحمة ولا ينصاع لقوانين أو دين.

وسقط الحجر من يد رفيدة واحتل العينين الغاضبتين الذعر الخالص، وثار كلها ليمتزج في كله فتكتمل بتوحدهما الأزلي، هتفت ثائرة:

– ما الذي تفعله؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ اهرب.. اهر..ب.

ولكن الأمر لم يكتمل والحلم الجميل تحول إلى كابوس، ورصاص المعتدي يخترق ظهر الحبيب، فيزيد ضمه لها يحميها ضاحكًا مستبشرًا:

– أخبرتكِ أنكِ زلمتي.. ربما الآن تستوعبينها.

ضرب صوت وابل من الرصاص من كل جانب يمر من جانبهما ومن فوقهما فيجذبها نحوه أكثر.. يخفيها بين الجفون بجنون، لا يتركها ولا يسمح للجسد الذي اخترقته رصاصة في ذراعه، وأخرى في قدمه، تلحقها أخرى في ظهره، أن ينزاح عنها حتى يطمئن أنه حماها خلف جدار لا يطالها رصاصهم، ثم انهار الجبل وسقط جدار حمايتها سقوطًا مدويًا رهيبًا وموجعًا حد أنها لم تسمع غيره وسط الاشتباكات.. بدأ الاحتراق يسكن عينيها والفم يهتف مرتجفًا بذعر خالص:

– أحمد لا تتركني.. أجبني.. أنت بخير.. لم يطالك أذاهم.

كان في سقوطه يأخذها معه لتجلس على ركبتيها رأسه يستند هناك في حين كان جسده غارقًا في دمائه ويده الحبيبة مغطاة بالرائحة العطرة لدمائه الزكية رافعًا إياها يمسد على وجنتها يخبرها بقوة مطمئنًا لآخر نفس فيه:

– دائمًا معكِ.. سأكون بجانبكِ مهما كانت كلمة القدر.

رمقته من بين رموشها بنظرة جعلت قلبه يخفق ألمًا وحبًا وليس وجعًا مما اخترق بدنه إلا أن الدموع لم تطرق بابها.. بل كانت تنظر إليه فاقدة الأنفاس، تنازع الحياة، يداها تحاوط وجهه.. ترفعه إليها بإصرار وهي تهتف بجنون:

– هذا كابوس.. أخبرني أن أستيقظ الآن.. ضمني إليك.. لقد وعدت.. وعدت.

النَفَس يضيق، والنبرة تضيع، وملك الموت يحلق مطالبًا بأخذ أمانته وتخليد اسمه في منزلة الشهداء، يده تنحدر لتبقى هناك على صغيريه، تكلم بصوت خشن متقطع في إثر تسليم الروح لبارئها:

– وأنا على العهد.. أخبريهم كما تعاهدنا بأني وفيت بالوعد وأحببتك كأرض، وأحببتها كحياة.. إنما أنا ابن العظيمة فلسطين أحبها نيابة عن كل من باعوها.

ثم توقفت الأنفاس وغادر الحبيب الأرض التي رُويت بدماء أبنائها من جديد وكأنها لا تشبع من دماء أحرارها.

وبقيت رفيدة مصدومة مذهولة جامدة ترفض التصديق، تضم رأسه إلى حركة جنينيها اللذين يضربان منفعلين صارخين رافضين مغادرة أبيهما الحياة قبل أن يحظيا بحنانه، قبل أن يلمسهما بيديه ويكبر في آذانهما، قبل أن يمنحهما حقوقهما ويفرح بهما كأي إنسان على وجه الأرض.

ازداد إطلاق الرصاص فوق رأسها، الاشتباك بين رفاقه الذين خرجوا من مكانهم ينوون الفتك وأخذ ثأر رفيقهم من جهة والجنود الجبناء من جهة أخرى.

إلا أنها لا تشعر ولا تحس ولا تسمع، فقط كل ما يدور في عقلها المصدوم أنه كابوس.. كابوس بشع توقن أنها لن تفيق منه، وقد فقدت مُنقذها للتو، الدموع جفت والنواح نضب، وكل ما تفعله يديها هو أنها تربت على وجهه، تمر على تفاصيله، شفتاها الباهتتان تهمس بنبرة بعيدة سحيقة، وعيناها تبصران الجسد المسجى والبارودة التي لم تسقط من يده بعد.

مع السلامة وين رايح

مع السلامة يا مسك فايح

مع السلامة وين بدك؟

لأقعد على دربك.. وأردك

طلت البارودة والسبع ما طل

يا بوز البارودة من دمه مبتل

طلت البارودة والسبع ما أجاش

يا بوز البارودة من دمه مرتاش

ما بيني وبينك سلسلة ووادي

وين رحت غادي يا أعز أحبابي؟

حمرة يا أصيلة وين رحتي فيه؟

بباب السرايا علميني.. تركتيه؟

وكأن الرجال أُضرِم فيهم الجنون، وغطت دموعهم الأحداق نعيًا لفراق الصديق، يشتبكون معهم فور أن رأوا زوجته تهرع للنجدة وقفز هو أيضًا ملبيًا نداءها، كانوا هم ينتفضون محاولين حمايتها.. مانعين عنه وعنها رصاص العدو إلا أن شيئًا لم يفلح، ربما تبادُل النار أسفر عن سقوط بعض جنودهم وأصيب أكثرهم بسبب تميُّز عيسى عليهم بمكانه المرتفع، إلا أن هذا لم يمنع استشهاد أحمد الذي أصبح واقعًا، وسقوط عمرو الفتى جانب عيسى بعد أن طالته نيرانهم، وبهاء وعلاء وغانم، ولم يبقَ بين جدران هذا المكان المتهدم إلا عيسى وإيليا وحمزة.

عيسى الذي كان يضرب بجنون وبصدر عارٍ غير عابئ بالنتائج، عيسى الذي فقد في هذه اللحظة كل حنكته، كل تخطيطه ولم يبقَ إلا صرخات تنعى الرفيق.. وعقل محجوب تمامًا بالصدمة والحزن الطاغي، لا يرغب بشيء إلا الانتقام هاتفًا بصوت جهوري متوعد:

– ثأر أحمد لن يكفيني فيه ألف منهم، مقابل أحمد سنأخذ ألفًا من جنودهم.

الآن تحولت الساحة القتالية لأناس يخرجون من منازلهم، لشبان غير عابئين بمصيرهم، لشيوخ يلوحون بعصيهم، بهتافهم الذي يدب في القلوب الرعب، وبالحجر الذي يجعلهم يفرون كالضباع الضالة وكأنهم يواجهون سلاحًا فتاكًا لم يُختَرَع مثله قط:

– الله أكبر.. النصر لنا.. القدس لنا.. يا شهيد ارتاح ارتاح واحنا نواصل الكفاح.

ورغم عتادهم ورغم رصاصهم الذي يضرب دون تمييز فإنهم كانوا يتراجعون خوفًا، يهربون من أمام الحشود، ثم اقتحم بعض الشبان ذلك المنزل المحترق يحاولون إنقاذ ساكنيه.

يدفع حمزة عيسى ويصر إيليا أن يجعله يتراجع، هذه اللحظة الوحيدة المتاحة للفرار، يجب أن يستغلوها، يجب أن يدفع أحفاد الخنازير الثمن داخل مدنهم، ووراء جدارهم، وفوق الأرض المحتلة بداخل تل أبيب.

إلا أنه رفض بجنون، يرصد ويطلق الرصاص هنا وهناك، يتحرك في كل جانب حتى اعتقد عزرا وجنوده أن من يواجهونه ليس شخصًا أو اثنين بل جيشًا كاملًا يسكن ذلك المكان، حاولوا حصارهم، طوقوهم من كل جانب، ولكن كل القرى التي خرجت كاملة تدافع وتثور وتنتفض حالت بينهم وبين المستحيل.

صرخ عيسى بجحيمه، بناره التي تأكله من الداخل كما الخارج:

– لن أترك مكاني إلا ورصاصة تخترق صدري، أو أقتل آخر فرد فيهم.

لكن حمزة كان أقواهم، أشدهم وأعقلهم يأمره، في حين كان هو وإيليا يطلقان النيران ضد الجنود بالأسفل:

– موتك لن يحل شيئًا، ستنال ما كتب لك بوقته.

ضُرِبت عليهم قنبلة، فسارع عيسى إلى التقاطها، ثم رماها قاصدًا إحدى دباباتهم، ثم جلس سريعًا خلف الجدار يلهث، عيناه تدوران لوهلة، بعدم استيعاب يذكر جسد صديقه الذي غربل بقهر ورغبة بالتكذيب، يفتح فمه وكأنه يصارع رئتيه للتنفس، شفتاه تهمسان بضياع:

– لماذا أنتَ يا جراح، الاتفاق كان بيننا والوعد أخذته منك.. أنتَ ستبقى وسأرحل أنا.. لماذا أصررت أنت وأنس من قبلك أن تتركاني لأتجرع داء الموت الذي لا دواء له؟

صرخ إيليا فيه بغضب وقهر يفيقه:

– عيسى أحمد ليس أولنا ولن يكون آخرنا، إن أردت الموت هنا دون أن تنفذ وعدك بأخذ ثأره فأنا سأرحل وهنيئًا لك الشهادة.

ارتفع عيسى سريعًا وهو يعمر سلاحه من جديد، يُعِدُّه للإطلاق.. ثم يضرب النيران رافضًا الاستسلام لآخر برهة، عيناه تضيقان، أصابعه ثابتة، وعقله يحدد هدفه بدقة.. فيضرب ليصيب جنديًّا ويسقط آخر، إلا رأس الجبان عزرا الذي اختبأ وراء حاجز خرساني.

صرخ حمزة الذي كان يغطي وجوه أصدقائه الذين استشهدوا دون أن يفرطوا في سلاحهم، ثم يتلو فوق رؤوسهم الشهادة:

– عيسى الآن.

أشار إيليا نحو حمزة بأنه سيموه برصاصه مسهلًا له القفز أولًا نحو سطح منزل آخر، ثم تبعه إيليا، في حين أن عيسى يموه بدوره هرب إيليا مستغلين القفز فوق الأسطح عارفين خبايا كل المنازل والشوارع والأزقة وإلى أين تؤدي، وبالطبع الأنفاق التي حفرت داخل منازل بعينها، ولآخر لحظة كان عيسى يطلق ناره متنقلًا بخفة من كل الجوانب.

حتى حان رحيله فخطف سلاح عمرو وهو ينظر إليه بالألم ووعد بأن حقه وثأره سيعود مع ثأر أحمد وبقيتهم، ثبت السلاح بقطعة خشب وأحجار ليظهر أنه ما زال هناك رصاص يُضرب، وألقى قنبلة أخرى للتعتيم قبل أن يقفز برشاقة ويتخذ طريقًا مختلفا تمامًا عن طريق إيليا وحمزة.

إن كان الكلب عزرا هنا.. فمؤكد أنه لن يستسلم قبل أن يضع يديه النجستين على زوجته، يجب أن يغادر المكان الآن ودون تأخير.

لقد فقد لتوه سنده الذي يعتمد عليه:

– آه يا رفيق، هل للنار التي أكلت الحشا ماء قادر على إطفائها، يختارك الموت قبلًا وتتركني خلفك أصارع أمواج المأساة.

******

في البقعة نفسها ورغم ابتعاد الأنذال عن مكانها وتوجُّه ضربهم لمكان بعيد، بقيت رفيدة متخشبة متصلبة تضم جسد الحبيب ترفض تركه، ترفض الدموع والتسليم بالأمر الواقع.

تهافت الناس حولها، يصرخون ويحاولون أخذ جسده لحمله فوق الأكتاف والرؤوس للتنديد والتكريم.. إلا أنها ترفض تركه، تبعد تزاحمهم وتضمه بقوة، تهمس في أذنه بكلمات تُحنِّن قلبًا صخريًّا، تشق البحار وتثور لها الأنهار الساكنة، تشهق لها أنفاس وصدور من يسمعها، تنعاه صرخات النساء الباكية ويبجله هتاف الرجال، حتى حل وجه أبيها المكفهر يجلس جانبها محتويًا إياها، رفعت إليه عينين مطعونتين علها تستمد منه صمودَ آخر قوة أخرى تستقبل بها القدر، لمحت والدة أحمد وأباه يأتيان من بعيد يسقطون تارة ويقفون تارة، ينهار والده بين يدي الرجال، تسقط والدته بجانب جثمان ابنها فاقدة الأنفاس، همست سامحة أخيرًا لذراعي والدها باحتوائها دون أن يفرقها عنه:

– مع السلامة يا حبيبي، مع السلامة يا توءم روحي، مع السلامة يا عشق سنين لم يسمحوا لنا أن نُتوِّجها بسعادة كنا نحلم فيها ونستحقها، مع السلامة موشحة بالنصر يا غالي.. أنتظر روحك.. ستُخلق من جديد من تراب ولدتَ فيه ونزفتَ في سبيله وزُفِفت له عريسًا.

*****

وبماذا قد يؤذى رجل سوى تحطيم قلبه عبر المرأة التي يحب؟ ألم يجرب هو الأمر من قبل؟! يعلم أن الغضب ما يحركه، يدرك أنه لتوه يخاطر بكل شيء، يعصي كل الأوامر، ويحيد عن هدفه الأساسي بإخضاع عنفوان هذا الشعب، ولكن منذ متى خضعوا قط؟!

عندما يختلط الغضب بالغل تفقد كل ركائزك وتختلط لديك خيوط الوهم والواقع، فببساطة تضع نفسك على جرف عالٍ وبعدها لا تحتاج إلا إلى دفعة صغيرة وتسقط، وهذا ما يفعله.. يدق مسماره الأخير في نعشه.

يؤمن المسالمون منا.. الحالمون من البشر بنهاية حتمية لتصارع الخير والشر، بوجوب فوز الحق دائمًا، إلا أن تلك الأمنيات مع واقعنا المرير أصبحت مجرد أسطورة، ها هو الشر والباطل يربح لأعوام طويلة مزهقًا روح الحق والخير، ولكننا بالنهاية لا نملك إلا الأمل، ربما تعود الأسطورة من جديد وتزهق كل أرواح الشياطين.

*****

أحست جفرا بأطرافها تتجمد، بأنفاسها تعلق في حنجرتها وهي تنظر بلا حياة إلى أمها المكومة على الأرض تنوح وتبعثر كلمات ليس لها معنى:

– قتلوا البطل.. قتلوا الفرس.. ولم يبقَ إلا أنتِ.. يجب أن تهربي.. النذر يُوفَّى.. والثمن غالٍ يا ابنة بطني.

شهقت جفرا أخيرًا تحاول إنقاذ أنفاسها التي توقفت حرفيًّا منذ أن سمعت صوت الغربان تنعق بخبر موته، صرخت أخيرًا تحرر المرارة التي تتعاظم، تكمم شفتيها بكفها علّ صوتها لا يتخطى الجدران، ولكن هيهات وقد شق عنان السماء:

– ليس أحمد.. لا ليس أخًا وحاميًا وظهرًا لي وجدته بعد طول غربة ووحدة.

زحفت رندة على ركبتيها تجذبها من مكانها، تضمها إليها بقوة ثم انهارت في البكاء هامسة بصوت ضعيف:

– بلى قتلوا الغالي.. فارق الأرض، كما يسعون لزوجكِ وورائك.. ليتني ما عُدت.. ليتني ما جئت بكِ.. يا الله أما من نهاية لعذابي؟

كان جسد جفرا يهتز بعنف البكاء والصدمة، تحركت للأمام والخلف داخل ذراعي أمها هاتفة كالمجذوبة:

– ليتني ما تركت رفيدة.. ليتهم أخذوا روحي قبل أن أعاني هذا.. أمي أنا أموت.. سيسلبونني وطني يا أمي.

دُفِع الباب فجأة وأرض البيت اُجتيحت مغتصَبة والصوت الغليظ يقول:

– ليس لكِ أرض حتى تُسلب، أما إن كنتِ تتحدثين عن بلد تحملين جنسيته فهذا شيء آخر يا جفرا الجميلة.

رفعت رندة وجفرا رأسيهما بصدمة، بغضب يتصاعد وكأنهما لم يتوقعا وجوده قط.

– الحمقاء اللعينة والشهية!

إلا أن السخط والكره العميق الذي ارتسم على وجه رندة كان له النصيب الأكبر ليدب فيها حياة وقوة غريبة وهي تقفز تقريبًا تندفع نحوه محتمية بعصا خشبية رفعتها تنوي ضربه:

– أيها الحقير الحثالة، اخرج من بيتنا، اخرج من أرضنا.

لم يتزحزح من مكانه بل كان يقف أمامها بغرور جاذبًا تلك العصا يرميها بعيدًا هاتفًا ببرود لجفرا:

– لقد أتيتكِ جميلتي دون جنود، ليبقى ثلاثتنا كما الماضي أسرة حميمية جميلة، أعرض عليكِ آخر فرصة، تعالي معي أنتِ وهي تحت حماية تل أبيب، فذلك الهمجي ميت لا محالة.

كانت روح التمرد والعصيان تدب فيها من جديد، تنهض كما العنقاء من رماد رثائها، تقف أمامه هاتفة باشمئزاز:

– لقد قرأت طويلًا حد أن أعلم عبر تاريخكم المليء بالخيانة والقذارة أنكم بلا شرف ولا عهد، إلا أني أشهد لك بتفوقك على كل سلالتك.

مال فمه بضحكة ساخرة دون صوت، ثم ببطء كان يعيد عينيه نحو وجه رندة الشاحب وبصرها المتناقل بينهما وكأنها بطريقة ما تستهجن معرفتهما بعضهما.

قال أخيرًا وهو يحرك لسانه على شفتيه بتشفٍّ:

– هل ستُعرِّفينها عليَّ أم أخبر مُدرِّستي وأمي البديلة الحبيبة بنفسي؟

امتقع وجه جفرا وهي تحدق إليه هلعًا على والدتها، وقد ظنت أنها هربت مما كادت تخبرها به سابقًا، في حين لم يكن هذا رد فعل رندة التي تراجعت بعيدًا عنه تنظر إليه بوجه شاحب كالأموات، تحدق إليه بقلب توقف عن الخفقان، رافضة استيعاب ما يحدث وما تتبينه، سمعته يقول ببغض:

– لقد مر عمر طويل يا أمي لم أرَكِ فيه، وجفرا من سوء لياقتها أنها لم تخبركِ عن لقائنا مرتين، ألن تكوني أفضل منها وتأخذيني بين ذراعيكِ؟

شعرت رندة بشفتيها تسقط من وجهها حرفيًّا ناطقة مصدومة:

– عزرا.. عزرا الصغير الإيرلندي؟!

أصدر صوتًا ساخرًا مستنكرًا:

– بل كابتن عزرا، ابن شعب الله المختار، سيد البشر، وسيدكِ الذي سمح لكِ برعايته.

ترنح جسد رندة ممسكة برأسها، مرددة بشحوب:

– لا.. لا هذا كابوس، لم أُهجَّر من أرضي وأُسلَب هويتي، وأزرع في أرض غريبة، لِأُعلِّم وأرعى وغدًا عاد ليقتل أهلي.

فتح عزرا ذراعيه:

– ساهمتِ في تربية سيد عاد لأرض الميعاد ليسود السلام على الأرض ليحقق كلمة ووعد الرب.. ويستعيد وطنه من بدو سلبوه منا طويلًا.

الهواء يضيق حتى أصبح التنفس شيئًا خرافيًّا داخل أرجاء المنزل، والنظرة في عينيها حكت الكثير من الحسرة، الندم والبؤس في أشد حالاته، نظرة يأس، نظرة تعب، نظرة خاوية واضحة وهي تقول بثبات أشبه بمعجزة في حالتها تلك:

– لطالما آمنت أن المخطط أكبر منا، عميق، مترسخ، وأهدافه واضحة، نُهَجَّر لتغتصبوا بيوتنا وأرضنا أنتم، نُشتَّت ليسكن رعاع الأرض الآتون من كل صوب، يلبسون ثوب الحمل الذي أنقذنا من مخيمات العار التي اضطُهدنا فيها ونذهب لبلادكم ليس لشيء إلا لنربي أبناءكم بحب وعفو أَمَرَنا به ديننا الحنيف، في حين أنكم أنتم تخططون للغدر فتطعنون طيبتنا تلك بخنجر سام يرشق في الظهر؟!

قاطعها باستخفاف:

– لا تكبري الأمر يا رندة، لقد كنتِ أنتِ من بادرتِ في تقديم محبتكِ لي.

أومأت برأسها عدة مرات قائلة بهذيان:

– نعم.. نعم فعلت بكامل إرادتي لطفل مسكين لأسرة اعتقدت أنها تعاني ويلات الهجرة مثلنا، لم أفكر قط بأنكم ستقابلون إخلاصي بالخداع.

وقفت جفرا جانبها تمسك يدها وكأنها تسندها لتتجاوز الصدمة:

– أمي.

قاطعها عزرا بالقول المتهكم:

– كان يجب أن تصدقي نفور ابنتكِ وكرهها غير المفسر لي، ولكن لِمَ العجب وقد كرهتمونا منذ دهور واضطهدتمونا تحت رايات القيادات الإسلامية لقرون؟

صرخت جفرا:

– اخرس سأقتلك، سأشرب من دمائك محققة لك أكاذيبك.

اندفعت جفرا نحوه بهيجان فاقدة المنطق دون تقييم لفرق القوى الجسمانية بينهما، حاجبة عن عقلها منطقية أن نذلًا مثله لن يدفعها بشرف، صرخت رندة بجنون مندفعة وراء ابنتها علها تمنع أذى قد يطالها قبل تحقيقه، إلا أن الأوان قد فات عندما استل سلاحه يضعه على صدرها، ولكنها لم تتوقف عندما نبشت أظفارها في وجهه كاللبؤة الشرسة تنوي تمزيقه بأسنانها رغم يده التي أمسكت بكفيها بين جسده والمقعد المذهب، قبضته كانت قذرة خشنة، مترافقة مع رائحة كريهة وخانقة لفحتها، حاصرها وهمس لها:

– قد تكونين من جنس الخِراف التي يقدر للأسد التهامها، لا أن يعاشرها، ولكن الأسد سينفذ المعجزة ويحقق رغبة داعبت أفكاره منذ مراهقته.

قاتلته بوحشية غير مستسلمة، في حين كانت رندة تضرب ظهره وتخدش عنقه ورأسه صارخة:

– ابتعد عنها، يا كلب.

لعن عزرا بصوت عالٍ، سب ببذاءة واعتدل دافعًا جسد رندة بمرفقه، إلا أنه في لحظة عدم توازن بدل أن يبعدها كان يفقد سلاحه الذي طاح أرضًا جانبها لتلتقطه دون تفكير وتشهره في وجهه، وعندما حاول التصرف كان سطح المنزل يصدر صوت خطوات عنيفة مهرولة، غير مستوعبين الموقف كان عيسى يقف على أرض الدار ويندفع نحوه بيد عارية ليلفها على عنقه مباشرة، إلا أن قوتهما كانت متساوية تقريبًا، كلاهما يشتبكان في قتال عنيف، أطلقت جفرا صرخة مكتومة وكأنها كانت غير مستعدة لرؤياه الآن، لاشتباكه مع نذل تراه يتغلب على زوجها للحظة يحرر نفسه ليلوي يد عيسى وراء ظهره ثم يأمر جنوده عبر جهاز صغير بالتدخل لنجدته.

انتفضت من جديد وهي تسمع صوت قرقعة تصاحب صرخة شقت طبلتي أذنيها صدرت من حلق عيسى، ثم يعود للوراء صادمًا عزرا في الجدار بقوة، وأفلت منه ووقف يواجهه وهو يقول من بين أسنانه:

– طعناتكم في الظهر كالجبناء ليست بشيء جديد.

كانت أنفاس عزرا تتصاعد بلهاث عنيف:

– لستم أفضل منا عندما تقتحمون المطاعم وتقتلون الأطفال والنساء بحزام ناسف كأي إرهابي مخرب.

اقترب منه عيسى دون تردد ينوي الفتك به غير مهتم بسماع مهاتراته التي رُبيَّ عليها منذ نعومة أظفاره داخل المعابد والمدارس إلا أن عزرا في لحظة كان يشهر مسدسًا آخر كان يدسه تحت حزامه:

– سأقتلك متمردًا على الأوامر بتسليمك أسيرًا.. وهنا، ليس لجرائمك وإنما انتقامًا شخصيًّا بحتًا.

قبل أن يضغط على الزناد وفوهة المسدس نحو قلب عيسى، كانت تقف رندة من جديد تصوب السلاح نحوه هادرة:

– فكر بأذيته، أو ابنتي وستكون رصاصتي مستقرة بين عينيك.

تجمد الموقف بينهم في صمت مهيب مرعب، والجبن يسكن ملامح عزرا إلا أنه لم يترك سلاحه، قالت رندة آمرة إياه بشراسة:

– ارمِ ما بيدك حالًا، وقد أرحمك يا عزرا بحكم تربيتي لك.

نقل عينيه بين عيسى المظلم وبين جفرا المذعورة، ورغم خوفه فإنه رفض التخلي عن السلاح الموجه لعيسى وقال:

– لن تستطيعي.

قطعت جفرا الحديث قائلة بجمود:

– اقتليه.. ماذا تنتظرين؟

نظرت إليها رندة مجفلة مهتزة وكأن عزيمتها المتأججة تتأرجح، ثم نقلت بصرها تحدق إلى وجه عزرا من جديد، ولوهلة خاطفة تتذكر ذلك الطفل الذي ضمته إلى صدرها مرات، هذا الناشئ الذي عاملته كروح

بريئة دون أحقاد، وذلك المراهق الذي حمته كثيرًا وعلمته وساهمت في أن يكبر، في حين أنه ببساطة عاد ليحصد أرواح الكثيرين.

قال عزرا باستخفاف وكأنه يلاحظ ترددها ذاك وذكرياتها القاتلة:

– معلمتي الطيبة لن تفعل، مؤكد أنها تعلم أن دوري ككابتن ومواطن صالح هو حق للدفاع عن النفس أمام رفيق ابنتها.

هنا كان عيسى يقول بقوة وثبات:

– نحن لا نقتل الأبرياء، وأنتَ لست مدافعًا شريفًا بل قاتلًا خسيسًا.

تصاعد الموقف من جديد والثانية الواحدة تعادل دهرًا طويلًا، سمعوا صوت الجنود يوشكون على اقتحام المكان، فقال عزرا:

–سأقتلك يا عيسى أيوب، سأقتلك وقد ساعدت بكشف أسطورة الرجل الخفي أخيرًا.

حدقت إليه جفرا بذعر تتمسك في ذراع عيسى بقوة صارخة بشحوب:

– اقتليه يا أمي، أفرغي الرصاص في قلبه الجبان، ماذا تنتظرين.. قتله زوجي ووالد ابني؟

هتف عيسى وهو يستل خنجره ويزيح يد جفرا بعيدًا:

– ليس قبل أن أقتله أنا.

مالت عينا عزرا بشماتة وهو يقول مع سماعه صوت جنوده المقتحمين:

– سأقول للموت لا يا ابن عمي، أما أنت فسأرسلك للجحيم كقربان.

صرخت جفرا من جديد ودموعها تسيل بغزارة:

– اقتليه يا أمي، أجهزي على حياة الأفعى التي ربيتِها.

لكن الوقت لم يمهل أحدًا فيهم عندما بدأ خبط الجنود لكسر الباب عليهم، في حين أخذت رندة تصرخ في وجهي عيسى وجفرا:

– اخرجا من هنا حالًا، ماذا تنتظران؟ وعدت بحمايتها، وعدت ألا يمسها أذى الوقوع بين أيديهم.

وكما كان الارتباك سيد الموقف، اهتزت يدا رندة عن سلاح كانت شهرته في وجهه حاسمة موقفها أخيرًا، ستقتل هذا الجبان الصهيوني، ثم سيلتهون في جثته وفيها، فتُوفِّر لهم الوقت لهربهما.

وكأن عزرا فهم هذا، لذا لم يتردد في أن يوجه سلاحه مستغلًّا اهتزازها ذاك، ثم يفرغ طلقة ثم أخرى وثالثة في قلب رندة وانطلقت الصرخة الهستيرية ومحاولة جفرا الوصول إليها وهي تصرخ:

– أماااااه.. لاا.

ومع طرق الجنود انطلقت فوق رؤوسهم زخات مطر من الرصاص وكأن جيش رجال يصطادهم من فوق سطح المنازل يؤخرونهم للحظة أخرى.

اعتدل عزرا ينوي قتل عيسى أخيرًا وفض هذه المهزلة إلا أنه لم يستطع عندما اندفع عيسى نحوه كالإعصار الذي يهيج البحار لتخرج متمردة على شواطئها وتحرث الأخضر واليابس واستقر خنجره داخل يد عزرا ليوقع سلاحه.

ثم أخرجه من جديد يغرسه في ساقه، في حين ما زال عزرا يقاومه وهو يصرخ بالعبرية:

– الآن.. النجدة، أنا محاصر.

أطل وجه حمزة من فوق الدرج صارخًا فيه:

– اتركه.

– يجب أن أنهي حياته هنا، خذ جفرا وفِرَّ يا حمزة.

لم تكن جفرا تسمع أو ترى ما يحدث وهي ترقد جوار جسد أمها تصرخ كالمجنونة، تدب الأرض بكلتا كفيها تثير الأتربة، في حين لم تنطق رندة إلا كلمات معدودة:

– لقد خُلِقنا من تُرابين.. تراب أرض ولدت فيها وتراب أخرى أموت فيها.. حمدًا لله أنه تراب فلسطين في المرتين.

صرخ عيسى في حين ما زال القتال قائمًا بينهما:

– اهربي يا جفرا.. اهربي.

أي جفرا وهي لا تسمع ولا ترى غير أمها النازفة، تردد بذهول:

– إياكِ أن تتركيني.. لا تتخلي عني يا رندة، أمي سأضيع دونكِ.. لا تتخلي عني الآن.

أمسكت رندة بيد ابنتها ثم حركت شفتيها الباهتتين:

– اهربي.. لا تبقي هنا.

استطاع عيسى التخلص منه أخيرًا عندما ضربه في صدره، ثم دون تردد كان يحمل جفرا من خصرها بكلتا ذراعيه ويصعد الدرج ينوي الهرب بها.

– لم تنتهِ.. أنت ميت.

ومن الصوت القميء علم أنه ما زال فيه نَفَس يتردد وأقسم أن يسلبه إياه الليلة، بيده سينهي ما بدأ.

اقتحم الجنود المكان أخيرًا نحوه يطلبون سيارة مجهزة في الحال، في حين كان هو يصرخ فيهم بجنون:

– طاردوهم، لا تسمحوا لهم بالإفلات، أريد تلك العاهرة، ورأس ذلك المخرب هنا.

إلا أن حمزة وإيليا ما زالا يطوقان المكان برصاص أسلحتهما، كالعادة كان جنوده يختبؤون محتمين وراء مدرعاتهم رافضين مطلقًا الخروج ومواجهة بندقية الثوار، وحجارة الأهالي التي تطاردهم.

ركض عيسى من سطح إلى سطح حتى وصل إلى أحد المنازل التي يقع بها أحد الأنفاق، توارى بها عن الأعين منتظرًا وصول رفاقه.

تركها تجلس أمامه في الخندق الضيق ينظر إليها بتعب، بمرارة، رأسها يميل إلى كتفها وكأنه قد قطع وبقي هناك بأعجوبة، النظرة داخل حدقتيها فاقدة للحياة ودموع عينيها لم تتوقف لحظة هامسة بضياع:

– أمي.. لقد تركت أمي معه.

أمسك عيسى كتفيها يهزها بعنف قائلًا من بين أسنانه:

– استمعي لي، لم يعد هناك وقت للانهيار.

غلالات دموعها تنهمر باحتراق وصوتها الضائع يهمس:

– انهيار؟! أمي ماتت وأحمد.

هدر عيسى بقوة:

– استشهدا.. أحمد كان يؤمن أننا ورثنا حريتنا وولدنا لنقاتل ونحافظ عليها حتى آخر رمق فينا.

أغمضت عينيها تسمح لمزيد من الدموع بالتدفق قائلة بهذيان:

– لا أريد قتالًا.. أريدك أن تبقى معي.. أنا لست رفيدة يا عيسى.. أنا أضعف من أن أقاوم وحدي.

ضغط على كتفيها أكثر ويده الأخرى تندس تحت ذقنها يجبرها على النظر إليه:

– ما دمتِ قادرة على التنفس يجب عليكِ أن تقاومي.

كررت بيأس وهي ترفع يديها تتلمس وجهه وصدره مكان جراحه ودمائه:

– لا أريد المقاومة.. أريدك أنتَ.

صاح فيها بقوة وكأنه يحاول دفع يقينه بإيمانها حتى تتسلح به دائمًا:

– لم أتزوج امرأة ضعيفة، لم أتنازل عن كل نذوري وأتحول إلى إنسان أناني يكسر وعده بأن يضحي بأغلى ما يملك متمثلًا فيكِ، حتى أكتشف في النهاية أنكِ لن تشدي عضدي.

قالت بهستيرية:

– ستضحي بي الآن، أنت مجرد بغيض تريد مني تركك لتموت في حين ترسلني للبعيد.

جثا عيسى على ركبتيه في المساحة الضيقة يضمها بقوة وهو يقول بخفوت مجروح:

– هل تعلمين ما يسببه لي هذا من وجع؟ الجميع هنا ضحّى بزوجة، بابن، بأم وأب، في حين أنا لا أستطيع تركِكِ لهم، تركِكِ دون حماية الوحيد الذي أثق فيه بعد أحمد بأنه سيراعيكِ وابننا.

بكت بألم ويداها تلتفّان حول خصره بقوة تهتف من بين شهقات الدموع:

– سأموت دونك، أنت كل ما تبقى لي، لن أطلب أن تهرب معي ولكن دعني أمُت جوارك.

ضغط عيسى على شفته السفلى بقوة، يضمها إليه أقوى كاتمًا شهقة آه رهيبة تنعى كل جراحه الليلة ليس للحبيبة فقط وإنما لكل رفاقه الذين سبقوه للجنة:

– لقد وعدت أبي أن يراني مرة أخرى، أن ألمس لورين وأحتضن التوءمتين اللتين لم أضمهما لصدري، وأنا لن أوفي بعهدي هذا يا جفرا إلا عبركِ أنتِ، أعيدي قطعة من روحي لأبي، أنا أتنازع بين هذا وذاك، فساعديني على تحقيق وعد اتخذته بأنانية.

كررت بأنفاس مبهورة ممسكة بقميصه الممزق المليء بالتراب بقوة:

– سأموت دونك، طفلي لن يولد ويرى عبير أرضنا دونك.

أبعدها عنه ليس لشيء إلا ليحتوي وجهها بين كفيه ثم قال بقوة حانية:

– لقد اخترت له أرضًا قوية لأزرعه فيها، رحِمًا لن تلفظه، وأمًا شرسة ستحميه، ويومًا ما ستعيدينه إلى هنا، ليكمل مسيرة أبيه، أو يكون حظه أوفر ويرفع رايات النصر.

هزت رأسها مكررة:

– لا.. لن تتركني.

لم يُجبها.. ليس بالكلمات على الأقل، عندما جذب رأسها بقوة لتستقر على نبض قلبه وتشتمَّ رائحة عبق المسك، تتذكر هدير هذا العاشق الذي يصرخ بين الثنايا للمرة الأخيرة.

*****

لم تمر ساعتان على هربهم نحو مكان تحيطه الأشجار من كل جانب رغم تصحر الأرض من تحتهم، بيت مهجور ودكان محترق نزح أهله عنه منذ زمن طويل، وجدوا فيه ملتجأ حتى يعيد عيسى ترتيب أوراقه الأخيرة.

علم بنار الثورة التي أُوقدت من جديد، ولكم يتمنى أن لا تنطفئ، الأمر لم يقتصر على الناس فقط الآن بدأ التصعيد بإعلان بعض الجبهات العسكرية والأحزاب السياسية دعمهم ووقوفهم بجانب الثوار رغم نفيهم طبعًا أن تلك العملية التفجيرية كانت من عملهم بل هي تنتمي لأصحابها من الفدائيين الأحرار.

كانت جفرا تجلس في إحدى الزوايا تنظر إلى عيسى دون روح، ما زالت متجمدة داخل صدمتها، مسلوبة القوى والأنفاس، ورغم الذعر داخل عينيها فإن الرجاء لله متضرعةً لم ينفك عنها قط، تتأمله وترجوه إبقاءها رغم سماعها محادثته من جهاز خاص لأحدهم:

– حمزة سيوصلها، أريدك أن تسلمها للورين وأبي بيدك، هذا طلبي الأخير يا تميم.

قست عينا تميم على الطرف الآخر:

– ليس قبل أن أعرف ما الذي تنويه؟

قال عيسى مزمجرًا:

– تعلم أني لن أخبرك.

همس تميم بشرر محترِقًا غاضبًا وخائفًا وهو الذي لم يهَب شيئًا يومًا:

– أنت لا تخبر، لا تفصح، لا تصادق، وكل هذا تقبلتُه، ولكن لم يكن بين اتفاقنا أن تغامر، بل أن يبقى رمزك أطول فترة ممكنة ليجدد روح النضال.

تمتم عيسى بصوت مكتوم:

– لقد نذرت نفسي وانتهى الأمر، أنا لست رمزًا يا تميم، لن أعيد أسطورة آمنّا بها وتمسكنا بخيوطها، أنا مجرد مناضل يؤمن بقضية، اختلطت روحه بهذه الأرض، عانى خارجها وداخلها حد أنه يعلم أن لا أحد مطلقًا يُفلِت من بين أيديهم، إما الموت وإما الفوز هذا هو المصير المحتوم.

ضغط تميم على سمّاعة الهاتف بصلابة وكأنه سيحطمه بين يديه:

– ولكنك اخترت لها مصيرًا ثالثًا!

استدار عيسى ينظر إليها نظرة اختلط فيها الألم والحزم:

– أنا لم أخطط للغرق في دروب عشقها، إلا أني بشر من حقي حماية شطر روحي، أن أنفيها بعيدًا عن الأذى، كما أنك بت تعلم الآن أني دفعت فاتورتي الباهظة مسبقًا.

كانت الدقائق الآمنة للاتصال مرّت بالفعل، لذا تعجب تميم مرغمًا وهو يقول مختصرًا ومحترقًا لما يتنبأ حدوثه:

– أخبر حمزة أن يحسن اختيار طريقه، وسيجدني هناك على المعبر الآخر.

قال عيسى بخفوت وعيناه الصارمتان تحدقان إليها تحديقًا يكاد يمزق روحها وجسدها معًا:

– أخبر أبي أن يحسن حماية البقية مني هذه المرة، جفرا ليست امرأتي فحسب بل هي أرضي التي ستعيد ولادتي من جديد.

أغمض تميم عينيه بقوة مختصرًا:

– سأخبره.

تابع:

– وأنت تذكر أن كلًّا منا يحارب في القضية من منظوره.

قال بتهكم:

– أذكر يوم أخبرتني أن من يفوزون بالنهاية ويعيشون أطول ظافرين بكل متع الدنيا هم بارعو التمثيل خبيثو التصرف، في حين أن شرفاء الكلمة صادقي الهدف يرحلون سريعًا.

اهتزت كل عضلة في وجه تميم قبل أن يقول بتجلد:

– والتاريخ لن يخلد إلا الشرفاء، والكتب لن تقبل أن تحتوي بين صفحاتها إلا الصادقين، أمّا هم فسيُلعَنون لمئة عام، وستُحرق مقابرهم لمئة أخرى، تذكر يا رفيق، الأفعال خالدة والجسد ومتاع الدنيا فانيان.

أغلق عيسى الهاتف ثم توجه إليها يجثو على ركبتيه أمامها، ومد يده يحيط وجنتها عله يمنحها شيئًا من ثباته:

– إلى هنا ورحلة معرفتكِ انتهت، أتيتِ مشوهة الهوية وها أنتِ ترحلين حاملة على عاتقكِ أكبر من هم وطن.

كانت تحدق إليه بعينين واسعتين خاليتين من الإحساس وهي تهز رأسها برتابة، تُردد:

– لن أرحل.. لن أترك أمي خلفي.. لن أتركك أنت.

كان أكثر يقينًا وأشد حدة وصرامة:

– بل سترحلين، أنتِ وتحقيقاتكِ وصوركِ، ومعرفتكِ لأناس عشتِ معهم، بعيدًا عن زيف الكاميرات، كشفتِهم دون خداع الإعلام، مهمتكِ محددة يا جفرا، ورسالتك واضحة، علميهم من نحن، أخبريهم أن يبحثوا عن الحق دون تزييف، أعلميهم أننا لا نعيش داخل خيم جَهَلَة مغيبين أو مجرد يائسين نهوى سفك الدماء.

حدقت إليه من جديد وكأنها تحاول أن تستمد من كلماته ومن لمس يديه ومن حرارة جسده القوي حبلًا قويًّا تتمسك بطرفه حتى يشدها بعيدًا عن بئرها السحيقة التي ارتطمت بها، عندما طال صمتها حاوط عضُديها يهزها دون عنف مكررًا:

– ماذا ستكتبين عن شعبكِ يا جفرا؟

تحرك كتفيها بصعود وانخفاض متحدثة بنبرة خشنة:

– نحن قوم كنعان، وُجِدنا قبل أن يُعرف التاريخ، نحن قوم نحب الحياة ما استطعنا إليها سبيلًا.

– الآن أستطيع أن أقول إنك أحببتِ وطنًا كاملًا وليس شخصًا يا جفرا الوطن الحر.

*****

في ناحية أخرى كان عزرا أيضًا يرفض التسليم رغم الضمادة التي تغطي صدره، رافضًا تركهم لغيره يطاردهم، وقد أصابه مس من الجنون، لن يشفيه إلا قتله وقتلها، إن كان هو لن يظفر بها لمخططاته، مؤكد أن النجار الهمجي لن يفعل، وماذا قد يخسر بعدُ والغبية رندة بإجباره على قتلها جعلت أمله، بأن يغسل عقل جفرا ويقنعها بالبقاء معه وبسوء اختيارها لذلك النجار بعد أن يقتله، يذهب مع الريح.

هو يحفظ تلك العنيدة السليطة، ربما كانت لتقع في حبه خاضعة لطرقه، منظفًا عقلها من القذارات التي ملؤوه بها، وتتفهم ضرورة قتل هذا الإرهابي المخرب، إلا أنه الآن وبعد اغتياله والدتها مؤكد أنها لن تنظر في وجهه حتى.

مهلًا.. لماذا يضع مبررات لنفسه وجفرا بالفعل شريكة لمخرب منتحر، وكلاهما يجب أن يُقبض عليه بالقانون، ولكن بقانونه هو، يجب أن يحرقهما معًا محققًا لهما قصة حب أسطورية، ابتسم بتشفٍّ وجمود، فرائحة شواء لحمهم تجلب له نشوة وتخمة ليس لهما مثيل قط.

– كابتن.. لقد حددنا مكان المتمردين.

وقف عزرا سريعًا يختطف جهاز الخرائط وهو يقول بعينين تبرقان بالغل والتشفي:

– أنت وثلاثة آخرون فقط أريدكم أن تتبعوني.

قال الجندي بتردد:

– ولكن يا كابتن، هؤلاء المتمردون يملكون السلاح ويجب أن نتحرك كما ينص القانون بفرقة من أمهر الجنود.

شوَّح بالجهاز نحو بطنه يضربه بقوة وهو ينصرف من أمامه آمرًا بحقد:

– نفذ دون نقاش، وإن علمت بتسريبك الأمر، صدقني.. مصيرك سيكون أسوأ من مصير جاسوس يقع في يد الهمج.

******

انتفضت جفرا التي كانت تسند رأسها إلى صدره تتكئ عليه وذراعيه تحيطان جانب خصرها الأيمن بقوة، متجمدين على هذه الحالة منذ وقت، دون كلام، دون تبادل المزيد من المشاعر أو الرثاء، إذ بات في هذه اللحظة الصمت والتجمد هو أبلغ تعبير عما يمران به، بحركة واحدة من يده كان يهدئها، يثبتها مكانها:

– هششش اهدئي.

حدقت عينيها الضائعتين:

– أنت تنتظر أحدًا؟

رفع وجهها بأنامله برقة، لتراقب وجهه الصارم وحاجبيه اللذين يرتفعان وينخفضان مع كل أمر حازم يوجهه نحوها:

– أريدكِ أن لا تتحركي من هنا، مهما سمعتِ، مهما رأيتِ، وإن سقطتُ أريدكِ أن تركضي ولا تنظري وراءكِ حتى تغادري الحدود، هل فهمتِ؟

عاد الرعب من جديد يسكنها متخلية عن حالة البلادة التي ألقيت فيها، أمسكت بكلتا يديها كفه تتوسله بارتعاش:

– لا تفعل.. عيسى.

عاد عيسى يكمم فمها بيده، ومال يضع جبهته على جبهتها مغلقًا عينيه للحظة مستنشقًا رائحتها لمرة أخيرة، وقبّل جبهتها وقفز من أمامها سريعًا حاملًا سلاحه على ظهره مسببًا لها شللًا مؤقتًا من شدة الخوف.

التف عيسى حول جرَّار زراعي خرِب، ثم ببطء وخفة انتقل نحو جدار متهدم كان قد علَّم به انتهاء الخيط الرفيع الذي أوصله بقنبلة يدوية قد زرعها في الأرض ونثر –من بدايتها مرورًا بالساحة الواسعة

وحتى يلتقي عند هذا الجرار- مادة مشتعلة.

وعند شجرتين تقفان بهيبة تحرسان ساحة المنزل كان عيسى يعلق بهما خيطًا رفيعًا وحادًّا كالشفرة يكاد لا يُرى بالعين المجردة لمن يمر عبره لينطلق ملتفًّا حوله، يجرحه ويجذب ذلك الفخ الذي صنعه من زجاج حادٍّ كان خلعه من مرايا المنزل المهجور ووضعه عموديًّا حتى إن هبط على رأس أحدهم لقطعه وذبح نحره.

في تلك اللحظة كان عزرا أيضًا يتربص به متوخيًا حذره، راغبًا في مفاجأته لينهي الأمر سريعًا، إلا أن الجنون الذي أفقده عقله، حد أن الجبن لم يعد له مكان داخله وأصبحت الحماقة والغرور القاتل هما ما يحركه، جعله يقع في الفخ مع رجاله بكل سهولة.

بمجرد أن خطا أحد رجاله بحذر نحو هذا الفخ متربصًا يمينًا ويسارًا وبندقيته أمامه مستعدًّا لاقتناص أي كائن حي يراه، كانت قدماه تخبطان في ذلك الخيط وبسرعة الصاروخ يلتف حول قدميه، وقبل أن يصرخ معبرًا عن خوفه من موت محقق.. كان ذلك الزجاج يهبط كالصاروخ يستقر في منتصف وجهه وشظاياه المشفرة تذبحه من الوريد إلى الوريد.

وقف عزرا مكانه وتراجع الثلاثة الباقون خوفًا وهم يسمعونه يصرخ:

- سأقتلك وأنزع حنجرتك بأسناني، بعد أن أجعلك تُقتل ألف مرة وأنت تراني أعاشر عاهرتك أمامك.

أمسك أحد رجاله يده قائلًا بقلق:

- كابتن.. أنت للتو عصيت كل الأوامر، دعنا نبلغ باقي الفرقة.

استدار إليه عزرا يضربه بقبضة المسدس ثم يمزق الجزء العلوي من بدلته العسكرية، وقال ببغض:

- ها هي قوانينك في الأرض، والآن أنا مجرد مواطن صالح له حق الدفاع عن النفس.

كان عيسى يستغل تلك البرهة بينهم ليتسلل بخفة بين الأشجار حتى أصبح وراء ظهورهم، انتظر في مكانه مختفيًا حتى تحرك عزرا يتبعه اثنان، وقبل أن يأخذ الثالث قراره ويتبع الأوامر لف عيسى حول عنقه حطته جاذبًا إياه منها كاتمًا أنفاسه، تصارع كلاهما لدقائق.. أحدهما مرتعب من الموت مدافعًا عن روحه، والآخر لا يرى إلا رد حقوق وثأر من حثالة يكاد يقسم أنه حصد عشرات الضحايا من الأطفال والشيوخ والمراهقين واعتدى على النساء داخل القدس.

وقف عيسى من فوقه وقد تمكن من تثبيته جاثمًا فوق جسده يسلبه أنفاسه الأخيرة، ثم تحرك بخفة وعاد يتتبع أثر عزرا الذي اختفى تمامًا، توجهت حواس عيسى قبل أن يسمع صرخة مجنونة علم أنها تنتمي لمُتمردته، مترافقة مع صوت عزرا الذي يرعد بالحقارة وهو يجذبها من شعرها القصير يكاد يقتلع فروة رأسها في يده، نحو الساحة الواسعة المترية:

- اخرج لتدفع ثمن جرائمك، وقد أفكر وأمنحها رحمة لا تستحقها.

كانت جفرا تضربه بعنف مقاومة متحركة بهستيرية بين يديه غير مبالية بالألم الذي أصبح جزءًا لا ينفصل عنها، وبماذا قد يضر الألم بالجسد وقد تحطمت الروح مسبقًا؟

– إياك أن تخرج، لا تندفع، إن كنت تحبني حقًّا لا تفعل.

جذبها عزرا نحوه مسببًا لجزئها العلوي انحناءً عظيمًا، دافعًا رأسها للأسفل حتى يطل عليها من علو وهو يقول بابتسامة عفنة مزدرية:

– عليّ أن أقر بمقتي للقصص الغرامية، أتعلمين أكثر ما يبهجني عندما أنقضُّ على أحد الأغنام من شعبك؟ معرفتي أن له زوجة يحبها وتحبه حد التطرف.

صمت لوهلة أمام حدقتيها اللتين تدوران بهستيرية ثم أكمل بشماتة:

– مثل ابن خالكِ الغالي.. آه ماذا كان اسم هذا الإرهابي؟!

أمسكت جفرا بيديها ساعده الذي يعذبها بساديته ثم هزت رأسها المعلق هناك هامسة من بين أسنانها:

– سأقتلك، ثق بهذا.. نهايتك لن تكون على يد مخلوق غيري.

إلا أنه لم يكن هناك وقت أكثر للكلام، عندما راقب عزرا أحد رجاله تمسك فيه النار حيًّا بعد انفجار زجاجة المولوتوف التي ألقاها عيسى عليه، صرخ عزرا بالعبرية لرجله الأخير وهو يوجه سلاحه نحو رأس جفرا:

– أطلق النار على هذا الكلب، ماذا تنتظر؟

وقف عيسى في الأعلى ينظر إليه من موقعه المكشوف ثم رمى من بين أصابعه عود كبريت كان كفيلًا في لحظة أن يشعل حلقة النار التي جهزها ويفجر تلك القنبلة التي مزقت جسد جُنديه الأخيرين لأشلاء:

– ينتظر قدره يا كابتن.

الانفجار كان كفيلًا أن يهز الأرض من تحت أقدامهم، أن يعود الجبن يسيطر على عزرا لبرهة وهو يطيح دون أن يفلت جفرا:

– سأقتلها.

قفز عيسى على الأرض يواجهه، يقف بين الهشيم والدخان شامخًا قويًّا غير مبالٍ بالعرق الذي يغطيه ولا بالجروح التي أغرقته ودماؤه التي تسيل من أعلى جبهته:

– لن تفعل، ليس لأنك تملك شرفًا يمنعك من أذية امرأة، ولا لعاطفة أوهمت نفسك بها، بل ببساطة لأنك أجبن من أن تواجه حكم الإعدام الذي سأنفذه فيك فور أن تمس شعرة منها.

كانت جفرا تتلوى بين يديه هاتفة من بين دموعها:

– اقتله، نفذ حكمك ولا تنظر إليَّ، خذ بثأر أمي، وأنقذنا من سفاح مثله.

عادت ابتسامة الضباع تزين فمه المتوحش:

– تُطرين عليه كثيرًا يا عزيزتي، وكأن هذا ليس واجبه.

قال عيسى وهو يسحب بارودته من فوق ظهره:

– هل تعلم لماذا لم أستخدم سلاحي كي أرديك قتيلًا فور معرفتي بقدومك هنا؟

قال عزرا بجمود:

– لأن الخرفان أجبن من المواجهة، بل تقتل في الخفاء، أو تفجر نفسها في الطرقات.

ساد صمت طويل، ثقيل وصاخب، عينا عيسى لا تترك المُعَلِّقة هناك ترجوه إنهاء الأمر برصاصة رحمة موجهةً له قبله، قال أخيرًا:

– الخرفان لا تقتل، ولا تفجر نفسها، بل الخروف هو من يُجَر لفخ الأسد بكل سذاجة وسهولة.

صمت لوهلة قبل أن يدير نظراته نحو وجه عزرا الشاحب:

– جاسوسك الذي بلَّغ جنودك بمكاني، أحد رفاقي هو الذي أعطاه إياه، ثم أجبره على إرساله لك قبل أن يُنفِّذ فيه شرع الله جزاءً لخيانته دينه ووطنه.

هدر عزرا متراجعًا، جاذبًا إياها معه مجبرًا جفرا على إطلاق صرخة أكثر ألمًا وهلعًا، تُسبب لعيسى طعنة قاسية غير محتملة، لكنه يجب ألا يتهور، ويصمد حتى يحررها بالدهاء.

– دين.. شرف.. شعارات باتت مملة أنتم أنفسكم زهدتم فيها، كما بعض قادتكم الذين تعقلوا أخيرًا وأتوا لنا مطالبين بالسلام، معترفين بحقوقنا لاعقين أحذيتنا.

– أخطأت الاتهام.. أنا ابن فلسطين، لا أنتمي لأي قائد خارج بلادي قَبِل بعار صفقتكم.

قال عزرا من بين أسنانه:

– ليس هناك فلسطين، بل دولة إسرائيل عمرها ثلاثة آلاف سنة، وسرق المسلمون حق حكمها منا واضطهدوا...

أغمض عيسى عينيه بقوة وهو يقول كابحًا موجة غضب كادت تهدد أعصابه، ويندفع باطشًا به لينتزعها منه:

– من منا الذي يلقي شعارات كاذبة ويسرد تاريخًا مغلوطًا؟! إذ إن اسم الكيان المحتل كان مجرد مقترح بعد نكبة 48 من بن جوريون، أما عن اليهود فأنت تعلم جيدًا أنكم تعيشون في شتات طوال تاريخكم حتى الحرب العالمية الثانية، فلفظتكم أوروبا رافضة استقبالكم لنُبتلى نحن بكم.

قال عزرا بجمود:

– من الذي يكذب الآن محاولًا إبهار عشيقته، وماذا عن يهود السامرة الخونة لدولة إسرائيل العظمى؟

لم يستطع عيسى كتم ابتسامة ازدراء سوداوية:

– هل تجيب على نفسك؟ لقد اعترفت لتوك! يهود السامرة الذين تطاردهم إسرائيل وهم يرفضونها، هؤلاء هم من نستطيع القول إنهم عاشوا على هذه الأرض طويلًا تحت راية المسلمين يعرفون أنها حق لشعبها وليس لحثالتكم.

قال عزرا بإيمان صادق جدًّا في معتقده:

– أنت كاذب يا ابن عمي، كما كل المسلمين الذين يكفرون برسالة الله لإبراهيم الذي بشَّرنا بهذه الأرض قائلين: إن أحفاد إسحاق ليس لهم حق في هذه الأرض، فلنذبحهم.

– أنا لست ابن عمك.. لا تنطقها.

قال عزرا ساخرًا:

– ها أنت تكفر بالدماء والرسالة.

كان عيسى يشير بعينيه إلى جفرا، التي تراخت يد عزرا قليلًا حولها في سبيل دفاعه عن مبادئه، لتأخذ حركة دفاعية، كان قد علَّمها لها، وهو يقترب منهما ببطء غير مُلاحَظ، قال له:

– إذن أنت صاحب حق تؤمن بالقتل والتطاول على أنبياء الله، والكذب باسمه عز وجل، تحترف التلاعب بالعقول كما كل من يحمل جينات الغدر والخيانة نفسها، مصدقًا خدعة الاستعمار بأن بني صهيون لهم حق في بلدنا.

انفعل عزرا متهورًا:

– أنت من تعرَّض لغسيل عقل، رافضًا فكرة العيش بسلام تحت عَلَم دولة لها حق ديني كما كنا دائمًا.

أشار عيسى برأسه في علامة خاطفة وهو يلهيه بالقول:

– نحن لم نكن يومًا في سلام ولن نكون أبدًا، أي تعايش هذا الذي تتحدث عنه وأنت تريد أن تضع يدك على كل بقعة في وطني؟

قال عزرا بصوت مكتوم:

– دعنا نكُن أنا وأنت كبداية، دعني أعترف لك بسر.. أنا أُفضِّل عدوًّا شريفًا مثلك على صديق خائن.. مثل كل من باعوكم من أشقائكم وقبلوا بالتطبيع.

أومأ عيسى:

– مؤكد.. ولمَ لا؟ قد نفعلها، ولكن ليس قبل أن تهتف بنفسك لتقول الحق، تواجه قادتك والعالم المتواطئ معكم بالظلم الذي يحدث فينا، بالمعاناة والجوع وويلات الحرب التي تفرضونها علينا.

قال عزرا بخشونة مرددًا:

– هذا حقنا في الدفاع عن النفس كما حقنا في الأرض.

صرخ عيسى لجفرا:

– الآن.

انحنت جفرا تركله بكل عزيمتها في خاصرته، ثم اعتدلت تزيح رأسها للخلف فأصابت وجهه، ورغم عنف المفاجأة لم تستطع أن تتحرر كاملة، بل لحقها هو يطرحها أرضًا ويضربها بعنف بكفه، في اللحظة

التالية كان عيسى يسحبه بعيدًا يلقيه أرضًا ليتشابكا متصارعين من جديد بقوة متوازنة بينهما، اعتدلت جفرا عن الأرض تزحف للوراء بخوف تراقب تشابكهما العنيف في القتال، في حين كانت في هذه اللحظة أسلحة كلا الرجلين قد طارت بعيدًا وبقي قتالهما مجردًا، وإن رأت إفلات عزرا من عيسى عبر ضربة قوية وجهها له بقطعة خشبية محاولًا أن يصل إلى سلاحه، إلا أن عيسى جذبه من قدمه مشتبكًا معه على الأرض وهو يزأر:

- لا حق لمن لا حق له.

تغلب عليه عزرا يديره أرضًا وهو يوجه له ضربة قوية فوق رأسه بحجر ثم قال:

- أنتم الخونة المتمردون هنا، نحن دولة عظمى قادرة على إبادتكم، ولكننا لن نفعل، لأن بني إسحاق ينفذون كلمة الرب: أن لا نقتل بل ندافع عن النفس، عكسكم أنتم.. إن استطعتم فجرتم.

تغلب عليه عيسى وهو يزيحه بكلتا قدميه في بطنه يضربه بلكمة عنيفة مكان طعنة خنجره السابقة، ثم قال:

- كاذب.. بل عاش اليهود تحت حكم الراية الإسلامية ألفًا وثلاثمئة سنة ولم نمس أحدهم بضرر، لأننا نخاف الله ونطيع رسولنا الذي أوصانا بأهل الذمة، ولكننا نتكلم عن اليهود وليس عن حثالة العالم.. ذلك الكيان الصهيوني.

تغلب عليه عزرا من جديد إلا أن لسانه خرس عاجزًا عن إيجاد إجابة جديدة لحجته، وقد غلبه منطق الإجابة، ولكن هو ليس ضده لإثبات مَن الأحق.. بل هو هنا لقتله، في لحظة فارقة أخرج عزرا خنجره ملوحًا به أمام عيسى، ثم تغلب الأخير عليه وهو يفلت من تحت ساعده، مستديرًا بسرعة يطعنه في ظهره لا مواجهًا له قاصدًا.

فزعت جفرا.. ولكنها لم تصرخ هذه المرة وهي تراه يكاد يفتك به ويذبحه أمامها، وقد استغل ترنحه لثوانٍ، ثم أخرج الخنجر ناويًا ضربه من جديد، وعيناه لا تفارقان سلاحه الذي يرغب في الوصول إليه ليفرغه أخيرًا في رأسه كما وعد نفسه، إلا أنه لم يستطع عندما وجدت جفرا نفسها تصل إليه أولًا لتمسكه بيدين مهتزتين كما بدت مرتجفة وهي تقف ببطء، ثم تتقدم نحوهما تضع فوهته خلف رأس عزرا تسحب الأمان وهي تقول بلا حياة:

- ابتعد عنه يا عزرا.

لم يأبه عزرا لها كثيرًا.. بل ظل ممسكًا الخنجر وهو يستدير نحوها ببطء حتى أصبحت فوهة السلاح في جبهته، ابتسم لها ابتسامة الأفاعي وهو يقول باستخفاف:

- كلانا يعلم أنكِ لن تفعليها، فأنتِ كأمكِ تمامًا.

ابتعدت جفرا عنه خطوة وهي تسمع عيسى يصرخ فيها بانفعال متعب:

- إياكِ وتلويث يدكِ بدمائه القذرة، أنتِ لن تتحملي عبء روح إنسان حتى لو كان هو.

إلا أنها لم تستمع عندما قالت بصوت ميت تضغط على حروفها:

– أنا لا أحمل قلب أمي الطيب.

صمتت هنا مقتطعة جملتها ليس بحديث آخر وإنما برصاصة خرجت مدوية تخترق صدره، أطاحت بعزرا تحت قدميها جاثيًا على ركبتيه ينظر إليها بأنفاس متهدجة، بعينين واسعتين رافضتين التصديق وحاقدتين حد النخاع أن تكون نهايته على يدها، وإن كان يظن أنها ستتركه فهو أحمق للنهاية، فقد وقفت مستأسدة تنظر إليه من علو وهي تعيد له فيض كرهه عندما وضع فوهة المسدس قبلًا على جبهة والدتها، ثم أطلقت رصاصة أخرى بعد أن صرخت بتجبر:

– بل أنا جفرا صالح.. جفرا الوطن الحر.

سقط عزرا أخيرًا مختلطًا رأسه المتفجر بتراب الأرض، في حين ظلت هي لثوانٍ تحدق إليه بجمود، بجسد خالٍ من الروح حتى شعرت بيدي عيسى تجذبها إليه وهو في حالة انهيار، فتحررت وهي تتشبث فيه وتسنده حتى وصل إلى ذلك الجرَّار، سندته هناك ثم زحفت على ركبتيها ويديها وهي تبدأ في الانهيار التلقائي.. تتفحص طعنتي الخنجر في ظهره.

– عيسى.

الصوت لم يكن ينتمي لها، بل لحمزة الذي كان يهرول ناحيتهما يتبعه إيليا.

هتف إيليا بقهر:

– لقد تأخرنا، أخبرتك يا حمزة.

تشنج وجه حمزة وهو يأمره:

– صَهْ، وناولني صندوق الإسعافات الذي أتينا به، أحتاج إليه لتقطيب الجرح.

أمسك عيسى بيد حمزة يوقفه ثم رفع وجهه الشاحب نحو وجهها الباكي الذاهل يقول بجمود:

– لقد انتهى وجود جفرا هنا وأخذتْ بحق والدتها قبل أن تُدفن.. لذا أريدك أن تنفذ عهدك لي.

ابتلع حمزة ريقه وهو يلقي نظرة خاطفة نحو جثة عزرا ثم نظر للفتاة التي تتمسك بصدر صديقه متذكرًا فتاة أخرى صلفة مستفزة ومضطربة لا تقرب لهذه بصلة، وكأنها شطرتها وتخلت عنها بغموض وريبة لتخلق أنثى كهذه.. مختلفة، وماذا يجد وصفًا ليقوله عنها؟ فسأل:

– قتلته؟

قال عيسى بجمود:

– قصاصها، وقد نالته بما يناسبها.

– دعني أضمد جرحك وأبعدك عن هنا.. ثم...

قال عيسى من بين أسنانه:

– لا، سترحل الآن وحالًا، ولن تنظر وراءك حتى تجبرها على عبور الحدود المصرية.

صاحت جفرا وهي تقفز كالمجنونة تتخبط:

– لقد قتلته.. لقد انتهينا من هذا الكابوس.. لماذا تريد تركي؟ دعني معك أذهب إلى المغارة، نتخفى في قرية أخرى، أرجوك.. أرجوك.

سيطر عليها عيسى بصعوبة يثبتها لتنظر إليه، ثم قال بقسوة:

– ألا تفهمين؟ ما لنا وجود هنا يا جفرا، لقد انتهينا ووضعت النهاية بأبشع مما تخيلت، لقد كُشف كل شيء، وإن كنت خدعتهم مرة، فبات مستحيلًا تكرارها.

هزت رأسها مبعثرة شعرها القصير المشعث حول وجهها الباهت وشفتيها الزرقاوين وعينيها الغائرتين المطعونتين، ثم قالت:

– أرجوك دعني أبقَ معك.

أسبل أهدابه متألمًا ثم قال بصوت سحيق متعب يرجوها:

– أرجوكِ أنتِ يا حبيبتي، لا تجعليني أعيش تلك اللحظة ثانية، لا تجبريني أن آمر رجلًا بسحبكِ قسرًا من فوق صدري وأراقبه يحملكِ، يحاوطكِ رغمًا عنكِ، يلمسكِ بمباركتي حتى يدفعكِ إلى رحلتكِ الجديدة دون أن أهُبَّ لأنزعكِ منه وأقتله قبلكِ.

صمت قبل أن يبتلع ريقه يعيد التحديق إليها، يتشربها لمرة أخيرة.. فقط مرة أخيرة، يعود ليرسم كل تفصيلة منها داخل فؤاده وجفونه واشمًا إياها في بضع من روحه التي ستغادر معها:

– لست بتلك القوة يا جفرا، لذا أنا أعتمد عليكِ لتنفيذ الأمر، لا تجعليني أعاني وأنا أفارقكِ.

تدفقت دموعها وتطورت إلى نشيج مقهور وهي تجد نفسها تهز رأسها أخيرًا توافقه، ثم همست بتوسل مرير:

– ضمني إذن ...الآن فقط أفهم ما عَنَتْه لورين.

سعل بقوة بسبب جرحه العميق قبل أن يضع حطته المعطرة بدمائه فوق كتفيها ثم سحبها كلها بقسوة وجرفها جرفًا زارعها بداخله:

– عديني دائمًا بأنكِ ستتذكرين أني سأحبكِ حتى بعد أن يتوقف قلبي عن النبض.

*****

بعد يومين استغرقتهما في رحلة نزوح شاقة، حتى وإن توفرت لها الراحة خلال رحلتها القصيرة الزمن، الطويلة جدًّا على قلبٍ ينزف ويعاني، وعين من كثرة تدفُّق الدموع نضبت ولم يعد في أنهارها قطرة أخرى تنعى نكبةً، وتأمل في نهوض جمرة المقاومة، تُعيد سيد المقاومة إلى بداية جديدة، يدفعها سحر العنقاء.

وقف بها حمزة على المعبر الفاصل بينهما وبين الأراضي المصرية، كاشفين على بعد خطوات عن جنود مدججين يحرسون أبواب أرض الكنانة، أرض جديدة يأمل عيسى أن لا تتلطم فيها وتضيع بين دروبها،

ربما هو محق.. وربما على خطأ، ولكن من قال إنها ستُسلِّم برسم طريقها دون أن تسلك هي طريقًا ستختاره بعد شحذ قواها من جديد؟

– هنا انتهت رحلتي معكِ، وأكون قد أوفيت بعهدي لزوجكِ.

ابتلعت جفرا غصة مكبوتة قبل أن ترفع رأسها تنظر إليه بمشاعر مشحونة ثم قالت بقسوة:

– لن أتحرك من هنا قبل أن أفهم.

غض بصره عن ملامحها وهو يسأل:

– أي شيء سأجيبكِ عنه فما عاد هناك نفع للألغاز.

كانت كل عضلة في وجهها تغلي بالغضب قبل أن تقول بصوت خالٍ من الحياة:

– لقد شككوا فيك، رأيت في أعينهم اتهامًا صارخًا بأنك خائن، كيف يصح أن يأتمنك بالنهاية على نفسه.. وعليَّ؟

رفع حمزة رأسه للسماء، وتكاد تقسم أنها رأت دموعًا أبية تترقرق داخل مقلتيه، يحاول منعها ببسالة قبل أن يقول:

– كل فرد في هذه الدنيا خُلق لقدر محدد، جزء من دَور داخل حياة كبيرة كُتِب أن يحمل مسؤوليتها على عاتقه، دون أنانية آثر مصلحته متغاضيًا عن أرواحٍ مصائرُها معلَّقة ومنتظِرة دور المنقِذ هذا.

قالت باستفزاز:

– أنت تتكلم كبطل!

قال ببساطة وهو يعود ينظر إلى الأرض تحت قدمه:

– أنا لم أسأل يومًا بطولة، ولكن عندما كُشِف لنا وجود خائن يشي بنا، وقد فشلنا في معرفته تحديدًا، طلب مني عيسى أن أُمثِّل دور الرجل الذي ملَّ القضية وضجِر من النضال، ورغب في التنازل عن دينه وعرضه ووطنه أمام حفنة من مالهم العفن.

انكمشت جفرا لوهلة وهي تنظر إليه شاعرة بالصغار، ثم همست:

– لم تتردد أن تجعل الجميع يشككون فيك، يرمونك باتهام قد يصاحبك طويلًا فقط لكشف آخر قد لا يُكشف؟

قال حمزة بهدوء:

كُشِف ونال جزاء فعلته التي ستلصق العار باسمه وعائلته لألف جيل قادم.

صمت قليلًا مبتلعًا ريقه ثم قال بمرارة:

– ما يؤلمني أنهم غادروا الآن قبل أن يعلموا أن رفيقهم لم يبِع أبدًا ولن يفعل.

تمتمت بحرقة:

– أنا آسفة.

قال حمزة بهدوء:

– نحن أدوار في حياة بعضنا بعضًا، دائرة مكتملة تدور وتتوقف ثم تتمحور من جديد معيدة لكل ذي حقٍ حقه، من ظلم وشر أو عدل وخير.

عادت تنظر إلى تلك النقطة العسكرية والأسلاك الشائكة، ثم همست بمرارة:

– لماذا لا تختار حياة جديدة وقد باتت عودتك محكومة بالخسارة؟

ابتسم حمزة بتفهم قبل أن يمد لها حقيبة صغيرة للغاية كان يحفظها معه كأمانة من عيسى في أثناء تنقلهما من منزل إلى منزل قدَّم لهما أصحابها الحماية والضيافة سرًّا في طريقهما إلى هنا، ثم قال:

– هل تذكرين ما قلتُه لتوي؟ كل فرد قُدِّر له دور معين، حتى إن سقطت الراية من فرد يتلقفها آخر.

همست وهي تلتقط منه تلك الحقيبة:

– دائرة تُخلق من جديد، وأسطورة تولد مع كل نَفَس يخرج للحياة.

تقهقر حمزة خطوات وهو يقول بهدوء شديد صافٍ رغم عاصفة المشاعر:

– لا تنسي يا جفرا المستفزة.. على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

أغلقت جفنيها تمنع نفسها من الانهيار وهي تردد بصوت داخلي:

– لن أنسى.. لن أنسى أبدًا.

*****

عندما عبرت الحدود خلال ساعة لا أكثر، لم تصطدم كثيرًا بذلك الضابط الذي أصر أن يصطحبها في إحدى سيارات الدفع الرباعي، وهي لم تعترض أو ترفض، فقط كانت في حالة من الفوضى، من انخلاع الجلد عن اللحم، والروح تغادر الجسد.. تنسحب منها ببطء نحو الأرض التي تركتها للتو رافضة أن تتخلى عن ترابها وإن كان جسدها استطاع أن يخطو لموطن آخر.

كانت تبدو شاحبة منهارة وهزيلة الجسد، خلال اليومين الماضيين فقدت نصف وزنها تقريبًا، عيناها غائرتان في محجريهما، فمُها جافٌّ يابس من قلة الارتواء، لولا الصغير الذي ما زال يتشبث في أحشائها بمعجزة لكانت في عداد الأموات وارتاحت من ذلك الاحتراق الذي يصهرها.

– هل أنتِ بخير؟

فغرت شفتيها وهي تنظر إلى ذلك الضابط بتوهان، ثم استطاعت تحريك شفتيها بتقطع وهي تقول:

– لن أكون بخير أبدًا، هل تعلم معنى أن تُسرق فرحة عمرك وتُهدر كل حياتك؟ هل جربت من قبل أن تصبح بين ليلة وضحاها بلا أرض، بلا عائلة، بلا قلب يعطف عليك ويحبك.

نظر إليها الضابط بقهر قبل أن يتمتم:

– إن أخبرتكِ أن كل فرد في هذه الدنيا يعاني بطريقته، يبتليه رب العباد على مقدار صبره، فلن يكون ذلك شافيًا لما تعانيه أنت وكل من يسكن الأراضي المحتلة.

توقفت السيارة على بعد بضعة كيلومترات عندما شرد بصرها في ذلك المكان وهي تقول بحرقة:

– على الأقل ما زال هنا من يتمسك بأنها أرض محتلة.

هز الضابط كتفه بتسليم للأمر الواقع قبل أن تهبط هي من السيارة تبحث بعينيها فقط عن أي وجه مألوف تعرفه، وكان أول من اكتشفته ووقف ببطء من مقعد رخامي أشبه باستراحة، ذلك الرجل الذي رأته مع لورين مرة، وحدثه عيسى على الهاتف، واسمه وحده الذي لا يغادر الخاطر، كان قادرًا على خلق أمطار من الدموع داخل مقلتيها.

اهتز وجه جفرا وانفرجت شفتاها تطلق آهة مكتومة مرافقة لدموعها وهي تراقب وجه تميم الذي شابه قبرًا يرثي ساكنيه متمنيًا لفظهم لا احتضانهم، ودون كلمة كانت ترى السؤال داخل عينيه، تسمع صراخ فمه المكتوم:

– الرفاق؟

أجابته دون تلقي السؤال الصريح بنَفَس مقهور منهار:

– اصرخ من هنا بأسمائهم فلن تجد إلا صدى المغارة الموحش يجيبك بقسوته.

هبطت دمعة واحدة على طول وجه تميم، دون أن يبالي بها، دون أن يعبِّر عنها رغم جمود ملامحه وثبات وقفته، ومن خلفه كان يتراءى لها وجه رجل أشيب الرأس، ربما تخطى عمره الستين، ينظر إليها بلهفة وأمل، بسؤال لا تملك إجابته، وجه رجل تعرفت إليه دون أن يفصح عن نفسه، كيف لا وقد ملك من ملامح الحبيب الكثير.

تمايلت وقفة جفرا أخيرًا تسمح لوقت الانهيار الذي طال أن يتملك منها عندما ظهرت لورين أمامها من اللامكان تنظر إليها كمن فقد كل عزمه وحياته وخسر آخر معركة كان يتشبث فيها ليعارك الحياة.

قالت لها:

– هل أنتِ زوجته؟

أومأت جفرا بوجهها الحزين الغارق في بكائه، تمتمت لورين وكأنها تتهرب من سؤال يكويها:

– لم أتخيل أن يربطكِ بمصيره أبدًا، لقد ظننت أنكِ...

لم تُجِب جفرا بالكلمات.. بل هزت رأسها بنفي مرير، ثم فتحت تلك الحقيبة بتعب وقدمت لها صندوقًا خشبيًّا صغيرًا قديمًا وهي تقول بنبرة مجهدة:

– صقركِ يُقرئك السلام، يرسل لك اعتذاره عن أنه تأخر في تقديم هدية ميلادكِ ما يقارب الخمسة والعشرين سنة.

كان كل لورين يختض بالفزع وهي تمسكه منها تفتحه على مهل لتكشف بعد كل هذا العمر ما كان ينحته أخوها بنفسه: (صقر وثلاث حمامات يحملن أغصان الزيتون في أطراف فمهن في حين يظلل صقرهن عليهن بجناح قوي).

خبطت لورين يدها على فمها ثم استدارت نحو والدها وهي تهز رأسها بنفي لشيء مجهول.

استدارت جفرا من جديد وهي تقول بنبرة خاوية غير مترابطة مشحونة بعظم أشجانها:

– لقد قتلوا أمي، وابن خالي.. و.. وعيسى قال.. أعني أخبرني أنه يعتذر منكِ.. لأنه لم يقدر على الوفاء بوعده لك.. فلديه حبيبة أهم نذر دمه فداءً لها.

كان وجه الرجل يشحب شيئًا فشيئًا وهو يقترب منها في حين هي تتنفس بصعوبة ويدها تحيط بطنها:

– يطلب منك أن تحسن الحفاظ على أمانته هذه المرة.. أنا.. أنا آسفة.. أظن أني فقدته هو الآخر..

كادت تسقط قبل أن تجد يدي أيوب تلتقطها وبصدر لورين الذي انهارت معها حتى هبطت على الأرض تحيط رأسها في صدرها وهي تنتحب بانهيار صارخة بكلمة واحدة تحمل من القهر ما قد يملكه كل العالم وبكل اللغات من حزن:

– لا.. لا.

وبين سحابة اليقظة والإغماء التي كانت تلفها شعرت بيد حانية مريحة تمسد على رأسها تسند ظهرها، يد كانت تذكرها بيد أبيها الراحل وكأنه بُعِث إليها يهدئ من روعها ويسكت بشاعة الوحشة التي سكنت أضلعها.

– أمي لا ترحلي ولن أعاند هذه المرة وأرحل معكِ لأقصى بقاع الأرض.

هذا كان آخر ما همست به قبل أن تلفها غيمة ناعمة مريحة تأخذها من هذا العالم المريع إلى عالم آخر، إلى الجنة لتجتمع فيها مع كل أحبائها.

*****

بعد أسبوعين وقفت جفرا بثوبها الأبيض الحريري المطرز بالرسومات الفلسطينية بخيوط حمراء ولفت رأسها بحطته التي سترها بها قبل أن تفارقه، في البقعة نفسها التي قابلت فيها عائلته عندما خطت أرض مصر أول مرة، لقد رغبت فور خروجها من المشفى بصحبة أبيه وأخواته أن تودع بعينيها أرضها الممتدة عبر ذلك المعبر.. لمرة لن تكون الأخيرة.. شعرت بيد أيوب الحانية تحط على كتفها وكأنه يدعمها، ثم قال بهدوء رغم ذلك الوجع الذي يخفيه عبر كل نظرة وحركة تصدر عنه:

– قلبي يحدثني أنه بخير، بأن ما يتناقلونه عن مصيره مجرد شائعات غرضها تمزيق همم المناضلين هناك.

لم تعلق بشيء، فقط أومأت بيأس وهي تضع يدها على طفلها العنيد المتشبث بالحياة، من الجيد أنه ورث عنها وعيسى ذلك العناد قبل أن يولد حتى، فلم تفقده وقد أكد الأطباء يوم دخولها ذلك المشفى وعزوفها عن الإفاقة أو التفاعل طوال هذه المدة على أنه لن يثبت.

سمعت أيوب يقول بصوت شاحب متألم:

– سأمنحكِ وقتًا مع نفسكِ، وبعدها سنتوجه إلى داركِ الجديدة بالقاهرة.

لم ترد وإن كان صدَر عنها شهقة مكتومة أخرى لم تغادر شفتيها، وفور أن شعرت بابتعاده فتحت هاتفها وطلبت رقمًا تأخرت كثيرًا في محادثة صاحبته:

– رفيدة معكِ.

الدموع كانت تحجب الرؤيا عن عينيها وهي تهمس بقهر:

– كان.. كان أخي بالدماء، ربما مدة معرفتي به بسيطة إلا أن حبي له كأخ كأنه وُجِد منذ أعوام.

أطلقت رفيدة تنهيدة طويلة مجهدة وحزينة للغاية قبل أن تقول باختناق وإن اتسم بقوتها المعتادة:

– أصدقكِ، فاللحظة الواحدة بين ذراعيه كانت بمئة سنة زواج.

– رفيدة.

ضغطت رفيدة على عينيها بأصابعها ثم همست:

– لا تبكي، إياكِ.. لن يروق هذا لأحمد.

اصطكت أسنان جفرا وكأنها تقاوم نوبة برد تجمد أعضاءها وهي تهمس:

– كيف حالكِ؟

قالت رفيدة بألم:

– أعيش، أتنفس، آكل وأشرب أيضًا، أهتم بصغيريه القادمين قريبًا، هل أخبرتك أنهما صبيان؟! الناس ما زالت تقاوم ثائرين، يتكرر المشهد برتابته حاصدين مزيدًا من الأرواح.

صمتت لوهلة تستمع لنحيب جفرا الناعم قبل أن تكمل باستسلام:

– الحياة تستمر يا جفرا ولا تتوقف، فقط ما يوجعني أنني عندما بحثت عمن أبثه مرارة فقدي أحمد ليصبرني على ابتلائي، لم أجد إلا أحمد ذاته.. ما عشته معه هو القادر على إيقاف هذا النزيف.

قالت جفرا وكأن الكلام قد نضب منها فلا تعبر عما تعاني إلا بما تشعر:

– أنا أتألم.

– ومن هنا لا يفعل؟

صمتت رفيدة من جديد قبل أن تتابع:

– هل تذكرين عندما أخبرتكِ بأننا اعتدنا؟

– نعم.

قالت رفيدة بجمود:

– وها أنتِ جرَّبتِ معناها.. لقد جرِّبتِ الحب، واعتدتِ النضال، جرَّبتِ البحث واعتدتِ النظر لحسن تاريخ الأرض.. جرَّبتِ معنى عشق يسحرك، وتذوقت معنى اعتياد الحياة، والآن عليكِ أن تعتادي مرارة الفقد.

همست والكلام بينهما يفقد معانيه، إذ إن إحساس كل واحدة فيهما بالأخرى كان كافيًا حتى ولو كانتا على بعد أميال من بعضهما:

– أمي؟

ردت رفيدة باختصار:

– شُيِّعت بجنازة مهيبة ترقد بجانب جسد أخيها وأحمد الطاهرين، أذهب إليهم يوميًّا، ويقرؤونك جميعهم السلام منتظرين منكِ ما وعدتِ بنشره عنا.

هتفت بغصة خانقة:

– سأفعل، سأنشر كل ما عرفته، سأجتهد بحثًا عما لم أحصل عليه، سأكتب حتى تنضب كلماتي وتجف حروف الكلام، ولكني أبدًا لن أسمح أن يسرق قلبي أو يسقط عقلي مرة أخرى.

همست رفيدة:

– الآن فقط أستطيع الهتاف باسمكِ الذي استحققته، وبأنكِ تليقين به.

– عيسى يا رفيدة، لقد.. لقد تركته خلفي جريحًا.

– آسفة يا جفرا.. يبدو أن ظريف الطول الذي تجلَّت روحه فيه يصر على تكرار الأسطورة فلا نعرف إن كان من الأحياء أو الأسرى.. أو...

هتفت جفرا:

– لا.. لا تقوليها.

– لن أجرؤ، بالنهاية لن يقتلنا ما نجهله.

– وربما قد يقتل أرواحًا ما لا نعرفه يا رفيدة.

أخفضت جفرا هاتفها بعد لحظات أخرى تنظر بشرود النظرة المتمنية لأرضها البعيدة نفسها، يدها تمسد على طفلها وهي تخبره بوعد آخر حر:

– سنعمل بوصية أبيك لمدة قصيرة يا صغير، وبعدها لن يكون هناك شيء بالأرض سيمنعني ويمنعك من تحقيق حلم العودة، لقد جربت أمك معنى الإيمان بأرضنا، معنى الحقيقة الوحيدة التي يُضحَّى من أجلها بالأرواح، نحن لن نترك بيوتنا وأرضنا لهم، لن نعرض أنفسنا لقهر الذين هاجروا ونقول ليتنا ما افترقنا.. ليتنا متنا ولا نزحنا.

هزة نسيم عليل كانت تجفف الدموع من فوق وجنتيها، تطايرت على أطراف فستانها بزوبعة سحرية جعلها تتذكر نسمة صيفية اختلطت فيها رائحة الياسمين والزيتون وهي معه على سفح الجبل ولسانها يردد

تلقائيًّا:

يا ظريف الطول وين مغرب وين
قولي لمين كتبنا هادا اللحن
والمغترب كيف ما يعود ويحن
إلا ما يسمع منا مجاوزنا

****

في اللحظة نفسها وداخل الأراضي المحتلة، وفي حين كانت هي تنشُد ريحه.. كان عيسى وإيليا ينفذان ما جهّزا له طويلًا، ليس انتقامًا عشوائيًّا رغبة في استباحة الدماء.. وإنما هي ثورة وانتفاضة غضب ورسالة مفادها أننا لن نسمح بالمزيد من هدر دماء أطفالنا ونسائنا وشبابنا دون مقابل، وقَصَدَ هذه المرة ألا يكون تخطيط يخرجون منه سالمين بل هي مواجهة بالأسلحة، ضرب في الوجه لا طعن من الظهر.. كما كل جبان منهم.

ترصَّد كلاهما الطريق قاطعين إياها على حافلة مليئة بالحاخامات وبعض المستوطنين والجنود الذين كانوا في وقت راحتهم دون سلاح، ثم صعدوها بالقوة وبالسلاح، وقف عيسى وسحب السائق يرميه على الممر الضيق، ثم هتف بصوت جهوري من بين صراخ الهلع الذي أصابهم:

- سأمنحكم خمس دقائق ليهبط كل طفل وامرأة من هنا.

تصاعدت الهستيريا واندفع رجالهم وشبابهم قبل النساء إلا أنه أطلق في الهواء عدة طلقات، انبطح الجميع وبدأ الحاخامات في توسله وتذكيره بتعاليم الإسلام، ابتسم عيسى تحت اللثام ساخرًا قبل أن يمر إيليا ليتفحص الركاب ويعزل امرأتين وثلاثًا من الأطفال ومن ثم يأمرهم بالهبوط، وفور أن أغلق باب الحافلة.. كانا دون تردد يطلقون النار على حاخاماتهم وجندهم الذين علموهم جيدًا كيف يحتقرون الناس، كيف يفترون على الله بأنهم ينفذون كلمته لسيادة البشر وقتل الأطفال والشيوخ وإبادة قرى ومدن بأكملها.

موت سريع، رصاص رحيم، لم يتعمدوا فيه التشفي والغل أو الحرق كما يفعلون هم، وببضع لحظات أخرى كانت سياراتهم العسكرية تحيط الحافلة من كل جانب ويبدؤون بإطلاق النار عليهم.

قفز إيليا على مقعد السائق محاولًا الهرب، في حين انطلقت السيارات تطاردهم وتضرب عليهم النار، أخرج عيسى سلاحه من النافذة وحاول إبطاءهم والنيل منهم، انهمرت الأوامر العبرية بتسليم أنفسهم، في حين كان الرصاص لا يتوقف، وهو أيضًا لم يكفَّ عن رمي إطارات أحد السيارات بالنار وثقبها لتلتف حول نفسها مرتين قبل أن تصطدم في سيارة أخرى.. وأخرى، مسببين عدة حوادث على الطريق السريع.

- اسلك طريقًا مُقفِرًا يا إيليا.

التفت إليه إيليا وهو يترنح عاجزًا عن الإمساك بعجلة القيادة، ثم قال من بين أصوات صخب القتال المستمر:

- لا أعتقد أني سأنجو، يجب أن نعتمد هذا بديلًا.

أحنى عيسى جذعه وهو يتنقل ويتخبط بين المقاعد حتى وصل إليه وهو يهتف فيه:

- تنحَ.. سأقود أنا.

أبعد إيليا يده التي يضعها على جانبه مغطيًا رصاصة اخترقت جانبه ثم قال بقوة:

- بل سأستمر، وسأبطئ بعد ميلين بين الأشجار لتقفز أنتَ، وتفر من هنا.

صرخ فيه بحدة:

- لن أهرب وأترك جريحًا ورائي.

قال إيليا بجهد ضاحكًا:

- بل ستنفذ.. هذا أمرٌ يا قائد، الألْف التي وعدتَ بها ثمنًا لأحمد لم تثأر منهم بعد، ستنفذ يا عيسى أيوب، لأن حق جدك وجدي لم يعد بعدُ، ستفعل لأن التاريخ ينفي الخرافة، ولأن الواقع يرفض الأسطورة، لذا يجب أن تثبت للناس هذه المرة بأن أبطالنا لم يكونوا يومًا إلا مزارعين في حقول وعِرة ينبتون محاصيل الغد لتحصدها أجيال تعود لإيمانها بتحرير الوطن.

- سأطلب الشهادة على سلاحي، هنا نهاية طريقي.

قال إيليا مجادلًا بقوة:

- بل هنا نهاية تاريخك، هنا أنت ستفقد معنى كل ما فعلت إن استسلمت للموت، وبيدك أن تحيا أطول وتدمر المزيد منهم.. ارحل يا نجار، لتعيد بناء ما هدمته مطارقهم الصماء.

ومن بين الجنون الذي يحدث والرصاص الذي يمر والمطاردة التي تلاحقهما كان إيليا يفتح الباب الخلفي ويفقد توازنه على عجلة القيادة لوهلة دون أن يبطئ سرعته ثم هتف فيه صارخًا:

- الآن.

ودون تفكير آخر.. كان عيسى يودعه بعينيه قبل أن يقفز هناك ويتدحرج جسده على تلة منزلقة في غابة كثيفة، ثم يختفي ويعتم أي خبر عنه منذ اللحظة إلى الأبد، جاهلين إن كان سينجو بجراحه التي يحملها وما زالت تنزف أو سيذهب إلى أرض أخرى مجاهدًا.

أما إيليا استطاع أن يستمر في القيادة أميالًا أخرى، حتى توقف من فرط الإجهاد والألم، وبعد دقائق من التفحص والتأكد من خلو الحافلة.. كانوا يقتحمونها رافعين في وجهه عدة أسلحة، معتدين عليه بمزيد من الضرب، وما ساق فيهم الجنون بحثهم بين الجثث عن الآخَر الذي رأوه واعتقادهم أيضًا أن هناك المزيد.

ثم تقدم واحد منهم يجر جسده الدامي وهو يقول ببغض:

- ستمْثُل للمحكمة وتُقاضى لأكثر من ألف سنة لِقتلك عشرة من الأرواح البريئة.

رفع إيليا وجهه يبتسم له باستفزاز ثم قال مصححًا:

– أنت مخطئ في العد، لقد اغتلت بيدي أكثر من عشرين جنديًّا وحاخامًا، في حين أن صديقي الذي أفلت ربما تفوَّق عليَّ بأكثر من ثلاثين.

ضربه بمؤخرة البندقية وهو يصرخ فيه بِغِل:

– أيها الحقير.. ستعاني وأنت تتعفن في السجن.

رفع إيليا وجهه وهو يقول بالضحكة المستفزة نفسها:

– ومَن الأحمق الذي أخبرك بأن دولتكم ستدوم كل هذه المدة؟ ربما في القريب ستكون أنت من أضعه بيدي داخل سجونكم الحصينة.

*****

وكأن الأرواح تتوافق.. تشعر ببعضها، عندما ضغطت جفرا على شفتيها تمنع همسها مستمتعة بنسمة مسك عميقة اشتمتها.. جاءها صوته تحمله لها الرياح يهمس:

– سأحرسكِ دائمًا، جزء من روحي سيحيطكِ، وجزء آخر مني سيسكن أحشاءكِ.

ارتجف صدر جفرا وهي تطلق نفسًا ساخنًا وهي تستسلم لأيوب الذي عاد يحيط كتفيها يديرها لتغادر معه، رفعت رأسها واتبعت خطواته وهي تستجيب له شاعرة بروح عيسى تحاوطها.

مفقود أم لا.. أعاد ترميم الحكاية أم لم يفعل.. سيظل عيسى بداخلها رجلًا أحبته كوطن.. ووطنًا أحبته في رجل.. رجلها الأوحد الذي وقعت في عشقه من نظرة عبر عدسة كاميرا وضربة حجر.

أمسكت بأناملها حطَّته تدفن وجهها بها وهي تعود لتهمس من جديد بالنغمة نفسها:

«يا ظريف الطول الحق يا ظريف
اللي قالوا عنها تريدك نزفت ع الرصيف
بيقولوا دورك يا خيتا عنا خفيف
هدول اللي ما عرفوا تاريخ بلادنا
يا ظريف الطول يا سن الضحوك
يلي رابي في دلال أمك وأبوك
يا ظريف الطول يوم الي غربوك
شعر راسي شاب والظهر انحنا»

شكر وعرفان

والشكر بالطبع حتى وإن لم يصل إلى مؤلفي الكتب التي استعنت بها... ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

كتاب فلسطيني بلا هوية لصلاح خلف.

كتاب الدراسات الفلسطينية لمجموعة من الأستاذة الفلسطينيين.

كتاب التطهير العرقي في فلسطين لإيلان پاپه.

مقالات للأستاذ الدكتور فلسطيني الهوية محسن محمد صالح.

فلسطين وأكذوبة بيع الأرض للدكتور مروح نصار.

بالنهاية أتمنى أن يصل إلى القارئ هدفي من الرواية وما حاولت إثباته بالأدلة التاريخية، وأيضًا ما حاولت إيصاله من الفكرة عن واقع البشر في الوقت الحالي بعيدًا عمّا يحاول الإعلام أجمع ترويجه بتواطؤ مع الحكايات الإسرائيلية...

الخاتمة

عذرًا.. هذه حكاية لم يُكتب لها الخاتمة بعد، فأصحاب القضية ما زالوا يعانون، يصارعون، ليحيوا رغم كل الظروف والاضطهاد، محاربين بعلمهم وثقافتهم، بالتمسك بإرث أجدادهم، وصمودهم، ما زالوا في عدل الله يوقنون.

لا خاتمة إلا المحسومة لكل مَن يؤمن بالله ورسوله وكتبه.

«هذه الأرض لا تتسع لهويتين، إما نحن.. وإما نحن، نحن الباقون وهم العابرون»

تمت بحمد الله